جامعة النجاح الوطنية
كلية الدراسات العليا

الحية في الشعر الجاهلي

إعداد
محمود صبري علي عبد الله

إشراف
د. إحسان الديك

قدمت هذه الرسالة استكمالاً لمتطلبات درجة الماجستير في اللغة العربية بكلية الدراسات العليا في جامعة النجاح الوطنية في نابلس، فلسطين.

٢٠٠٣م

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحية في الشعر الجاهلي

إعداد

محمود صبري علي عبد الله

نوقشت هذه الأطروحة بتاريخ ٨/٩/٢٠٠٣م، وأجيزت.

أعضاء لجنة المناقشة:

التوقيع

١) د. إحسان الديك – رئيساً

٢) أ. د. إبراهيم الخواجا – ممتحناً داخلياً

٣) أ. د. حسن السلوادي – ممتحناً خارجياً

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإهداء

أقدم هذا البحث:

إلى والديّ اللذين ربياني على الفضيلة ...

إلى زوجي التي كانت عوناً لي خلال دراستي..

إلى ولدي صبري، فلذة كبدي..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة شكر

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خاتم الأنبياء والمرسلين، وبعد، فإني أتوجه بالشكر والتقدير للدكتور إحسان الديك، الذي وجهني إلى فكرة هذا البحث، وزودني بعلمه الوافر، ورفدني بالنصح والإرشاد، والفائدة العلمية. وأتوجه بالشكر كذلك، إلى أساتذتي في قسم اللغة العربية، الذين كانوا منارة علم ومعرفة لي ولزملائي. وأتقدم بالشكر والتقدير إلى الأساتذة الأفاضل في لجنة المناقشة الذين سيكسبون هذا البحث قيمة أخرى بآرائهم وتوجيهاتهم السديدة.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الموضوعات

الموضوع	الصفحة
الإهداء	أ
كلمة الشكر	ب
ملخص الأطروحة باللغة العربية	ح
المقدمة	ث
الفصل الأول: الحية في الموروث القديم:	١
المبحث الأول: الحية في الموروث الإنساني القديم.	٢
المبحث الثاني: الحية في الموروث العربي القديم.	٣٨
الفصل الثاني: حياة الحية في الشعر الجاهلي.	٥٣
المبحث الأول: الحية لغة.	٥٤
المبحث الثاني: أسماء الحية.	٥٥
المبحث الثالث: ألوان الحية.	٧٦
المبحث الرابع: جسد الحية.	٧٨
الفصل الثالث: مواضع ورود الحية في الشعر الجاهلي	٩٣
المبحث الأول: الحية والمرأة.	٩٤
المبحث الثاني: الحية والنبات.	١٠٢
المبحث الثالث: الحية والجن.	١٠٦
المبحث الرابع: الحية والرقية.	١١٦
المبحث الخامس: الحية والماء.	١٢٢
المبحث السادس: الحية والأرض.	١٢٨
الفصل الرابع: رموز الحية ودلالاتها في الشعر الجاهلي	١٤٠
المبحث الأول: المعصية والخطيئة.	١٤١

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصفحة	الموضوع
١٥٥	المبحث الثاني: الخلود والحياة.
١٦٥	المبحث الثالث: الخصب.
١٧٧	المبحث الرابع: الحية والشر.
١٨٦	**المعجم الشعري**
٢١٨	**الخاتمة**
٢١٩	**ملحق الأشكال**
٢٣٥	**المصادر والمراجع**
٢٤٦	**الدوريات**
٢٤٨	**الرسائل الجامعية**
B	**الملخص باللغة الإنجليزية (Abstract)**

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فهرس الأشكال

رقم الشكل	عنوان الشكل	الصفحة
١	الأوربوس	٢٢٠
٢	الكاديكيوس السومري	٢٢١
٣	رمز الصيدلة الكريتي	٢٢٢
٤	آدم وحواء والشجرة والأفعى في ختم سومريّ	٢٢٣
٥	الإله نركال	٢٢٤
٦	التنين (موش. خوش)	٢٢٥
٧	عشتار، روح القمح	٢٢٦
٨	الطفل الشمس محاط بالثعبان الذي لا نهاية له	٢٢٧
٩	الثعبان الذي يمثل الزمن في الساعة الحادية عشرة	٢٢٨
١٠	مرجل به (من أعلى إلى أسفل) الظلال والأرواح والأجساد الخاصة بالخطاة	٢٢٩
١١	الإلهتان الحارستان "بوتو ونخبت"	٢٣٠
١٢	المعبود حورس بن ازوريس	٢٣١
١٣	إيزيس والأفعى	٢٣٢
١٤	الإله الأفعى	٢٣٣
١٥	سوسة – إيران عشتار الأفعى	٢٣٤

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ملخص الأطروحة باللغة العربية

الحية في الشعر الجاهلي

يتبين لنا أن الحية احتلت مكانة عالية لدى الأمم القديمة، كالسومريين، والبابليين، والكنعانيين، والفينيقيين، والفراعنة، واليونانيين، والعبريين، الذين نظروا إليها نظرة ملؤها التقديس والرهبة والرغبة، لما رأوا فيها من رموز للخير والخصب والنماء، والتجدد والخلود، دون سائر الحيوانات.

وعلى مستوى الديانات، احتلت الحية دوراً هاماً، فعدتها اليهودية سبب إغراء حواء، والسقوط من العالم السماوي، إلى العالم الأرضي، الذي يمثل الشقاء، وبذلك تكون الحية الشخصية المركزية في تحول آدم وحواء من النعيم والخلود، إلى الشقاء والموت. وفي المسيحية تأثر النصارى باليهود، فرأوا في الحية رمز الحكمة.

أما العرب، فلم ينظروا إلى الحية نظرة طبيعية، على أساس أنها حيوان عادي، بل رأوا فيها حيواناً غريباً ذا قوة خارقة، لذا سموا أبنائهم بأسمائها، الأمر الذي جعلها أكثر الحيوانات ورودا في القصص والحكايات.

وللحية أسماء كثيرة، تتجاوز ثلاثين أسماً، هذه الحية التي ترتبط بالحياة من خلال اسمها، هذا الاسم الذي تعددت دلالاته، مما جعل بعضها أكثر وروداً من غيرها عند الشعراء الجاهليين، وكذلك تعددت ألوانها التي عكست أبعاداً نفسية واجتماعية لدى الإنسان الجاهلي.

ولأهمية الحية في الفكر الجاهلي، تعددت مواضع ورودها في الشعر، فكانت ملازمة للمرأة، في جوانب حياتها، وكذلك لها علاقة قوية جداً بالنبات، هذه العلاقة التي ترجع بداياتها إلى العهد الفردوسي، لذلك كانت لها علاقة بالجن الذي شغل فكر الجاهلين، فرأوا بينهما علاقة وطيدة، بل توحداً، الأمر الذي جعل لديهم مخاوف منها، فاستعانوا بالرقية التي مثلت أملاً في التعامل مع هذا الحيوان القوي.

وللحية علاقة قوية جداً بالماء، لذا أكثر الشعراء من ذكر أماكن المياه التي لم تخل من الحيات، وكأنها حارسة تلك الأماكن، ولكن ذلك لم يمنعها من التواجد في كل أنحاء الأرض.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللحية رموز لدى الشاعر الجاهلي، منها المعصية والخطيئــة، والخلــود والحيــاة، والخصب، والشر، هذه الرموز التي تعود جذورها إلى اللحظة التي أغوت فيها حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، حيث تحولت حياة آدم وحواء من حياة النعيم إلى حياة الشقاء، فقامت العــداوة بين الطرفين إلى يوم الدين، وخلدت الأساطير والأشعار الجاهلية هذه العلاقة، مما جعل الشــاعر الجاهلي يرى في الحية رمز القوة والحيوية والخلود، و بالمقابل مثلت الشــر والــدهاء والفتــك والموت، فهي الأقوى من بين حيوانات البيئة، لذا اتخذها الشاعر الجاهلي سلاحاً معنوياً يهدد به الآخرين.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المقدمة

لما كان الشعر الجاهلي ديوان العرب، وهويتهم التاريخية، إذ ظل يحتضن بين أبياته حياة أمة مارست حياتها مثل الأمم، شغفت بالإطلاع على حياة هؤلاء العرب الذين لم ينصفهم بعض الكتاب والمؤرخين؛ فاعتبروهم امة جاهلة، وعدوا شعرهم شعر رعاة سذج يعبر عن نظرتهم السطحية لقضايا الحياة. من هنا جاء اختياري لموضوع البحث "الحية في الشعر الجاهلي" انطلاقاً من كون هذا الحيوان حيواناً له حضور مميز في الأساطير والروايات والديانات.

فمن دواعي هذا البحث ومبرراته، أن ما يوجد في كتب الأدب العربي من دراسات وشروحات عن موضوع "الحية" لم يتجاوز النظرة التقليدية باعتبارها حيواناً عادياً في شعر الجاهليين، وكذلك عدم تخصص الدراسات التي تناولت هذا الموضوع، فلم يدرس دراسة متأنية شاملة متخصصة، مما أدى إلى افتقار المكتبة العربية إلى دراسة تعنى بهذا الحيوان الذي عدّ من أكثر الحيوانات شيوعاً في الأساطير والمعتقدات الشعبية والدينية على المستوى العالمي.

ويهدف البحث إلى تجاوز طريقة الباحثين التقليدية في تناول موضوعات الشعر الجاهلي، خاصة موضوع الحية الذي كان له حضور على صعيد الشعر، وصعيد فكر الإنسان الجاهلي عموماً. ويهدف كذلك إلى تتبع تأثير الفكر في الشعر فيما يتعلق بالحية والرموز والأبعاد والدلالات التي استخدمت لها.

وما يميز هذا البحث تناوله موضوع "الحية" تناولاً شاملاً مفصلاً على مستوى الشعر الجاهلي، معتمداً على الموروث القديم في الأساطير العالمية، والتوراة والإنجيل، وعند العرب، ويتميز كذلك باعتماده المنهج التكاملي، بحيث اعتمدت على منهجين الأسطوري والتاريخي في الفصلين الأول والرابع، والوصفي في الفصلين الثاني والثالث.

واعتمد البحث على المصادر العربية القديمة، كلسان العرب، وتاج العروس، والحيوان، وحياة الحيوان الكبرى، والمخصص، والمفضليات، والأصمعيات، والأغاني، وتفسير الطبري، وعجائب المخلوقات غرائب الموجودات، المنتخب في تفسير الأحلام، ودواوين الشعراء، ومن المراجع ما كان مهماً مثل بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، وإنجيل سومر، ووادي الملوك وغيرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقسم الباحث الموضوع إلى مقدمة وأربعة فصول وملحق صور، ومعجم شعري، وخاتمة. أما الفصل الأول فتناولت فيه الحية في الموروث القديم، وعرضت فيه حضور الحية ومكانتها في أديان الشعوب القديمة ومعتقداتها وعاداتها وطقوسها بدءاً بالسومريين، ومروراً بالبابليين، والكنعانيين، والفينيقيين، والمصريين القدماء، واليونانيين، والعبريين، وانتهاء بالإنجيل، وكذلك تناولت الحية عند العرب، ونظرتهم لها، ومدى تأثرهم بالأمم في هذه النظرة، ودور الحية في القصص العربي والحكايات، ومغامرات الجاهليين ومكانة الحية لديهم، ومرضهم، وشفائهم من لدغها، وكيفية التعامل مع اللديغ، وعلاقة الحية بالجن ومزاعم العرب عن جسد الحية بكل تفاصيله.

وخصصت الفصل الثاني، لدراسة حياة الحية، من حيث اللغة، وأسماؤها التي رتبتها ترتيباً أبتثياً، حيث جاوزت ثلاثين اسماً وصفة، وكذلك عرضت لألوان الحية وعلاقتها بموجودات الطبيعة. واستعرضت جسد الحية بشكل مفصل بدءاً من الرأس وانتهاءً بالذنب، وتناولت نظرة الشعراء لهذه الأجزاء كالرأس، واللسان، والأنياب، والشدقين، والعينين.

في الفصل الثالث، عرضت لمواضع ورود الحية في الشعر الجاهلي، فوقفت عند الحية والمرأة، وعلاقتهما من حيث اللغة، وأوصاف الشعراء لهما، وعرضت كذلك لعلاقة الحية بالنبات منذ العهد الفردوسي، مروراً بالعهد الأرضي، وعلاقة الحية ببعض النباتات. وتناولت أيضاً علاقة الحية بالجن، وإيمان الشعراء بوجود الجن، ونظرتهم إلى دور الجن في حياتهم، ووجود ظاهرة الهواتف. ثم عرضت للحية والرقية، وسبب استخدام الناس لها، وطرقها، وأساليبها، وشروطها، وعلاقة الحية بالجن من خلال الرقية. وتناولت الحية والماء، وأماكن تواجد الحية قرب الينابيع وخطرها على الإنسان في هذه الأماكن. وكان المبحث الأخير في هذا الفصل الحية والأرض؛ فقسمته حسب أماكن تواجد الحية في الطبيعة، فكان هناك حية الرمل، وحية الوادي، وحية الجبل، والحية والأطلال، ونظرة الشعراء إليها، ووصفهم لها.

وأخيراً، خصصت الفصل الرابع لأربعة مباحث هي: المعصية والخطيئة، والخلود والحياة، والخصب، والشر. تناولت في المعصية والخطيئة وجود الحية في الجنة، وزمنها، وهيئتها، وعلاقتها بشجر الجنة، وبآدم وحواء، ودورها في سقوطهما، وعقدت موازنة بين الشعر الجاهلي وبين ما ورد في الأساطير والتوراة.

وعرضت في مبحث الخلود والحياة مقومات خلود الحية، وزمن وجودها، وبداية حصولها على خلودها، وعلاقة الحية بالقمر. وفي الخصب تناولت علاقة الحية بالأرض والماء

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والنبات والمرأة، وتشبيهات الشعراء لها والصور التي وردت فيها، ورمزيتهـــا. وفـــي مبحـــث الشر، عرضت موقف الشعراء من رمزيتها.

وحرصت على أن يكون هناك ملحق صور يوضح للقارئ تجسيد نظرة القـــدماء بشـــكل مفصل لعلاقتهم بالحية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الأول

الحية في الموروث القديم

المبحث الأول: الحية في الموروث الإنساني القديم

المبحث الثاني: الحية في الموروث العربي القديم

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحية في الموروث الإنساني القديم

كان الإنسان منذ بدء الخليقة عنصراً من عناصر الطبيعة التي تتكون منه ومن غيره، فهناك الحيوان والنبات والتضاريس بأشكالها المختلفة، والظواهر الفلكية، ولم يكن هذا الإنسان منعزلاً في تفكيره عن مجريات الأحداث التي تدور في فلكه، الأمر الذي جعله يشكل آراء وتصورات تجانب الصواب أحياناً وتحالفه أحياناً أخرى، خاصة مع الحيوان الذي عدّ الصديق والعدو في آنٍ واحد.

لذا أضفى الإنسان القديم على بعض الحيوانات طابعاً قدسياً، ليتخذها فألاً للخير، ويحميه من الشر والانقراض[١]، واتخذ بعضها آلهة له، لما فيها من قوة جبارة[٢]، فمن بين هذه الحيوانات التي احتلت حيزا في تفكيره، وشغلته كثيراً عبر التاريخ الحية، التي حيكت حولها الأساطير الكثيرة، التي تنوعت واختلفت من شعب لشعب، ومن دين لدين، ومن زمن لآخر.

فالسومريون من بين الأمم التي اعتقدت أن الحية أصل الخليقة، ورأوا في الحية "تمُّو" أصل العالم والآلهة والإنسان، حيث كانت عذراء، ثم أنجبت الكون دون تدخل ذكري، فكانت تلد الموجودات، وإليها تعود هذه الموجودات في نهاية الزمن[٣]، [وينظر شكل (١)]، ومن أسمائها "الأوربوس" التي عرفت بالأفعى الكونية المائية، التي تضع ذيلها في فمها، لتكون بذلك دائرة مغلقة، فتؤدي الحركة الدائمة لها إلى انفتاح الذيل عن الرأس، فينتج الجبل الكوني[٤]، ولها دورات عديدة في الإخصاب، حيث تعود إلى دائرتها المغلقة، ثم تتحرك وينفلت الذنب عن الفم فتخلق عنصري الذكورة والأنوثة، وهو الخلق الجنسي للكون، الأمر الذي يجعل قمة الجبل الكوني ذكراً، وأسفله أنثى[٥].

---

(١) ديرلاين، فردريش فون: الحكاية الخرافية، ترجمة نبيلة إبراهيم، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣، ص٨٧.

(٢) القيسي، زهير أحمد: الحيوانات والأشعرة، مجلة التراث الشعبي، العددان الثالث والرابع، السنة الثانية عشرة، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ١٩٨١، ص٥٩.

(٣) الماجدي، خزعل: متون سومر، ط١، منشورات الأهلية، عمان، ١٩٩٨، ص٦٩. وينظر، الماجدي، خزعل: بخور الآلهة، (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين). ط١، منشورات الأهلية، عمان، ١٩٩٨، ص٢٨٨، السواح، فراس: لغز عِشْتار (الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة)، ط٦، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦، ص١٥٨.

(٤) متون سومر، ص٧٠ وينظر، الماجدي، خزعل: إنجيل سومر، ط١، منشورات الأهلية، عمان، ١٩٩٨، ص١٣

(٥) متون سومر، ص٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويسعفنا التحليل اللغوي لكلمة (نمُو) السومرية-التي تتشابه مع الكلمة العربية (نما)-في إيجاد علاقة تعني التطور والزيادة، وبهذا يلتقي المبنى مع المعنى(١).

ومن بين الآلهة السومرية التي ارتبطت بالحية، الإله "نِنْكشزيدا" الذي رمز له بثعبانين ملتفين حول عصا [ينظر الشكل (٢)]، وكان إلهاً للطب والخصب "ارتبط اسمه بدموزي، فهو يقضي جزءاً في العالم السفلي ثم يصعد إلى السماوات ... وقد جاء رمزه كثعبان مطابقاً لشخصيته، لأن الثعبان يغير جلده كل عام، ولأنه يخرج من جحور عميقة في الأرض"(٢).

وهو من بين الآلهة التي تتعرض لموت مؤقت كانعكاس للأرض في دورة خصبها الصيفية والشتوية(٣). ولمعناه اتصال خاص بالشجر، حيث يعني سيد شجرة العدل، التي قد تكون شجرة الحياة، ويلقب هذا الإله في المدائح الإلهية بخادم الأرض الواسعة، التي تعني العالم السفلي، ويصور في السماء على شكل ثعبان له سبعة رؤوس(٤).

فنبتة الخلود تخلق من عالم خالد يمثله جسد الآلهة مانحة التكاثر والصحة والخلود، فالأعشاب تنبت من الإلهة الأم الأولى، التي يرمز لها بالأفعى التي يشكل سمها مركباً دوائياً، إضافة إلى جلدها الذي يدل على الصحة والتجدد والشباب(٥)، [ينظر شكل (٣)]، ويشكل مصدراً من مصادر الأدوية الحيوانية المستعملة لديهم(٦).

ويرصد التاريخ أولية السومريين في مجال الطب، وذلك بوجود شجرة الحياة في معتقداتهم وأختامهم ورسوماتهم التي تدل على قدرة نباتات الأرض على إدامة حياة الإنسان، فقد وجد على ختم سومري هذه الشجرة التي تتدلى منها ثمرتان، ويجلس على يمينها ويسارها رجل وامرأة يمدان يديهما لقطف الثمرتين، وتظهر خلف المرأة حية منتصبة على صورة من يهمس في أذنها(٧). [ينظر شكل (٤)]

---

(١) متون سومر، ص٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٩٦.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٩٨.

(٤) أدزارد: قاموس الآلهة والأساطير، ترجمة محمد وحيد خياطة، ط١، دار مكتبة سومر، حلب، ١٩٨٧، ص١٣٧-١٣٨.

(٥) بخور الآلهة، ص١٤٤.

(٦) المصدر نفسه، ص١٥٠.

(٧) بخور الآلهة، ص١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من هنا اكتسبت الحية مكانة لدى السومريين، إذ توضح الصورة مدى العلاقة بين الحية وبين الإخصاب الإنساني والنباتي، وهذا يعكس المعتقد السومري الذي اتخذ الحية شاهداً مباركاً لعملية التزاوج القائمة بين الإلهين، خاصة إذا تذكرنا أصل الكون العائد إلى الأفعى الأم "الأوربوس" في ذلك المعتقد.

وكانت الحية سلاحاً مرعباً في أيدي الآلهة السومرية، ومصدر رعب، لذا اتخذ الإله "نركال" شكل كلب يحمل هراوة أفعوانية مزدوجة[١]، [وينظر شكل (٥)]، وكان للإله "تنكشزيدا" ثلاثة رؤوس، اثنان منها على شكل أفعى، والثالث على شكل إنسان، وكان يتخذ التنين وسيلة ركوبه[٢]. من هنا صارت الحية عند السومريين رمزاً للشفاء والحياة، ورمزاً للرعب والتهديد من أجل البقاء.

ومن المهام التي أوكلت إلى الإله "نِيْراه" الذي اتخذ شكل الحية حماية حياة البشر، وكانت هذه الحية عبارة عن علامات توضع على أحجار الحدود، فكان الإله يستمد قوته من نصفه السفلي المشكل على شكل حية، ولأهميته في حياة البشر؛ صارت تقام له طقوس عبادة كرسولٍ للإله "ساتاران" في مدينة "دير"،[٣] وفي هذا تقول القصيدة السومرية:

(نِيْراه "الإله الأفعى" دفته

ومجاذيفه قضبان القصب الصغيرة

حين يركب إنْكِي السفينة تكون السنة بركة)[٤].

ولم يقتصر اهتمام السومريين بالأفعى، بل تعداه إلى كائنات خرافية أخرى شبيهة بالأفعى، فهناك "موش خوش" التنين الأحمر الناري، الذي يتكون من رأس أفعى بقرنين، وجسمه مغطى بحراشف الأفعى، وقائمتاه الأماميتان على شكل مخالب أسد، وقائمتاه الخلفيتان على شكل مخالب نسر، وذيله ذيل عقرب[٥]. [ينظر الشكل (٦)]

---

(١) متون سومر، ص١٢٨.

(٢) المرجع نفسه، ص١٣١.

(٣) انجيل سومر، ص٦٢. وينظر، قاموس الآلهة والأساطير، ص٣٩.

(٤) المرجع نفسه، ص٦٢.

(٥) متون سومر، ص١٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما علاقة الحية بعالم الأموات فهي قوية، ويظهر ذلك من وجود ثعبان ضخم في العالم السفلي توكل إليه مهمة السيطرة على مياه البحر المالحة، وبقتله ترتفع مياهه التي يسيطر عليها إلى الأرض، وبذلك يتوقف انسياب المياه العذبة، وهنا تحل الكارثة بالطبيعة، ويتحقق القحط[١].

نستنتج أن للحية دوراً إيجابياً فيما يتعلق بالحياة بعامة، فكما كانت السبب في خلق الوجود وتجديده وإخصابه، فإنها السبب في استمراريته، كونها المسيطرة على جانب من المياه.

ويسمى الثعبان الضخم الذي يسيطر على هذه المياه "الإله كُور" الذي يدور صراع بينه وبين "الإله إنْكِي"[٢]، في القصيدة القديمة:

"ليذهب المقدس إنْكِي فيقاتل كُور بأمرنا

هكذا سآمر الإله أن يذهب إنْكِي كي

يقتل المغتصب كُور، وانصاع إنْكِي لحكم

الآلهة، فهيأ قاربه وتوجه عن طريق البحر

إلى كُور، فعلم كُور بذلك، ولمح سفينة

إنْكِي قادمة، فبدأ يرشقها بالحصى

وكان كُور العملاق كأفعى ثابتة

في مقر الأسفل العظيم، هذا التنين

المائي يصعق الماء ويرجه

ولكن إنْكِي قرر مصارعة كُور

فقفز عليه وصارعه حتى

صرعه وطرحه على أرض الأسفل

العظيم ظاناً أنه قد مات، ولكن كُور لا

---

(١) متون سومر، ص١٩٤.

(٢) بخور الآلهة، ص٣٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يموت، فقد خرج بعد زمن بفحيحه" [1].

وبعد فشل إنْكِي يتولى زمام المبادرة(نَنُورتا)، فيهاجم كُور، وينجح - بفضل تراتيل الآلهة الدينية - في ذبحه[2]، لكن المآسي تحل بالأرض حين تبدأ المياه المالحة بالتدفق إليها من العالم السفلي، وتتوقف المياه العذبة إلى البساتين، ويصبح نهر دجلة ساقية ضحلة[3]. وهنا تظهر عظمة مهمة الإله كُور في الحفاظ على خصوبة الأرض.

لكن المعركة لم تنته، فتعمد الآلهة إلى معالجة الأمر، فيضع الإله 'نَنُورتا" أكواماً من الحصى على جثة كُور، فتتحول بعد تجمعها إلى سد تعيد تدفق المياه القوية، فيحصل التوازن مع المياه العذبة، ويحول"نَنُورتا" المياه العذبة إلى دجلة وترتوي البساتين، وتنتهي الأسطورة بلعبة من "نَنُورتا" على كُور[4]. وبذلك تم القضاء على حلم الإله "كُور" في بقائه مسيطراً على المياه التي تشكل عنصراً هاماً في الحياة بعامة، وحياة الثعابين بخاصة، فأينما وجد الماء وجد الثعبان.

ومثلما كانت شجرة الجنة هدف الحية في إغوائها آدم وحواء، كانت شجرة الخولبو - التي يعتقد أنها الصفصاف- مأوى الحية وهدفاً لها[5]، وفي ذلك يقول النص السومري:

(ومرت سنوات، وإنانا ترعى شجرتها
فنمت وكبرت حتى رأت إِنَانا أن موعد
قطعها قد حان، فأمسكت الفأس وحاولت
قطعها، إلا أنها جفلت وتراجعت،
فقرأت التعاويذ والرقى لتكسرها فلم
تستطع، وأرادت معرفة الأمر فوجدت أن

---

(١) إنجيل سومر، ص٩٥- ٩٦ . وينظر، متون سومر، ص١٩٤.

(٢) متون سومر، ص١٩٥، وينظر، إنجيل سومر، ص٩٧. وكريمر، صمويل نوح: أساطير العالم القديم، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣ ، ص١٢٧.

(٣) متون سومر، ص١٩٥، وينظر، إنجيل سومر، ص٩٧، وأساطير العالم القديم، ص١٢٧، وبخور الآلهة، ص٣٠٨-٣٠٩.

(٤) المرجع نفسه، ص١٩٦، وينظر، إنجيل سومر، ص٩٧، وأساطير العالم القديم، ص١٢٧، وبخور الآلهة، ص٣٠٨-٣٠٩.

(٥) المرجع نفسه، ص٢٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طائر الصاعقة "زو" قد بنى عشه ووضع

فراخه في أعلاها وأن عذراء الأرض

المقفرة "ليليث" الإلهة التي تهيم في

البراري ليلاً قد نخرت وسطها وسكنت

فيه، وأن الحية استقرت في قاعدتها) (١).

(فهوى جِلْجَامِش بفأسه على الحية فقتلها) (٢).

فالمتأمل للنص يدرك أن عادة قراءة التعاويذ والرقى في محاربة الحية عادة قديمة وليست حديثة العهد بالعرب، فهناك من سبقهم إليها. ويرشد النص إلى أن المكان الذي اتخذته الحية مقراً لها، مكان الخصب والحياة والعطاء، فمصدر الشجرة نهر الفرات، وهنا تتجسد منظومة الحياة في الماء والشجرة، اللذين يمثلان عنصري الحياة، خاصة أن مكانها كان أسفل الشجرة الذي يقترب من باطن الأرض، الأم الخصبة، التي تبعث الخيرات، وفي هذا دلالة للخصب الذي يرتبط عادة بالحية. وبذلك كانت الحية تنافس باقي المخلوقات لكي تبقي إرادة الحياة، واستمراريتها، في يديها وحدها، خاصة إذا تذكرنا الإله "كُور" الذي كان يسيطر على مياه العالم الأسفل.

لكن بقاء الشجرة تحت سيطرة الحية لم يرق لإنانا إلهة الخصب والجمال، الأمر الذي دعا جِلْجَامِش إلى قتلها، لكي تخلص الحياة النباتية من تأثير قوى الفوضى والدمار والموت المتمثلة بالحية (٣).

ويطلب دَمُوزي من الإله "أوتو" أن يحول يديه إلى ذراعي أفعى، وكذلك قدميه حتى لا يمسك به العفاريت، وحتى تهابه فتبتعد عنه، تقول القصيدة السومرية:

"أوتوا الرحيم تقبل دموع دمُوزي

أحال ذراعي دَمُوزي إلى ذراعي أفعى

---

(١) إنجيل سومر، ص٢٢٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٥.

(٣) السواح، فراس: الأسطورة والمعنى (دراسات في الميثولوجيا، والديانات المشرقية)، ط١، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٧، ص٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أحال قدمي دَمُوزي إلى قدمي أفعى

فهرب دَمُوزي من عفاريته

ولم يعد بمقدورهم الإمساك به" [١].

لم يقتصر وجود الحية في حياة الآلهة السومرية، بل امتد إلى النائمين من الناس الذين برعوا في مجال العرافة، فكان تفسيرهم لمن يرى في حلمه حية سقطت على وسادة مريض، أن هذا المريض سيموت في اليوم نفسه، وأما إذا لازمت الحية وسادة المريض كأنه انتهك قدسية الآلهة، وبالتالي سيموت في العام نفسه[٢]. وكان من يحلم بسقوط حية من شجرة يذهب إلى الكاهن ليفسر له حلمه ليشفى من المرض الذي أصيب به[٣].

والحية سلاح ضد الشر، إذ كان يعمد إليها بعض الشياطين بأمر من الآلهة، فيتخذونها وسيلة تعذيب للإنسان المخطئ والمسيء إلى الآلهة، الأمر الذي يحدث فيه أمراضاً، وظواهر سيئة، مثل لفحات الريح والرؤى المفزعة[٤].

وإذا انتقلنا إلى البابليين فإننا نلحظ إضفاء صفة الشيطانية على الحية الإله، فـ"تِيامِت" كانت مصدر الشر والأمراض في العالم، وكان من بين الكائنات الحيوانية التي اتخذتها سلاحاً فتاكاً الأفعى والتنين في سبيل التصدي للإله "مَرْدُوخ" والبشرية جمعاء[٥]، وبذلك خلد الشعر البابلي في ملحمته المسماة "الإينوما إيليش" الحادثة التي دارت حول الخلق، ومعناها "عندما كان في الأعالي"، ومعناها أيضاً "اليم أفعى البحر" [٦].

(الأم "هَابُور" "تِيامِت" خالقة الأشياء جميعاً

أتت بالأسلحة لا تقاوم، أفاعٍ هائلة

---

(١) متون سومر، ص٢٢٦.

(٢) لابات، وينيه: التشخيص والإنذار في الطب الأكدي، ترجمة عبد اللطيف البدري، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٦، ص١٤، وينظر، بخور الآلهة، ص١٥٣- ١٥٤.

(٣) متون سومر، ص٢٤٥.

(٤) موسكاني، اسبتينو، الحضارات السامية القديمة، ترجمة يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦، ص٧٧.

(٥) بخور الآلهة، ص٢٠٩، وينظر، بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط٢، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦، ص٤٢.

(٦) بارندر، جفري: المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط٢، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيـــع، القاهرة، ١٩٩٦، ص٤٢- ٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حادة أسنانها، مريعة أنيابها

ملئت أجسادها بدل الدم، سمّاً

أتت بتنانين ضاربة تبعث الهلع

خلقت الأفعى الخبيثة والتنين وأبا الهول) [١].

وكان رأس الحية أهم جزء فيها، لدرجة أن الإله "مَرْدُوخ" اتخذه رمزاً لرأسه، ومهمة هذا الإله تتجلى في اتخاذه علامات على أحجار الحدود[٢]، ويصبح رمزاً للإله "تركال" إله الطب[٣]. ومن رموز الحية عند البابليين الخصب، ولأنها كانت أصل الكون والحياة عند السومريين، فإنها لم تتخل عن تقديم المساعدة للملك البابلي الذي حرم من الإنجاب، في صعوده إلى عالم السماء للحصول على نبات سماوي يتمتع بخاصية الإخصاب[٤]. ويبدو أن الحية تظهر حرصها على إخصاب الملك، الإخصاب الذي جعل حياة البشر مستمرة، خاصة أنها كسبت الخلود بفعل نبات أرضي.

كانت الحية أكبر منافس للإنسان في محاولة الحصول على الخلود، فقد حصلت عليه بفضل نبات سحري يعمل على تجديد الحياة، يوم ذهب جِلْجَامِش إلى (اوتو نابشتم) ليحصل منه على الخلود الذي كان من صفات الآلهة، وفعلاً أرشده إلى نبات يدعى (يعود الشيخ إلى صباه كالشباب)[٥].

(وأبصر جِلْجَامِش بئراً باردة من الماء فنزل

فيها ليغتسل في مائها، فشمت الحية

رائحة النبات فتسللت واختطفته، ولما

عادت نزعت عنها جلدها، رأى ذلك

جِلْجَامِش وأخذ يبكي ونزلت الدموع

---

(١) السواح، فراس، مغامرة العقل الأولى، ط١١، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦، ص٦١.

(٢) بخور الآلهة، ص٣١٦.

(٣) المرجع نفسه، ص٣١٩.

(٤) المرجع نفسه، ص٣٢١.

(٥) الأحمد، سامي سعيد: ملحمة جِلْجامِش، دار الجليل، بيروت، ٥٣٢، وينظر بخور الآلهة، ص٣٢٣، باقر، طه: ملحمة جِلْجامِش، ط٤، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠، ص ١٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من عينيه، وقال لأورشنابي:

من أجل من يا أورشنابي كلت يداي؟

ومن أجل من استنزفت دم قلبي؟ لم

أحقق لنفسي مغنماً، نعم لقد عملت

لأسد التراب "الحية")[1].

نلاحظ من النص أن مكان تواجد الحية آبار المياه، ومن الطبيعي أن تكون هناك، لأن ذلك يؤكد حرصها الشديد على الحياة نفسها التي تتمثل في الماء، وعلاقة الحية بالخصب والحياة، واكتسبت الحياة الدائمة بتجديد جلدها، وخسر جِلْجَامِش الخلود، كما خسر آدم النعيم الدائم في الفردوس. ويختزن اسمها (أسد التراب) معنى القوة والسيطرة، لأن الأسد يأكل غيره ولا يكون هدفاً لغيره. ويمكن ربط هذه الحادثة بالعداء الذي استحكم بين الحية وأولاد حواء من بعد حادثة الإغواء كما وردت في الديانات السماوية[2].

وترمز الحية التي سرقت نبتة الحياة والخلود إلى الإلهة (نمُو) التي وضعت ذيلها في فمها، وبأخذ هذه الحية النبتة تكون قد وضعت الذيل في الفم، وبذلك أطبقت على الزمن الأزلي[3]، ولهذه الحادثة يعود الفضل في ترسيخ شعار الشفاء والحياة الذي لا يزال حتى يومنا.

ومن رموز الحية في الفكر البابلي القوة والعنف، الأمر الذي جعل بعض الآلهة يتخذها شكلاً لعصاه التي ترمز إلى ألوهيته وقوته وعظمته[4]. ويبدو تأثر البابليين بالسومريين في مجال

---

(١) الماجدي، خزعل: إنجيل بابل، ط١، منشورات الاهلية، عمان، ١٩٩٨، ص٢٥٠، وينظر، الحضارات السامية القديمة، ص٨٩، الباش، حسن، المعتقدات الشعبية في التراث العربي (دراسة في الجذور الأسطورية والدينية والمسلكية والاجتماعية)، دار الجليل، ص٢٧٢، دالي، ستيفاني، أساطير من بلاد ما بين النهرين (الخليقة، الطوفان جِلْجَامِش وغيرها)، نقلتها إلى العربية نجوى نصر، ط١، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ١٩٩٧، ص١٤٨، القمني ، سيد، الأسطورة والتراث، ط٣، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩، ص٣١٢، هوك، صموئيل هنري، منعطف المخيلة البشرية (بحث في الأساطير)، ط٢، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٩٩٥، ص٤٥، معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم، ص٢٢١، صالح، عبد العزيز، الشرق الأدنى القديم(مصر والعراق)، ١٩٨٠، ص٤٧١، سعفان، كامل، معتقدات آسيوية(العراق، فارس، الهند، الصين، اليابان)، ط١، دار الندى، ١٩٩٩، ص٥٤.

(٢) ملحمة جِلْجَامِش، ص١٦٨، وينظر، بخور الآلهة، ص٣٣٣.

(٣) إنجيل بابل، ص٢٥٥.

(٤) معالم من حضارة وادي الرافدين، ص٦٠، وينظر، بخور الآلهة، ص٣٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

علم الأدوية وشعارهم واضحاً من خلال هذه القصيدة:

(أصبح العالم الأسفل قوياً، وحكمه ملكان قويان أنجبا بعد زواجهما الإله

(تنكشزيدا) سيد الشجرة الطبية،

القوي الثعبان، الذي لا يخاف، وتزوج

(ننكشزيدا) الإلهة (ننازيموا) فأنجبا ولدهما

الإله (دامو) إله الشفاء، والذي صعد من الأرض إلى نسغ الأشجار وحلَّ في لحائها)(١).

فتوضح القصيدة أهمية الحية، وعلاقتها بالشجرة، وقاع الأرض التي تعكس الولادة والخصب بدورتها الشتوية والصيفية لعالم النبات، الأمر الذي هيأ للحية أن تصبح إله الطب والشفاء والحياة.

ومن رموز الحية في الفكر البابلي الشر والدمار، حيث تقول قصيدة:

(تنهدت المدينة و [...] الناس

تناقصت أعداد البشر [...]

ولم يكن لنواحهم حد [...]

من [الذي أنجب] الحية؟

تِعامَة من أنجب الحية؟) (٢).

هذه الحية المسماة (اللابو) وحش مائي خرج من أعماق المياه لتدمير منجزات البشرية، ونلحظ من النص مدى الشر الذي ألحقته بالناس وبمدينتهم، الأمر الذي كشف عن طبيعة الحية كما وردت في الديانات.

وتكون النهاية المحتمة لــ (اللابو) الذي كان نتاجاً للقوى البدئية المنظمة للكون، ودفعت

---

(١) إنجيل بابل، ص٧٨.

(٢) مغامرة العقل الأولى، ص٢٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

به المياه التي ترمز لقوى العماء والفوضى إلى الكون المنظم _نهاية سيئة[١]. وعندما قام (إنليل) بوضع خطة للمعركة، عمد إلى رسم شكل (اللابو) في السماء، بهدف تبيان عظمته، فكان ذلك درب المجرة الذي يقطع السماء المعتمة، ولا يزال ذلك الرسم موجوداً حتى يومنا كما يعتقد فراس السواح[٢].

وأثرت المعتقدات السومرية في المعتقدات البابلية، ويظهر ذلك من ختم بابلي عليه رسم رجل وامراة يجلسان متقابلين بينهما شجرة تمتد يداهما إليها، وهناك حية خلف المرأة كأنها تهمس في أذنها[٣].

إن تصور البابليين لأحوال العالم الآخر بما فيه من موتى استمرار لتصورات السومريين، فقد حلم أمير بابلي بالعالم الأسفل، فكانت الحية من ضمن ما رآه، وحلم كذلك برجل غريب الشكل رجله اليسرى تشبه تماماً الأفعى. وشبه هذا الأمير بعض آلهة العالم الأسفل بالأفعى الخبيثة لشدة روعتهم وهيبتهم القاتلة[٤]. وبهذا كانت الأفعى وسيلة التعذيب والترهيب لدى آلهة البابليين سواء في صراع بعضهم بعضاً، أو في معاقبة بني البشر في العالم السفلي.

ومن الأساطير البابلية التي كان لها حضور واضح في معتقداتهم، أسطورة ايتانا والنسر، التي تناولت الحية حيواناً أسطورياً، وتدور الأسطورة حول نسر وثعبان عاشا على شجرة كانت مركز الحدث[٥]، وقد اتفق الاثنان على الصداقة بحضور الإله شمش الذي يعد بالعقاب للمخالف[٦]، ويظهر من النص أن الحية كانت تتلقى المبادرة من النسر الأقوى، خاصة أنه سكن أعالي الشجرة، وما يلفت النظر اتهام الحية للآخرين بالشر والعداء، وهذا يظهر لأول مرة في الأساطير البابلية والسومرية.

---

(١) مغامرة العقل الأولى، ص٢٢٧.

(٢) المرجع نفسه، ص٢٢٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٤٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٢٨٨- ٢٨٩.

(٥) منعطف المخيلة البشرية، ص٤٩، وينظر، الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق)، ص٤٧٢- ٤٧٣، إنجيل بابل، ص١٨٧، الأحمد، سامي الأحمد، (أسطورة ايتانا والنسر)، القسم الأول، مجلة التراث الشعبي، السنة الحادية عشرة، العدد السابع، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٠، ص١٥٤- ١٥٥، أساطير من بلاد ما بين النهرين، (الخليقة، الطوفان، جيامش وغيرها)، استيفاني، دالي، نقلتها إلى العربية نجى نصر، ط١، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت ١٩٩٧، ص٢٣٤- ٢٣٥.

(٦) أسطورة ايتانا والنسر، مجلة التراث الشعبي، العدد الثامن، ٢:١٥٤- ١٥٥، وينظر:إنجيل بابل، ص١٨٧، الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق)، ص٤٧٢- ٤٧٣، أساطير من بلاد مابين النهرين، ص٢٣٤- ٢٣٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وفعلاً كانت فرائس كل طرف لهما ولصغارهما، لكن الحال لم يستمر، حيث خدع النسر الحية وأكل صغارها، وصعد إلى السماء، رغم نصيحة صغاره، وتذكيره بعقوبة الإله شمش(١). وتتمثل قيمة الأسطورة في إظهار مسالمة الحية، وإنها مغلوبة مظلومة.

ونستطيع القول إن الأسطورة كاملة تضمنت مرحلتين قادتنا إلى مرحلة ثالثة تمثل مركز الأسطورة، ففي المرحلة الأولى يأكل النسر فراخ الحية، وفي الثانية يلقى به في حفرة عميقة، وتمثل فراخ الحية إجراءً طقسياً يؤدي إلى إكساب البشر قوة الإخصاب، وذلك لكون الحية رمزا للخصوبة، ورمزاً للشفاء، ويمثل الهبوط إجراء طقسياً آخر متشابه الغاية، فموت النسر كان رمزياً في باطن الأرض التي تمثل الأم، من أجل بعثه معافىً مزوداً بقوى تتعلق بالإخصاب من الأرض(٢).

ولا تقل الشجرة أهمية عن أهمية الأرض الأم، فقد كانت مقدسة لدى أكثر من قوم، خاصة إذا تذكرنا شجرة الخلد والمعرفة الواردة في الديانات.

ففي هذه الأسطورة تمثل هذه الشجرة منظومة الحياة المكونة من قطبين: الذكري الذي يمثله النسر الساكن قمة الشجرة، والذي يطير في السماء، والأنثوي الذي تمثله الحية الملتصقة بالأرض(٣).

لم تقطع الإلهة عِشْتار البابلية صلتها بالحية، فمن أوصاف عِشْتار التي لها علاقة بالحية، أن جسمها مغطى بحراشف أفعى، وهذا يعكس ارتباطاً وثيقاً بها، وبتجدد جلدها الدوري القمري، حيث ربط القدامى تجديد الحية جلدها بتجديد القمر حياته في دورة شهرية، فيسلخ جلده ويلبس جلداً جديداً، الأمر الذي جعل الحية رمزاً للإلهة القمرية(٤). وكانت عِشْتار متربعة على كل مجالات الحياة البابلية من حب وجنس وحرب ودمار، حتى الأعمال التشكيلية أظهرت على (رأسها تاجاً على هيئة أفعى ذات رأسين) (٥)، [وينظر شكل(٧)]

---

(١) أساطير من بلاد مابين النهرين ، ص٢٣٦، أسطورة ايتانا والنسر، مجلة التراث الشعبي، العدد الثامن، ٢/١٥٩، إنجيل بابل، ١٨٩.

(٢) الأسطورة والمعنى، ص٥٦.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٦.

(٤) لغز عِشْتار، ص١٣٦.

(٥) المرجع نفسه، ص١٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الآشوريون، فقد كانت حية الصلّ من بين مولودات (تِعامَة) الإلهة الأشورية، وذلك في سبيل الدفاع عن نفسها ضد الإلهة التي أوجدتها، وذلك في بداية الخلق والتكوين[١]. ولعظمة الحية لديهم، وصف ملكهم "شلمنصر الثالث" بالأفعوان الكبير[٢]، وكان لها حضور خاص في فنونهم التشكيلية، فنقشت على أبنيتهم وبواباتهم وآثارهم[٣].

وكذلك عبد الأموريون الأفعى التي كانت متصلة بإلهة أنثى[٤]، وكانت عبادة الأفعى تشكل جزءاً من ديانة الأنباط[٥]. ولم يختلف الأمر لدى الكنعانيين، فكانت الحية لديهم بمثابة الإله المعظم، ودليل ذلك تماثيلها التي زينت أدوات العبادة [٦]، ورسوماتها على الأواني التي وضعت في المعابد[٧]، (ويظهر أن عبادة الحية كانت عبادة كنعانية متفشية كثيراً، كما يستدل من تماثيل الثعابين الكثيرة التي تزين أدوات العبادة وأوانيها. وقد وجد نصب للحية في قصر بيت مرسوم يرجع تاريخه إلى ما بين عامي ٢٠٠٠ – ١٦٠٠ ق.م. القسم الأسفل منه من الحجر الكلسي منقوش عليه إلهة تسير إلى اليسار لابسة ثوباً طويلاً يصل إلى قدميها، وترى حية كبيرة ملتفة حول ساقي الإلهة)[٨]، ومن رموز الحية لديهم الخصب، وقد جاء هذا الرمز من عيشها في أحشاء الأرض، وقدرتها على خلع جلدها، وتجديده سنوياً، وقدرتها على إماتة الشخص الذي تلدغه[٩]، ولا يزال الفلاح السوري يتردد في قتل الحية السوداء إذا ما وجدها في بيته، اعتقاداً منه أنها حامية البيت[١٠]. وهم يؤلهون الحية، وذلك لانفرادها بقوة هائلة، وسرعتها التي تفوق سرعة حيوانات لها أرجل بالرغم من عدم امتلاكها لمثل هذه الأرجل، وعمرها الطويل، وامتلاكها الحكمة والفطنة، ووصفوها بالشيطان الصالح[١١].

وتبدو الصلة وثيقة بين الآلهة المؤنثة والحية، وشاهد القول وجود نصب يمثل الربة

---

(١) الحضارات السامية القديمة، ص٨٣.

(٢) سليم، أحمد أمين: تاريخ العراق، ايران، أسيا الصغرى، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧، ص٢٦٩.

(٣) الشرق الأدنى القديم (مصر والعراق)، ص٥٥.

(٤) حتي، فيليب: تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ترجمة جورج حداد، عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨، ص٨٣.

(٥) المرجع نفسه، ص٤٢٩.

(٦) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧١. وينظر، بلادنا فلسطين، ١: ٤٩٠.

(٧) تاريخ العراق- إيران- آسيا الصغرى، ص١٠٦.

(٨) الدباغ، مصطفى مراد: بلادنا فلسطين، طبعة جديدة، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١، ١/٤٩٠.

(٩) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١/١٣٢.

(١٠) المرجع نفسه، ١/١٢٣.

(١١) عيّاش، عبد القادر، الحية في حياتنا وتراثنا، دير الزور، سورية، ١٩٦٨، ص٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السورية "أتارغايتس" مستندة إلى عصا بيدها اليمنى، ويعلوها نسر، وتلتف حولها حية[1]. ومع كل هذا التقديس يقوم صراع بين إله الخصب "بعل" وبين "لُوياتان" التنين ذي الرؤوس السبعة [2]، فيذبحه:

في ذلك الوقت ستقتل لُوياتان

الحية الهاربة، وتضع نهاية

للحية الملتوية، ذات الرؤوس السبعة[3].

وتنضم "عناة"حبيبة "بعل" في الصراع مع التنين:

أي جُوبار وأُغار ما الذي أتى بكما إلى هنا

أي عدو قد قام في وجه بعل

وأي خصم ناهض راكب الغيوم

ألست التي محقت "يم"حبيب إيل

ألست التي قضت على نهر الإله العظيم

ألست التي أفنت التنين

وسحقت الحية الملتوية ذات الرؤوس السبعة [4]

ويبقى التنين الأفعواني مصدر إزعاج وقلق للآلهة الحثية، فقد هزم إله العاصفة، الأمر الذي جعله يطلب العون من مجلس الآلهة، فتعد الإلهة (اينارادس) فخاً لهذا التنين، ووسيلة ذلك دنان نبيذ مع مشروبات أخرى، ويساعدها رجل كان شرطه مضاجعتها، فيتم القضاء على التنين[5]. ولأهمية هذه الأسطورة صارت تتلى فيما بعد في الاحتفال السنوي في الربيع[6].

---

(١) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٩.

(٢) منعطف المخيلة البشرية، ص٦٧.

(٣) مغامرة العقل الأولى، ص١٣٧، ٢١١، وينظر، الأسطورة والمعنى، ص٢٠٥، الخازن، نسيب: أُغاريت "أجيال، أديان، ملاحم"، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١، ص١٥٦.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٣٢.

(٥) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ٨٣/١، وينظر، عصفور، محمد أبو المحاسن: معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧، ص١٨٦.

(٦) معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم، ص١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أما الفراعنة فكانت للحية عندهم نصيب كبير، سواء في حياتهم أو مماتهم، فقد بلغ شغف قاضي الموتى وإله العالم السفلي (أوزوريس- آنى) بالحية أن تحول حية، وذلك لما لها من قوة في التجدد والخلود: "أنا الثعبان "ستا" المنتفخ بالسنين، أنا الذي يموت ويولد ثانية كل يوم، أنا أموت وأولد وأجدد نفسي وأصير شاباً كل يوم"(١).

فالحية إلهة في عالم الموتى (٢)، الذي تشكل فيه خطراً كبيراً على الإنسان، الأمر الذي يوجب عليه أن تتحد هويته مع رب ذلك العالم لتساعده روح الإله في شق السماوات، وتمنحه حياة يستطيع الأكل فيها، والفتك بالأعداء وخاصة الثعبان الذي يمثل الشر والدمار(٣).

ويبلغ طول هذا الثعبان سبعين ذراعاً (٤)، ومن أشكال ثعابين العالم السفلي، حية ذات رأسين، مختصة في تعذيب الموتى والأشرار الذين كانت أعمالهم في الحياة سيئة (هلا... أيتها الحية ذات الرأسين. . يا من أتيت من غرفة التعذيب، إني لم أغرر بزوجة إنسان) (٥).

ومن أدوار الحية في معتقدات الفراعنة، حراسة بعض المقابر:

"بألسنة اللهب الحارة لا ينطفئ من تحرقه

سريعة القتل، جذواتها الملهبة، لا تطرح أسئلة

لا أحد يرغب في المرور، في رعب العذاب"(٦).

ومن رموز الحية أيضاً الحياة والولادة والخصب، فيعتقد الفراعنة بوجود ثعبان ضخم مهمته إعادة الميلاد، وذلك بسير الكائنات فيه بشكل معكوس من الذيل إلى الفم، وكذلك تسير الشمس بهذا الاتجاه من أجل الظهور في الأفق الشرقي صباح اليوم التالي(٧). وتبدو العلاقة واضحة بين الحية والشمس، من حيث الحياة ودورتها واستمراريتها، فقد تعدى دور الحية

---

(١) بدج، والسي: كتاب الموتى الفرعوني، ترجمة عريب فيليب حتي، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨، ص١٠١.
(٢) المرجع نفسه، ص٧٨.
(٣) المرجع نفسه، ص٢٨.
(٤) المرجع نفسه، ص٢٣.
(٥) المرجع نفسه، ص١٢٠.
(٦) تونج، أريك هور: وادي الملوك (أفق الأبدية- العالم الآخر لدى قدماء المصريين)، ترجمة محمد العزب موسى، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦، ص١٠٧.
(٧) المرجع نفسه، ص١١٠، وينظر، أرمان، أدولف: ديانة مصر القديمة (نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة)، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، محمد أبو شكري، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥، ص١٤٢

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الكائنات البسيطة وشمل الشمس التي تعد مصدر الضوء والحرارة.

ومن معتقدات عالم الموتى، أن الحية التي تحمي الشمس تحيي الميت كأنه ابنها، وترضعه من ثديها[١]، وفي هذا تعزيز لدورها المميز في الإخصاب. وتخاطب المتوفى الحية الذي تحاول عضه فتقول: (أيها الأفعوان، لا تقترب! إن جب وشو يقفان حيالك. لقد أكلت الجرذان، وهذا ما يعافه رع، وعلكت عظام قطة متعفنة)[٢].

ويرد الفراعنة سبب الكسوف للحية التي تلتهم الشمس في رحلتها من الشرق إلى الغرب، فقد صوروا الشمس متنقلة بزورقين، واحد للنهار، والآخر لليل ولهما بحارة من الآلهة، ولم تنته هذه الرحلة بسلام دائماً، لان في الطريق ثعباناً يهدف إلى مداهمة الزورق والتهام الشمس، ويدعى الثعبان (أبو فيس) وهو ذو رأسين[٣]، ويرمز إلى الفوضى، وتوكل إليه مهمة إلقاء الشك في عالم الخليقة، وتعطيل مركب الشمس لإنهاء الزمان والمكان[٤].

وتختلف المعتقدات الفرعونية باختلاف مناطق بلادهم، لذا اعتقدوا بمصاحبة أرواح الموتى الشمس في رحلتها اليومية إلى العالم الآخر، وتتوحد هذه الأرواح مع أجسادها من أجل استئناف رحلتها مع إله الشمس الذي يقف في ضريح تحرسه الحية الملتوية (مهن) [٥].

ومن أشكال الثعابين الفرعونية، ثعابين ذات أجنحة تتكفل بحماية إله يدعى (سُكَر) الذي يقيم في صحراء جرداء، فتلفظ نيرانها لتمزيق الظلام[٦].

ومن تعويذات الفراعنة تعويذة تهدف إلى تجنب خطر الثعبان أثناء تهديده المتوفى، وحرمانه من النور[٧]، فتقول تعويذة عن جبل مشرق الشمس:

(وثعبان يرقد على سطح ذلك الجبل

---

(١) ديانة مصر القديمة، ص٢٩٧.
(٢) وادي الملوك، ص١١٣.
(٣) وادي الملوك، ص١١٣.
(٤) المرجع نفسه، ص١٣٩.
(٥) المرجع نفسه، ص١١٤.
(٦) المرجع نفسه، ص١١٥.
(٧) المرجع نفسه، ص١٤١، وينظر: ديانة مصر القديمة، ص٣٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طوله ثلاثون ذراعاً

واسمه آكل النار

وبعد قليل على أي حال

تلتفت عيناه نحو رع

وتتوقف المركب

ويصعق الملاحون

لأنه يبتلع ذراعاً وثلاثة أشبار من المياه العظيمة)[١].

فالمتأمل للنص يلاحظ حرص الثعبان على الماء من أجل إغراق الشمس، فالماء يبقى العنصر المهم في حياة الثعابين في كل العصور لما له من دور رئيس في الحياة.

ويعزى الفضل للإلهة (إيزيس) التي دمرت (أبو فيس) بسلاحها الفتاك، وهو السحر الذي انتقل منها إلى البشر[٢]. وبعد ذلك صارت لدى الفراعنة صلاة تقام في معابدهم ضد عدو الشمس من أجل إنقاذ البشرية، فمن مراسيمهم وطقوسهم تمزيق تمثال من الشمع وحرقه للثعبان الشرير، وذلك عوضاً عن (أبو فيس)[٣].

ومن رموز الحية الإخصاب والحياة وإعادة الميلاد، فهناك ثعبان يعض ذيله، ويتكور حول رب الخليقة الذي يعود داخل الدائرة إلى طفولته، وسمي هذا الثعبان بالثعبان العظيم، ومهمته ابتلاع كل شيء ليتقيأه من أجل تجديده وإعادته إلى شبابه يومياً[٤]. [ينظر شكل (٨)]

والضوء كذلك من رموز الحية، ففي عالم الموتى نوع من الحيات يتصدى بأنفاسه النارية لـــ (أبوفيس) خلال مواجهته مع إله الشمس، بحيث تتكفل اثنتا عشرة ربة بحمل هذه الحيات على أكتافهن لمصاحبة الإله، وتعود هذه الربات بعد المهمة إلى العالم الآخر فيفرح الموتى لرؤية الحيات المشاعل التي تصدر الضوء في ظلامهم، وذلك في غياب إله الشمس[٥].

---

(١) وادي الملوك، ص١٤١.

(٢) المرجع نفسه، ص١٤٣.

(٣) المرجع نفسه، ص١٤٥.

(٤) المرجع نفسه، ١٤٧. وينظر: ديانة مصر القديمة، ص١٤٢.

(٥) المرجع نفسه، ص١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكما الضوء رمز للحية كذلك الزمن، حيث تقوم الحية بابتلاع النجوم التي تمثل الساعات المنقضية من الليل[١] [ينظر شكل (٩)]. تبقى علاقة الحية بالمرأة قوية، حيث تصور الساعات الخارجة من فم الحية بنسوة من الإلهات اللاتي يقمن بإرشاد إله الشمس[٢]. ومن الصور التي تتخذها الحية رمزاً زمنياً، وجود ربات الساعات الإثنتي عشرة على جانب حية ذات لفات غير منتهية تمثل الزمن، ويتمثل الخصب الزمني في ولادة هذه الحية ساعات كثعابين صغيرة، وتكون بمثابة غذاء للربة، وتسبق عملية الولادة عملية جماع باشتراك عملاق مقدس[٣].

ومن معتقدات الفراعنة حول العالم الآخر عقد محاكمة للميت بهدف معرفة مصيره، فإذا تبين أنه شرير يخاطبه الإله أوزوريس: (ليشطب اسمك من سفر الحياة، قد جعلتك غنيمة للأفاعي)[٤]. فالعذاب موكول للحية، فيسلط على العصاة الذين عملوا السيئات في حياتهم الأولى الأفاعي، فهناك الحية الشيطانية التي يخاطبها الإله (حُورُس) بعد إصدار حكمه:

(افتحي فمك، أفرجي فكيك

كي تبصقي النار على أعداء أبي!

حتى تحرقي جثثهم

وتشوهين أرواحهم

بأنفاس فمك الحارقة

والجمرات التي في بدنك [٥]

ويتشابه مصير الموتى الفراعنة الأشرار مع مصير الكفار الذين كفروا برسالة الإسلام، فقد قال الله عز وجل "إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَارًا أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا"[٦].

ويخاطب حُورُس الموتى قائلاً:

---

(١) وادي الملوك، ص١٩٠.

(٢) المرجع نفسه، ص١٩٢.

(٣) المرجع نفسه، ص١٩٢.

(٤) جيان، يوليوس. كتاب الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، تعريب أنطون زكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦، ص١١٧- ١١٨.

(٥) وادي الملوك، ص٢٠٨.

(٦) الكهف، ٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(إن سيف الانتقام لأجسادنا

والموت لأرواحنا

والظلام لضلالكم

والجز لرؤوسكم

لا حياة لكم، لقد انقلبتم

ولا قيام لكم فقد تعثرتم في حفركم

حيث لا تهربون منها ولا تتحرون

لهيب هذه الحية من أجلكم)[١].

فالحية وسيلة آلهة العالم الآخر في تعذيب الخطاة الأشرار الذين لم ينقادوا للأوامر الإلهية في حياتهم الأولى، ومن النصوص التي تظهر الحية وسيلة للعذاب:

"أيتها الحيّتان اللتان تنفثان اللهيب والحريق

انفخا لهيبكما واذكيا الوهيج

تحت هذا المرجل الذي يحوي أعداء أوزيرس"[٢]. [ينظر شكل (١٠)]

وإذا انتقلنا إلى عالم الأحياء، فإننا نرى كذلك تصورات ومعتقدات مختلفة تجاه الحية، فمن أساطيرهم مشاركة حية سامة عائلة فرعونية في سكنها، وكان شرابها العسل والنبيذ مقابل حراستها لهم، لكن هذا الوئام لم يدم بسبب موت ولدهم الذي لدغه ابن الحية، الأمر الذي جعلها تقتل ابنها إرضاء لأهل الطفل، ورأت في الهجرة سبيلاً، لأن السلام تعذر بينهما[٣].

ولما كانت عبادة الحية شائعة لديهم[٤]، فقد ألّهوها وجعلوها رمزاً للقوة والعظمة والسلطان، فحية الناشر مقدسة عندهم، وجعلوا صورها على تيجان ملوكهم، فلم يفزعوا من وجودها في بيوتهم، فكانوا يصفقون عند دخولهم البيوت اعتقادا منهم أنها ستخلي لهم الطريق،

---

(١) وادي الملوك، ص٢٠٩.

(٢) المصدر نفسه، ص٢١٢.

(٣) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٥.

(٤) تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١٣٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعند موتها يلجأون إلى تحنيطها[١]. وبما أن الثعبان رمز القوة كان الملك يضع على رأسه تاجين يمثلان الشمال والجنوب، لذا قارنوا التاجين لقوتهما السحرية بالثعابين[٢]، [ينظر شكل (١١)] ولشدة انتشار الثعابين المقدسة في مصر صار اسم كل إله يخصص برسم ثعبان، لذلك صار من الواجب احتواء كل معبد نموذجاً حياً من الثعابين[٣].

وللحية فضل كبير في عالم الفن الفرعوني، فقد اعتبر الفنان عالم الحيوانات مجالا خصباً للتعبير عن أفكار عصره ومعتقداته، الأمر الذي حدا به تصوير بعض الحيوانات التي كانت الحية منها، فنقش (كائنات خرافية تغشى الفيافي الواسعة المحيطة بواديهم، وتخيلوها بجسوم الأسود والفهود وأعناق الزراف والثعابين)[٤]. وبلغ من شدة اعتزازهم بالحية وتقديرهم لها أنهم كانوا يرسمون شكلا للحية المقدسة (أوراس) فوق اللباس الملوكي الذي يوضع فوق الجبهة[٥]، وزخرفت مظلة الملك التي تحملها أعمدة خشبية بالحية[٦]، ورسموا الإله (أبيب). الموسوم بالشر في صورة حية ملتوية تحمل في كل طيّة من جسمها مدية حادة، في حربها مع إله الشمس (رع) بعد المغيب، فلا يزال (رع) في صراع معها ومع أعوانها من الشياطين السوداء والحمراء إلى أن يهزمها قبل الصبح، فيعود للشروق[٧]. وبما أن الحية رمز الخصب، فقد نقشوا رسمها على جدران معابدهم وهياكلهم[٨]. ورسموا أفعوانين منتصبين عملاقين عن يمين (إيزيس) ويسارها، وفي أفق السماء هلال في يومه الأول [٩]. ومن مظاهر رمز القوة والسلطان للحية، وضع الملك على رأسه عصابة يشدها على جبهته على شكل شريط يمثل الجزء العلوي منه للأفعى السامة (أوريوس)، وذلك لاعتقادهم أنها تحمي الملكة، وتهدد أعداءه، ويمتد بقية جسم الأفعى فوق منتصف الرأس[١٠].

ومما يثير الدهشة اتخاذ الحية وسيلة للراحة من الحياة القاسية، فذكر جالينوس (أن العادة كانت بالإسكندرية أن المجرمين لكي يرتاحوا مما يكونون فيه من العذاب كانوا يؤتون بالأصلال

---

(١) الحية في حياتنا وتراثنا، ص ٤٤- ٤٥، وينظر الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، ص٧١.

(٢) ديانة مصر القديمة، ص٤٢

(٣) المرجع نفسه، ص٨٠- ٨١.

(٤) الشرق الأدنى القديم- مصر والعراق، ص٥٤.

(٥) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧١.

(٤) معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم، ص٣٢.

(٧) العقاد، عباس محمود: إبليس ص٥٠

(٨) ليان، جورج: الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، عملي)، مطبعة الضاد - حلب ص٢٦.

(٩) لغز عِشتار، ١٣٨

(١٠) معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم، ص٣٠، وينظر: الشرق الأدنى القديم، مصر والعراق، ص١٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لتلدغهم ويموتون)[١]. وكذلك كانت الحية الصلّ أو الكوبرا وسيلة موت لجأت إليها كليوباترا عندما رفضت تسليم نفسها لأوغسطس عندما هزمها في معركة أكتيوم[٢].

ومن عقائد المصريين عبادة الحيوان، وتمثلت في بعض جوانبها بدفن الثعابين، التي ينال عليها الشخص الفاعل الثواب[٣]، ومما جاء في ذلك قول سيدة (لقد أهديت ما تحتاج إليه الأرواح الحية حتى تكون لديها العطور والملابس الفائقة عندما تصعد إليها الأرواح إلى السماء)[٤]. وعرف المصري القديم تناسخ الأرواح، فكان يرى أن الحية من بين الحيوانات التي تحل فيها روح الميت، الأمر الذي يجعلها تخرج من جحرها[٥].

واتخذ الفراعنة الحية رمزاً إلى العالم، فكانت زرقاء بحراشف صفر، ودلالة ذلك البحر واليابسة، وبقيت زمناً طويلاً رمزاً للشتاء وذلك لأنها تأوي إلى الأماكن الرطبة، وكان النيل يرسم كحية الماء [٦]، وذلك لصلتها بالإخصاب والحياة والإنتاج كما اعتقدوا.

ومن الحيات ما سماها الفراعنة بآلهة الحقول، فجعلوا حقولهم تحت حمايتها، وذلك لقتلها الفئران التي تسبب ضررا للمحاصيل، فأدوا لها فروض العبادة اعترافا بفضلها [٧].

ولم تكتف الحية بدخولها عالم الكبار أو آلهتهم، بل دخلت عالم الصبيان في لعبهم، فهناك (لعبة كانت رقعتها ذات مقبض، وقد رسم عليها شكل أفعى ملتفة حول نفسها، ولكنها مقطعة في الأماكن، وكان المتباريان يلعبانها بوضع تماثيل صغيرة للأسود والكلاب على جسم الأفعى، ويبدو أن الفائز هو الذي يستطيع إخراج تماثيله من ذلك التيه الممثل في جسم الأفعى بشروط معينة)[٨]، ويدل ذلك على مدى تأثر الصبيان خلال تنشئتهم الاجتماعية بمعتقدات آبائهم وأمهاتهم الدينية.

أما السحر، فقد برع فيه الفراعنة ولم يجارهم أحد فيه، فقد استعملوا الأناشيد السحرية

---

(١) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٥.
(٢) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٥، وينظر، الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، ص٧٣.
(٣) ديانة مصر القديمة، ص٤٢٩.
(٤) المرجع نفسه، ص٤٢٩.
(٥) معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم، ص٣٢.
(٦) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٥.
(٧) الطب والتخطيط في عهد الفراعنة، ص٧١.
(٨) معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم، ص٢٥- ٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توقياً من وصول الحيات ذوات القرون إليهم بالأذى والشر، ودليل ذلك شاهد سحري عبارة عن قطعة من الجرانيت مرسوم على أحد أوجهها المعبود حُورّس، الذي يطأ بقدميه التماسيح، ويقبض على الأفاعي والحيات المؤذية بيديه، ومرسوم على الوجه الثاني الصيغ السحرية التي كانوا يتداولونها. ووضعوا الشواهد السحرية على منازل الفقراء التي كانت الأفاعي تأوي إليها بحكم وضعها(١)، [ينظر شكل (١٢)،] واستعملوا العصي السحرية على (شكل الحيات، وفي نهايتها رؤوس بعض الحيوانات الحقيقية أو الخرافية، وبعض الآلهة الذين لهم رؤوس بشرية أو حيوانية) (٢).

ومع أن الحية كانت مقدسة معظمة لدى الفراعنة، إلا أنها سببت هزيمة عسكرية لهم على يد أحد ملوك فارس في غزوة له لمصر، حيث جعلها في مقدمة جيشه، الأمر الذي جعل المصريين يهربون خوفا من أن يوقعوا الضرر بها (٣)، ويدل ذلك على خوفهم ورهبتهم منها، وتقديسهم لها.

وإذا انتقلنا إلى اليهود، فقد عبدوا الحية كغيرهم من الشعوب، وتعود عبادتهم إلى تاريخ أبعد من تاريخ موسى عليه السلام، ودليل ذلك اسم القبيلة التي أمسكت زمام الكهانة في الديانة اليهودية "اللاويين"، أو بني لاوي، ويشترك الاسم في اللغة العبرية مع اسم لُويَاتان، أي الحية(٤)، وعبد بنو إسرائيل الحية المعروفة باسم (سيرافيم) التي كانت سبب خروج الحيات عليهم وإماتتهم (٥)، (فأرسل الرب على الشعب الحيات المحرقة فلدغت الشعب، فمات قوم كثيرون من بني إسرائيل. فأتى الشعب إلى موسى وقالوا: (قد أخطأنا إذ تكلمنا على الرب وعليك، فصل إلى الرب ليرفع عنا الحيات)(٦). وكان سبب خروج الحيات كفر اليهود بالطعام، ووصفهم له بالسخيف، الأمر الذي جعل عقاب الله لهم الحيات المحرقة، فقال بنو إسرائيل: (وقد كرهت أنفسنا الطعام السخيف)(٧)، فصلى موسى عليه السلام، وقال الرب: (اصنع لك حية محرقة وضعها على راية، فكلّ من لدغ ونظر إليها يحيا)(٨). لذلك قدمت القرابين إلى حية النحاس

---

(١) الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، ص٧٣.

(٢) المرجع نفسه، ص٨٩.

(٣) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص ٢٧.

(٤) لغز عِشْتار، ص١٤٨.

(٥) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٥.

(٦) الكتاب المقدس، العهد القديم، ترجمة فانديك والبستاني، ١٩٩١، سفر العدد، ٢١: ٦-٧.

(٧) المصدر نفسه، سفر العدد، ٢١: ٥.

(٨) المصدر نفسه، سفر العدد، ٢١: ٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(نحشتان) في معبد أورشليم، لأن بني إسرائيل عزوا إليها قوى الشفاء والصحة[١]. ونستدل من النص التوراتي أن الحية كانت العقاب الذي سلطه الله على بني إسرائيل، فهي وسيلة شابهت الوسيلة التي كانت في الأساطير السومرية والبابلية.

ومن مهام الحية في التوراة، حراسة عرش الرب، فهناك مجموعة من الملائكة تسمى السرافيم تتولى حراسة عرش الرب في معبد أورشليم، ومفرد سرافيم (ساراف) التي تعني الحية[٢].

ومن المعتقدات التي وردت في الديانة التوراتية حول الحية، أنها كانت السبب في إغواء حواء وآدم للأكل من الشجرة المحرمة، (وكانت الحية أحيل جميع حيوانات البرية التي عمل الرب الإله، فقالت المرأة: "أحقاً قال الله لا تأكلا من كل شجر الجنة؟ "فقالت المرأة للحية: "من ثمر الجنة تأكل، وأما ثمر الشجرة التي في وسط الجنة فقال الله: لا تأكلا منه ولا تمساه لئلا تموتا"[٣]، وهنا تظهر الحية على طبيعتها، في الخداع والشر والكذب. "فقالت الحية للمرأة: " لن تموتا! بل الله عالم أنه يوم تأكلان منه تنفتح أعينكما وتكونان كالله عارفين الخير والشر"[٤].

وفعلاً تأكل حواء وزوجها من ثمر الشجرة، وتظهر عداوتها، وهذا ما حققته الحية من إنجاز يعد تاريخياً، ولكن الله لا ينسى عقاب الحية، فقال لها: "لأنك فعلت هذا، ملعونة أنت من جميع البهائم، ومن جميع وحوش البرية. على بطنك تسعين، وتراباً تأكلين كل أيام حياتك. وأضع عداوة بينك وبين المرأة، وبين نسلك ونسلها، وهو سحق رأسك، وأنت تسحقين عقبه"[٥]. فكانت الحية سبب الشقاء الذي نزل بحواء وآدم، حيث نزلا من النعيم والسعادة إلى الأرض حيث الشقاء والألم والمرض والتعب.

ولما كانت الحية في خيال البشرية (ذات رؤوس متعددة وأجنحة وأرجل ولسان وقذائف لهب، أي تنيناً خرافياً يرمز للشر)[٦]، دخل الإله القومي (يهوه) في صراع مع التنين (لُويَاتان)

---

(١) مهران، محمد بيومي: بنو إسرائيل (الحضارة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقضايا العسكرية)، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩، ٥٩/٤.

(٢) الأسطورة والتراث، ص٤٩.

(٢) العهد القديم، سفر التكوين ٣: ١-٣.

(٤) المصدر نفسه، سفر التكوين، ٣: ٤-٥.

(٥) المصدر نفسه، سفر التكوين، ٣: ١٤-١٥.

(٦) الأسطورة والتراث، ص٥٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"أنت شققت البحر بقوتك، كسرت رؤوس التنانين على المياه، أنت رضضت رؤوس لُويَاتان"[1].فقد كان التنين مسيطراً على المياه، فشقه الرب نصفين، نصفاً مثل السماء، ونصفاً مثل الأرض، وفي هذا دلالة على نشوء الخلق والكون بفضل التنين الذي فصل الماء، وأيضا (في ذلك اليوم يعاقب الرب بسيفه القاسي العظيم الشديد لوياثان، الحية الهاربة. لوياثان الحية الملتوية، ويقتل التنين الذي في البحر)[2].

وقد تأثر النصارى في معتقداتهم وتصوراتهم للحية بما ورد في التوراة، فكان الخلاص رمز الحية لديهم، وفي ذلك إشارة للمسيح عليه السلام (كما رفع موسى الحية في البرية هكذا يرفع ابن الإنسان على خشبة)[3]. وقال المسيح عليه السلام في موعظة له: (كونوا حكماء كالحيات، وبسطاء كالحمائم)[4]، وهنا يظهر رمز جديد للحية ألا وهو الحكمة. هذا ولا يزال رعاة الكَنيسة سائرين على العهد حاملين بأيديهم اليسرى عصا الرعاية الكبيرة المعقدة، التي تعلوها حيتان متقابلتان وبينهما صليب[5]، ويذكرنا الشعار بالعصا اليونانية الملتفة عليها حية الحكمة والمعرفة والشفاء.

ومما ورد في المعتقدات المسيحية أن الحية كانت الهيئة التي تنكر بها إبليس لإغواء حواء وآدم ليأكلا من الشجرة المحرمة[6]. وتختلف التصورات، فهناك من يرى أن الحية حملت في فمها إبليس، وقام بعملية الإغواء[7]. وتتكرر هنا صورة الخداع والشر في الحية التي كانت السبب المباشر وغير المباشر في عملية إغواء حواء وآدم، وإنزالهما من النعيم إلى الشقاء.

ورأى النصارى أن الحية هي أقرب صورة حسية للشيطان إبليس، الأمر الذي جعل لها مقار عبادة، واعتبروها معبداً شيطانياً[8]. وفي هذا تشابه مع المعتقدات والأساطير العالمية التي رأت فيها إلهاً، أو قوة إلهية. ومن مسميات الحية في الديانة المسيحية الشيطان. وجاء في

---

(١) العهد القديم، المزمور، ٧٤: ١٣-١٤.

(٢) العهد القديم، سفر إشعياء، ٢٧: ١.

(٣) إنجيل يوحنا، ٣: ١٤.

(٤) إنجيل متى، الإصحاح العاشر: آية ١٦.

(٥) الحيات في العالم "بحث تاريخي فني علمي"، ص٢٩.

(٦) الأسطورة والتراث، ص٤٩.

(٦) المرجع نفسه، ص٤٩.

(٧) المرجع نفسه، ص٥٨-٥٩. وينظر، العقاد، محمود عباس: إبليس، القاهرة، ١٩٥٥، ص١١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الإصحاح الثاني عشر: (نطرح التنين العظيم، الحية القديمة المدعو إبليس والشيطان)[١].

وإذا انتقلنا من الديانات إلى طقوس الشعوب، نصل إلى الهند التي شغل المنزع الديني فيها العقول بألوان من الخرافات والأوهام والأساطير، وذلك لسعة أراضيها، وتنوع مناخها وثقافاتها، وكثرة سكانها وغلبة الفقر والبطالة والزهد عليهم[٢].

فقد قدس الهنود حيوانات كثيرة، كان من بينها الحية التي عملوا لها معابد خاصة، فلا يؤذيها أحد، وكانوا يستاءون من قتلها، رغم ضحاياها الكثيرين، وكانوا يقدمون لها الذبائح[٣].

فمن أساطيرهم المتعلقة بالحية أنها حاملة للماء على ألف قرن[٤]، وأن بطل الطوفان "مانو" ربط سفينته بالحيات، التي كانت سبب إنقاذ البشرية والحيوانات من الهلاك[٥]. وفي هذا تظهر علاقة الحية بالماء الذي حرصت عليه كل أساطير الشعوب، وذلك لما له من صلة بالحياة واستمراريتها وخصوبتها.

ولما كانت عبادة الأفاعي منتشرة لدى الهنود[٦]، اعتقدوا أن الحية المسماة "كالنغام" إله من بين الآلهة التي قدسها برهمة، الأمر الذي حرم عليهم قتل الحيات خاصة الأصلال، وإذا ما دخل صل أحد البيوت هشوا له، وقدموا إليه الطعام، ودافعوا عنه، وإن آذاه شخص ما فإن البلاء سيحل بالبيت[٧]. وإن لدغ الصل شخصاً ما، أمسكوا به بلطف، وأطلقوا سبيله في الحقول[٨]، وذلك احتراماً وتقديساً له.

ومن الحكايات الهندية العجيبة المتعلقة بإخلاص الحية للإنسان المضيف إليها، الذي يقدم إليها الطعام والشراب والغناء الهادئ، سرقة لصوص طفل ذلك المضيف، الأمر الذي استدعى خروجه برفقة أفعى الكوبرا المقيمة في البيت، فما كان منها إلا أن قتلت اللصوص وحمت الطفل

---

(١) العهد الجديد، رؤيا يوحنا اللاهوتي، الإصحاح الثاني عشر: آية ٩.

(٢) معتقدات أسيوية (العراق – فارس – الهند – الصين – اليابان)، ص١٩٢.

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٣.

(٤) النوري، محمد إسماعيل: تراث الإنسانية، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨، ٦: ١٠٢.

(٥) المرجع نفسه، ص٩٩.

(٦) المعتقدات الشعبية لدى شعوب العالم، ص١٨٢.

(٧) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٦، وينظر، الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٦.

(٨) المرجع نفسه، ص٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالتفافها حوله[١].

ومن رموز الحية لديهم الشفاء والوقاية من الأمراض، فمن خرافاتهم اتخاذ الرجل دواءً هندياً يعرف باسم "واكون" ومعه بقايا حية، ومن ثم لفه بالجلد مع بعض المواد الأخرى، ووضعه في كيس مزين بخرز، وتعليقه في عنقه لحمايته من الأمراض، وإذا ما مرض يوضع ذلك الكيس تحت وسادته استرضاءً للآلهة الصغرى المسؤولة عن الأمراض[٢]. وفي هذا دليل على اعتقادهم بأن للحية دوراً فاعلاً في الوقاية من الأمراض.

ومن أساطير الهنود الحمر المشهورة تحول رجل إلى أفعى مائية ضخمة مقرها نهر الميسيسبي، وذلك بسبب شيّه بيضتين كانتا لحية، وأكله لهما بعد رفضه نصيحة صديقه الذي حذّره منها[٣].

ومن رموز الحية الخصب، فقد نام الإله "فشنو" – رمز الحب والجمال القادر على التجسد في الإنسان والحيوان والشجر مع قدرته على إضفاء الألوهية عليها – على المياه الأرضية فوق ثعبان خلال استراحته لإنشاء الكون، وأصبحت له رؤوس كمروحة، فزادت قوته فسيطر على العالم[٤]. ويدل ذلك على الصلة القوية بين الحية والماء، فحيثما وجد الماء وجدت الحية.

ومن هياكل الهنديين القديمة، هيكل الإلهة "كالي" الذي يمارسون فيه عبادتهم وطقوسهم (بأن تقدم القرابين عادة لهذه المعبودة الجبارة في ذلك المعبد فقط، من الأفاعي السامة، ويتراوح عددها بين مئة وخمسين ومائتي أفعى، يقط الكهنة الحاذقون رقابها بضربة واحدة بواسطة سكين حادة، فتسيل دماؤها فوق درجات الهيكل. والعازفون يوقعون الأنغام المهيجة، وبينهم الضاربون على الطنبور، والصنوج النحاسية، فيخيل للسامع أن تلك الأنغام إنما هي ترديد اسم الإلهة "كالي"، بينما الكهنة وخدمة المعبد يعفرون التراب بوجوههم مراراً متعددة، وراقصة تطوف حولهم، وتتقدم نحو القرابين وتنحني، فيلامس فمها الأرض فترطب شفتيها بالدماء المتساقطة من

---

(١) رضوان، سعد: أهل الطب وللأفعى حكايات. طبيبك الخاص، العدد ٣٧٨، دار الهلال، حزيران، ٢٠٠٠، ص ٦٠-٦١.

(٢) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٧.

(٣) أساطير الهنود الحمر: ترجمة ميسلون هادي. مجلة التراث الشعبي العدد الثاني عشر. السنة الثانية عشر، كانون أول ١٩٨١، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد ص٩٩- ١٠٤.

(٤) الأساطير الهندية، ص١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذبائح المقدمة(١).

ومن القبائل الهندية من يرى أن الثعبان والد القمر، لكن الابن لم يطع والده، الأمر الذي جعله يلتف حول ابنه القمر ليستره عن أهل الأرض. ويرى أبناء قبيلة أخرى أن بالع القمر إما أن يكون دباً أو ثعباناً، وإن كان الأخير فإن وباء الجدري سينتشر في كل مكان(٢). وأسطورة أخرى ترى أن سبب التقام الثعبان القمر، لجوء غزال إليه خلال مطاردة صيادين وغفلتهم عن الثعبان الجبار(٣).

ولشدة تمسك الهنود بأساطيرهم وعقيدتهم وطقوسهم، ظلوا محافظين عليها، فأقاموا طقوساً خاصةً بالأفعى في أمريكا، وأقاموا الجمعيات الخاصة بها(٤).

وللحية عند الهنود طبيعة الآلهة، فالحية التي لدغتها تؤدي إلى موت سريع لها قدسية خاصة، وكانوا يقيمون كل عام حفلاً دينياً تكريماً لها، ويقدمون العطايا من اللبن والموز عند مداخل جحورها(٥). هذا ولا تزال عبادة الثعابين سائدة في الهند حتى يومنا، فمن أهم آلهة الهندوس الثعابين، لأن الآلهة قادرة على اتخاذ أشكال الثعابين(٦).

أما آلهة اليونان، فقد تعددت، وتشعبت الأساطير المتعلقة بها، لكون القدماء اليونانيين جماعات تصارعت قروناً عديدة، ولاتصالهم بجيرانهم كانوا يرحبون بكل إله جديد(٧). لذلك كانت الحية لديهم رمزاً للشمس، ولمكانتها عندهم صوّروها على بعض الآثار، وكانت أيضاً رمزاً للطب والشفاء والحكمة كونها حذقة(٨)، وأصل ذلك أن "ايسكولاب" الفيلسوف كان جالساً على عرشه يعالج مريضاً، فإذا بحية تدخل وتلتف على عصاه التي كان يتوكأ عليها، وتوحي إليه بأسرار الحكمة والمعرفة(٩). وأقام له أهل اليونان فيما بعد تمثالاً يمثل الأسطورة

---

(١) الحيات في العالم، بحث تاريخي، فني، علمي، ص٢٧.

(٢) الحية في حياتا وتراثنا، ص٤٣- ٤٤.

(٣) الحية في حياتا وتراثنا، ص٤٤.

(٤) الحيات في العالم، بحث تاريخي، فني، علمي، ص٣٥.

(٥) ديورانت، ول: قصة الحضارة، ترجمة د. زكي نجيب محفوظ، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨، المجلد الأول، ٣: ٢٠٧.

(٦) الأساطير الهندية، ص ١٠١، وينظر، الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص ٢٦.

(٧) سكر، إبراهيم: الأساطير الإغريقية، تراث الإنسانية، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر، ٥: ٦٣٩.

(٨) الحية في حياتنا وتراثنا، ص ٤٧.

(٩) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٤، وينظر، المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بتفاصيلها[١]. وصار فيما بعد كذلك نصب لابنته يمثلها واقفة وبيدها إناء حليب، وباليد الأخرى حية تشرب ذاك الحليب، وكان تفسير اليونانيين أن الحليب غذاء كامل، لذا اعتبروا الحية رمزاً للإنسان القديم، ورمزاً للقوة والمعرفة والغلبة على الأمراض، وأما التفافها على العصا، فيفسرون ذلك بقدرتها في الدفاع عن الصاحب [٢].

ومن معتقدات اليونانيين أن الحية كانت ملجأ لرب الأرباب اليونانيين "زِيُوس" حينما تنكر بصورتها، وضاجع "بيرسفوني" وولدت منه "ديونسيوس"[٣]. ومن أساطيرهم أسطورة "أوديب" ملك طيبة الذي استطاع القضاء على الوحش الخرافي الذي كان يقطع الطريق بطرحه سؤالاً حول الشيء الذي يمشي على أربع في الصباح، وعلى اثنين في الظهيرة، وثلاث في المساء، فكان هذا الوحش تنيناً[٤].

ومن صفات الحية عند اليونانيين الخداع، فهي التي أغرت الملائكة بالتمرد على أبي الآلهة "جوبتير"، فهي رمز الشيطان الذي عدّوه إله العذاب[٥]. وتتعدد المعتقدات اليونانية حول الحية، فقد ربطوا بينها وبين القمر، من حيث مساواة عدد أضلاعها لعدد أيام الشهر القمري[٦]. وتكاد تكون علاقة الحية بالمرأة لدى كل الشعوب واضحة، فالأم الكريتية الكبرى تمسك بالحية، وأحياناً تكون ملتفة حولها[٧]، [ينظر شكل (١٣)] وفي هذا رمز للخصوبة والحياة واستمراريتهما.

وتظهر الميثولوجيا الإغريقية الأفاعي تنطلق من رؤوس النساء (الجورجونات) بدل الشعر، ويصف نص يوناني الأم القمرية (كان شعرها الطويل الغزير ينسدل جدائل مستدقة الأطراف على عنقها الجميل، فوقه إكليل شبكت إليه كل أنواع الورود، وحول الرأس قرص نوراني يسطع كمرآة، أو كوجه القمر البهي، مما أنبأني عن حقيقتها، وكان أفعوانان ينتصبان من

---

(١) كورتل، ارثر: قاموس أساطير العالم، ترجمة سهى الطريحي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣، ص١٤٠، وينظر، الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٤.
(٢) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٤- ٢٥.
(٣) إبليس، ص١٤٧.
(٤) الحلي، صباح محمود: التنين في المصادر العربية، مجلة التراث الشعبي، وزارة الثقافة والإعلام، الجمهورية العراقية، السنة الأولى، كانون الأول، ١٩٦٩، ٤/٤.
(٥) الحيات في العالم، ص٢٣.
(٦) لغز عِشتار، ص١٣٦.
(٧) المرجع نفسه، ص١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يديها اليمنى واليسرى، ليسندا ذلك القرص، وإلى جانبهما تنطلق سنابل القمح)[١].

فالمتأمل للنص يلاحظ علاقة قائمة بين الحية والمرأة وسنابل القمح، عناصر الحياة جميعاً، فالمرأة تعد الخصب بذاته، وكذلك السنابل التي تمثل دورة الحياة الشتوية والصيفية.

ومن تصويرات اليونانين للأم الإلهة أنها (ذات ثديين وجسم فارع الطول، وأفاع تلتف حول ذراعيها وثدييها، وتتلوى في شعرها أو تتدلى في أنفة وكبرياء من رأسها)[٢]، [ينظر شكل(١٤)] ولما كانت العلاقة قوية بين الحية والمرأة من حيث دلالة كل منهما. اعتقد اليونانيون أن الأفعى رمز المرأة لما ينبعث منها من قوة تغلب، أو قوة الموت بقدرتها على التناسل[٣].

وكانت إلهة اليونان "أرجوس" مرتبطة بالحيوانات خاصة الثعابين، وأيضاً بالشجرة، وهناك تمثال يبين صورتها (وهي واقفة فوق الجبل يحيط بها أسدان، وتمثال آخر والثعابين تطوق ذراعها)[٤].

وكانت الحية الحيوان المنذور لـــ "آيسكولاب" كونها رمز الحياة، وكانت "آيشيدنا" وحشاً خرافياً نصفه امرأة ونصفه أفعى، والعلاقة بينهما تبين الخصب واستمرارية الحياة[٥].

ومن الحكايات اليونانية أن الحية لعقت أذني "ميلاميوس" الأمر الذي مكنه من معرفة لغة الطير[٦]. ولعلاقة الحية بالماء، شبه الإسكندر الأرض بالبحر الذي تلفه الأفعى، وذلك عند محاولته الصعود إلى السماء، وطلب وحش الإنسان- الطير منه النظر للأرض[٧].

ولما كانت عبادة الأفعى مألوفة عند اليونانيين، فقد عظموها بخشوع لما فيها من قوة حيوية منتجة[٨]، لدرجة أن المؤمن بالخرافة (إذا أبصر أفعى في بيته وكانت من النوع الأحمر اللون يستنجد بربه "تسيوس"، أما إذا كانت الأفعى مقدسة فانه يقيم هيكلاً من فوره في البقعة التي

---

(١) لغز عِشْتار، ص١٣٨.
(٢) قصة الحضارة، المجلد الأول، ١: ٢٩.
(٣) المرجع نفسه، المجلد الأول ، ١: ٢٩.
(٤) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص٨٥.
(٥) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧١.
(٦) المرجع نفسه، ص٢٧٦.
(٧) أسطورة إيتانا والنسر، مجلة التراث الشعبي، العدد السابع، القسم الأول، ص١٥١.
(٨) قصة الحضارة، ١: ٢٨-٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبصرها) [١].

ولقداستها عندهم كانوا يقربون لها قرباناً وهي في باطن الأرض، ويعود سبب التقديس لعدم موتها في ظنهم، وقدرتها على التناسل والإنتاج[٢]، فمن الأفاعي المشهورة، (أفعى مقدسة تقيم في هيكل أيضاً على الأكروبوليس، وكان يقدم إليها في كل شهر كعكة مقدسة زلفى إليها، واستدراراً لعطفها) [٣].

كما رمزت الحية عندهم لإله حراسة الهياكل والمنازل، وكانت أحياناً صورةً له، واعتقدوا أن الحية روح الموتى، وسبب الاعتقاد وجودها حول المقابر[٤]. ومن أساطيرهم تحول مخترع الحروف الهجائية إلى حية ليتمكن بقوته وحكمته من معالجة جهل البشرية وأمراضها المختلفة[٥].

ومن الأساطير اليونانية أيضاً تحول الإله إلى حية وإلى ثور، فقد (وصف إله النهر، أخيلوس نفسه قائلاً: (ولكن ما الذي يدعوني إلى التحدث عما يطرأ على أشكال الآخرين من تغيير، بينما أنا نفسي نموذج لامتلاك هذه القدرة، فتارة أصبح ثعباناً، وتارة أخرى أصبح ثوراً بقرنين على رأسه) [٦].

ومن أساطيرهم أيضاً تحول كادموس إلى ثعبان عندما قتل الثعبان الذي يقدسه الإله (مارس) إله الحرب. فقال كادموس (مادامت حياة ثعبان عزيزة عند الآلهة إلى هذا الحد، فلشد ما أتمنى أن أكون ثعباناً) [٧] وما كاد ينطق بالكلمات حتى ابتدأ يغير شكله، وعندما شاهدته هارمونيا زوجته تضرّعت إلى الآلهة كي تشاركه مصيره، وأصبح الاثنان ثعبانين يعيشان في

---

(١) المعتقدات الدينية لدى الشعوب، ص١٠٢، وينظر: قصة الحضارة، ١/٣٥٦.
(٢) قصة الحضارة، ١/٣٢٥.
(٣) المصدر نفسه، ١/٣٢٥.
(٤) المصدر نفسه، ١/٣٢٥.
(٥) الحيات في العالم، ص٢٥.
(٦) بلفينش، توماس: عصر الأساطير، ترجمة رشدي السيسي، النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦، ص٢٥٧.
(٧) المرجع نفسه، ص١٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الغابات دون أن يغفلا عن أصليهما، فهما لا يتجنبان الإنسان، ولا يؤذيان أحداً(١).

ومن الأعداء الذين واجهوا "زيوس" رئيس مجلس الآلهة نيفون الذي أنجبته الأرض (جايا) من تارتاروس، وهو تنين تطل من كتفيه مئة رأس من رؤوس الأفاعي، ويتطاير الشرر من عينيه، ويصدر بعض الأصوات يفهمها الآلهة فقط، وكان يصدر فحيحاً وأزيزاً له صدى كبير، وشكّل هذا التنين خطراً يهدد الأرض والسماء، لكن قدرة زيوس المتمثلة بالرعد والبرق والصواعق أحرقت رؤوس الأفاعي المئة، ثم ألقاها في أعماق تارتاروس(٢).

ومن أهم معتقدات النساء حملهن من الثعبان، لذلك كن يقصدن معبد "أيسكو- لابيوس"، وينمن فيه فيأتيهن في الحلم ثعبان، وإذا حملن اعتقدن أن الثعبان سبب ذلك، وكان يعتقد أن الثعبان إله لأن "أيسكولابيوس" ظهر عدة مرات بشكل ثعبان، وكانت الأفاعي تحفظ وتطعم في معابده لشفاء المرضى إذ عدّوه جسداً للآلهة(٣). ومن أساطيرهم أن أم "اغسطس قيصر" حملت به لمضاجعتها ثعباناً في هيكل "أبولو"(٤).

أما البرازيليون، فهم مثل شعوب العالم في نظرتهم إلى الحية من حيث التفاؤل أوالتشاؤم، فلهم رصيد من الخرافات والأساطير التي تدور حولها، فاعتقدوا أن الحية تقتفي أثر الإنسان إلى أن تثب عليه وتصرعه، وفي الطب كان لها نصيب في ذلك، فاعتقدوا أن بوضع عقدة قرنية من ذنب الجلاجل على رأس مريض بصداع أو ألم نفسي يشفي المريض(٥).

وتحرص الحية على تواجدها بالقرب من الماء، فاعتقد أهل البرازيل أنها تضع سمها على ورقة خضراء قرب الشاطئ، وذلك عند نزولها في الماء أيام الحر(٦).

وتبقى علاقة الحية بالمرأة وثيقة مع اختلاف هذه العلاقة حسب الشعوب والأمم، فالحية عندهم ترضع من ثديي المرأة، وتلهي طفلها بذنبها، وذلك عندما تنام هذه المرأة، وتنسحب

---

(١) عصر الأساطير، ص١٤٠، وينظر، حاتم، عماد: أساطير اليونان، الدار العربية للكتابة، الجهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ١٩٨٨، ص٢١٠-٢١٢، فريزر، جيمس: أدونيس أو تموز، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩، ص٨٢.

(٢) الأساطير الإغريقية، ص٦٣٩.

(٣) أدونيس أو تموز، ص٧٩.

(٤)المرجع نفسه، ص٨٠.

(٥) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص١٤.

(٦) المرجع نفسه، ص١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العلاقة كذلك على الأبقار، فترضع الحيات منها جميعها أيام الربيع[١].

وبالمقابل يكثر المشعوذون، وتكثر أساليبهم، وتتنوع موادهم التي يستعملونها في علاج اللديغ، ما بين قراءة وكتابة وعقاقير نباتية وحيوانية، وإذا ما شفي السليم بفضل كون اللدغة خفيفة أو كون الحية صغيرة السن، يكون نصيب المشعوذ من الهدايا والأعطيات مما يجعله غنياً[٢].

وللحية مكانة خاصة عند سكان سردينيا، فهي تجلب السعادة والبهجة لهم، وذلك بدخولها حظيرة خراف، وكذلك تحمل النساء الطعام والشراب لها إذا ما عثرت على جحرها، احتراماً وتقديراً لها[٣]. ومن الأساطير الأوروبية حول الحية أن المرأة خلقت من أرجل الأفعى التي فقدتها عندما تسللت إلى الفردوس[٤]. ويدل هذا على علاقة الخصب التي ترمز إليها كل من المرأة والحية.

ويعتقد الفلبينيون أن الحية تسبب الزلازل ذلك أن الأرض لديهم محمولة على عمود كبير، وهناك ثعبان ضخم يسعى جاهداً لإنزالها عنه، فإذا ما هز العمود ارتجفت الأرض، فيضرب الناس كلابهم كي تنوح، لأن الثعبان يخشى نواح الحيوانات، فيتوقف عن عملية الهز، فإن نواح الكلاب يسمع من كل دار في قرى القبيلة ما دام الزلزال مستمراً [٥].

أما روما، فقد دخلتها عبادة الحية سنة ٤٦٢ ق.م، وذلك عندما طلبت الدولة إلى إبيذوروس إرسال الحية المقدسة لتكف الطاعون عن الشعب[٦]، ورمزت الحية إلى الشمس، فصوروها على بعض الآثار، وكانت رمزاً للطب[٧].

وكما للشعب ملك، كذلك للحيات، ففي جزيرة سيلان يتجنبون إيصال الشر والأذى إليها،

---

(١) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص١٤.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٠.
(٣) الحيات في العالم، ص١٣.
(٤) لغز عِشتار، ص١٣٦.
(٥) ادونيس أو تموز، ص١٤٤.
(٦) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٦.
(٧) المرجع نفسه، ص٤٦. وينظر: المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيزعمون أن الحيات تجتمع لقتل الشخص الذي يقتل واحدةً من نوعهن [١].

وعبد الصقالبة الحية، فكانوا يقدمون لها اللبن والبيض، وكانت رمزاً للتفاؤل عند شعوب ليتوانيا واستونيا وبروسيا، فكانوا يرسلون الحواة ليغنوا لها فتخرج إليهم [٢].

أما الأفارقة، فلهم اعتقاد خاص بهم، فيرون أن إله القتال والتجارة والزراعة والخصب ثعبان، الأمر الذي يجعلهم يضعونها في معابدهم، وتقوم بنات على خدمتها، حيث يقدمن لها طقوساً خاصة مثل الرقص الخليع[٣]. وفي جزء من أفريقيا (ساحل الرقيق) نظام خاص لزوجات الإله الأفعوان وكاهنات وزانيات هيكله، وهناك علاقة بين خصب التربة وزواج النساء من الأفعوان، فالوقت الذي يبحثون فيه عن عرائس للإله الزحاف هو الفصل الذي تبدأ فيه الذرة بالظهور، حينئذ تمسك الكاهنات القديمات العصي، ويركضن في الشوارع، ويصرخن ويختطفن الفتيات الصغيرات اللواتي يتراوح أعمارهن ما بين الثامنة والثانية عشرة، ليجعلن منهن عرائس للأفعوان، لأنهم يعتقدون أن زواج الأفعوان بالنساء ضروري ليقوم بواجبه المهم، وهو إنماء الزرع وتكثير الماشية، وحمايتها ورعايتها[٤].

نلاحظ أن العلاقة بين الحية وبين المرأة وثيقة، فهي التي دبرت المكيدة لها في الجنة حسب بعض الديانات، والآن تخضع المرأة لها بطقوس خاصة. وإذا كسبت الراقصة رضا الأفعوان تبقى في المعبد إلى الأبد، وتصبح زوجة له، وتمنع من الاتصال بالرجال إطلاقاً[٥].

ويكثر عباد الأفاعي في أفريقيا، ويتراءى الأفعوان المقدس لأجمل الفتيات، فيقع تأثيره على عقولهن، ويحملن على الالتحاق بهيكله ككاهنات[٦]. وفيما يتعلق بعقوبة المسيء إلى ثعبان ما، فهي كبيرة، ويدفع حياته ثمناً لذلك، (فيوضع داخل كوخ، وتغلق عليه الأبواب، ثم تشعل النيران فيشوى في لهيبها حياً) [٧].

وإذا ما خرج ثعبان من المعبد وضل طريقه، فإن راهب الهيكل يخاطبه: (يا إلهي أنت

(١) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٧.
(٢) المرجع نفسه، ص٤٧.
(٣) الحيات في العالم، (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٨.
(٤) أدونيس أو تموز، ص٦٥- ٦٧.
(٣) الحيات في العالم، (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٣١.
(٦) المرجع نفسه، ص٣١.
(٧) المرجع نفسه، ص٣١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أبي وأنت أمي، إن رأسي هو ملك لك، تعطف علي وأبقه لي) [١].

وتبقى الصلة قوية بين الحية وبين المرأة في مجال الخصب، فإذا ما رأت امرأة (موالادي) في منامها، فإنها تعتقد أنها ستحمل[٢]. أما أهمية الحية الأصلة، فكانت إلهة النصر لدى زنوج أفريقيا[٣].

ومن معتقدات الأفارقة (أن روح الإنسان تحل بعد موته في جسد الحية)[٤]، وهناك أيضا صلة بين الحية والقمر، فكل يشير إلى الآخر، لذلك تحتفل بعض القبائل بالإلهة الأفعى في اليوم الأول لظهور القمر الجديد. وهناك علاقة بين المرأة والحية، فأصل المرأة حية، وأصل الحية امرأة، فمن أساطير الكونغو حول الطوفان أنه أعاد المخلوقات إلى أصلها، فصارت الرجال قروداً، والنساء حيات، وهذا أصل كل منهما حسب معتقداتهم[٥].

أما السودانيون، فهم مثل شعوب العالم، لهم طقوسهم المتعلقة بالحية، فرأوا أن الحية التي يعبدونها لم تحتمل شر البلاد التي كانت فيها، لذا لجأت إليهم، فاحترموها، وأقاموا خدماً لها من الكهنة والبنات الجميلات، وكانت هدايا الملك لها ذهباً[٦]. ويدل ذلك على علاقة الحية بالكهنة من جهة، وبالمرأة من جهة ثانية. وإذا ما احترق بيت، وكانت فيه حزن أهله وخافوا معتقدين أنها ستحيا، وستأخذ بثأرها منهم[٧].

أما عند اليابانيين، فيعد التنين مانحاً للخصوبة في المجتمعات التي تزرع الأرز، وذلك لعلاقته القوية بالماء، عنصر الحياة، ويصبح مصدراً لكارثة ما إذا ما تمت الإساءة إليه، ومن معتقداتهم أن هناك المرأة الأفعى التي لها علاقة قوية مع البحار والأنهار، تجلب السعادة والرفاهية لمن يجلس معها[٨].

---

(١) الحيات في العالم، (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٣١.

(٢) المرجع نفسه، ص٣٢.

(٣) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٣٣

(٤) المرجع نفسه، ص٤٧

(٥) لغز عِشتار، ص١٣٦

(٦) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٧

(٧) المصدر نفسه، ص٤٧

(٨) بلاكر، كارمن: المرأة الأفعى في الأساطير والخرافات اليابانية، ترجمة لطفي الخوري، مجلة التراث الشعبي، العددان السادس والسابع، السنة الثالثة عشرة، حزيران- تموز، ١٩٨١، ص٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والتنين ملك له قصر تحت البحر قلما يوجد فيه، لكن الساكن في الجنة سيدة ساحرة الجمال، وتدعى أحياناً بابنة إله البحر، وهي أفعى، ويتمثل دورها في الزواج من ضيف قد يكون صائد سمك أو حطاباً من عالم الإنسان، وتمنحه هدية سحرية تجلب له القوة والسعادة والرفاهية، وذلك عند عودته إلى عالمه، وهذا زواج إلهي من بقايا شعائر دينية شامانية كانت مزدهرة قديماً(١).

وهناك حكايات تبادر فيها المرأة الأفعى إلى الصعود من عالمها المائي للزواج من رجل بشري، لكنها تعود إلى الماء إذا ما اكتشفت انتهاك الزوج الأمر المحظور الذي تفرضه. ومن الأمثلة على ذلك مكافأتها رجلاً رمى حزمة حطب جبلية إلى سطح الماء، فأخذته إلى قصرها وتزوجته، وعند عودته إلى عالمه قدمت له هدية سحرية تجلب له السعادة والخير إذا ما التزم بتعليماتها، لكن فضوله أوضح حقيقة الإنسان، الأمر الذي جعل الهدية السحرية تختفي ومعها الثروة (٢). ومن الأمثلة كذلك زواجها من رجل أنقذ أفعى من القتل البشري، وكان ذلك عندما توسلت إليه المبيت في داره، الأمر الذي جعله يقع في حبها ويتزوجها بشرط عدم النظر إليها وهي تضع مولودها، لكن صبر الرجل نفد، فأخذ ينظر من خلال شقوق الجدران، فأصابه الرعب عندما رآها تنقلب إلى أفعى تزحف، لكنها أدركت أنه شاهدها فعادت إلى عالمها المائي، وتوقف الحظ السعيد(٣).

ومن حكايات الزواج الإلهي في الأساطير اليابانية، حكاية زواج فتاة من عاشق مجهول، لكنها اكتشفت أنه على شكل أفعوان، وذلك حين ربطت خيطاً في ثوبه لتسير في أثره عند المغادرة، فوجدت مقره في معبد إله الجبل "ميوا" ثم وضعت طفلا أصبح سلف الأسرة الخادمة في المعبد(٤). ولما كانت العلاقة قوية بين المرأة وبين الحية، فقد قدمت قرباناً لها، فكانت تدفن وهي حية استرضاء للأفعوان المسيطر على نهر أو بحيرة(٥).

أما الإيرانيون القدماء، فقد دخلت الحية في فنونهم وزخرفتهم(٦)، وعكست أعمالهم التشكيلية الوحدة الخفية بين القمر والأفعى، ودليل ذلك رسم على فخار يظهر الأفعى منتصبة

---

(١) المرأة الأفعى في الأساطير والخرافات اليابانية، ص٥٦.

(٢) المرأة الأفعى في الأساطير والخرافات اليابانية، ص٥٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٥٨.

(٤) المرجع نفسه، ص٦٢.

(٥) المرجع نفسه، ص٦٣.

(٦) تاريخ العراق – إيران – آسيا الصغرى. ص٣٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وعلى رأسها الهلال وأمامها الصليب[1]. [ينظر شكل (١٥)]

واعتقد بعض أتباع المذهب الزرادتشي (بوجود إلهين متماثلين في الأزلية والقوة، أحدهما إله النور ومبدأ الخير كله وهو أهارمزدا، والثاني إله الظلام ومبدأ الشر كله وهو أهرمان، وكان هذا الأخير الظافر أبداً، لكثرة الشرور في العالم، يمثل بهيئة الحية الأزلية، ويرمزون بها إلى برج الحوت أو التنين)[2].

ومن رموز الحية لديهم القوة والمنعة، فمن المناظر الفنية ما (يمثل موكب المحاربين ومائدة القربان التي تحيط بها الثعابين)[3]. ومن أهم طقوسهم البدائية عبادة الثعبان[4]، ونقيض ذلك (قتل الفارس ألف ثعبان)[5]، حتى يكفر عن أعماله السيئة. ومن معتقدات الفرس أن (الأجدهاني أعظم من البعير، وأن لها سبعة رؤوس)[6].

---

(٧) لغز عِشتار، ص١٣٦.

(٢) الحيات في العالم، ص٢٣.

(٣) علي، رمضان عبده: تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته إلى مجيء حملة الإسكندر الأكبر(إيران – الأناضول)، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، ص١٤٧.

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٩.

(٤) المصدر نفسه، ص١٥٢.

(٥) الحيوان، ٤/١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وإذا وصلنا إلى العرب وجدناهم ينظرون إلى الحيوان نظرة خاصة كونه شريكاً في البيئة التي يعيشون فيها، فكان إلى جانبهم في حلهم وترحالهم، حتى وصل الأمر بهم إلى تقديس بعضه، ودليل ذلك وجود بعض الأصنام التي عبدوها (على صورة حيوان، مثل ود الذي كان على صورة أسد، ويعوق على صورة فرس)[١]، وقد عبدوا آلهة عديدة شأنهم في ذلك شأن الأمم الأخرى، وفكروا في وجود قوى عليا لها سلطان، لذلك حاولوا التعرف إليها، بمختلف الوسائل، فوصفوها صفات مختلفة، وسموها مسميات عديدة[٢]. فمن العرب الجاهليين الذين عبدوا الحيوان قبيلة الشاعر زيد الخيل، الذي تعبّد لجمل أسود[٣].

هذا ولم يعش العرب منعزلين عن غيرهم من الأمم، الأمر الذي جعل لديهم (قابلية وصلاحية للتأثر بمن جاورهم من الأمم السامية في العقائد)[٤]. فمن الأمم التي كان لها تأثير في مكة والحجاز البابليون، الذين سادت أساطيرهم في بادية العرب[٥]. وقد رد أحمد أمين على من جعل العرب منعزلين قائلاً: "الحق أن هذه الفكرة خاطئة، وأن العرب كانوا على اتصال بمن حولهم مادياً وأدبياً"[٦].

ومما ساعد على تأثر العرب بغيرهم، تغير البيئة الاجتماعية في شبه الجزيرة بظهور الصابئة وانتشار آرائهم، وانتشار اليهود والنصارى في نجران وحول المدينة، وكذلك انتشار المجوسية[٧].

هذا وكان للطوطمية مكانة عندهم، فحرصوا على مشاركة الآلهة في الاغتذاء بالحيوان

---

(١) دغيم، سميح: موسوعة الأديان السماوية والوضعية (أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام)، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥، ص١٥.

(٢) علي، جواد: المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٦، ٦: ٥.

(3) المصدر نفسه، ٦/ ٦٠.

(٤) خان، محمد عبد المعيد: الأساطير العربية قبل الإسلام، ط١، القاهرة، ١٩٣٧، ص١٦، وينظر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦: ١١.

(٥) المصدر نفسه، ص١٦.

(٦) أمين، أحمد: فجر الإسلام، ط١١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٥، ص١٢.

(٧) الأساطير العربية قبل الإسلام، ص٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في مناسبات دينية، فيكون اللحم للعرب، والدم الذي يراق على رأس الصنم للإله(١). وكانوا على قناعة أن الطوطم لا يؤذي أتباعه، ولا يهابونه، كالحية أو الذئب، ووصل بهم الاعتقاد أنه يدافع عنهم، وينذرهم بوقوع خطر ما(٢). فمن مظاهر اهتمامهم بالحيوان وتقديسهم له تسميتهم بأسماء بعضه، مثل بني كلب، بني كليب، النمر، الذئب، بني الأرقم، الأراقم، والحنش (٣).

فالحية حيوان احتل مكانة خاصة عندهم، الأمر الذي جعلهم يعتبرونها بنت الجن، لذا كانت أكثر الحيوانات وروداً في القصص والحكايات المروية عن الجن(٤).

٥٨٧٧٦٢

تركت الحية أثراً كبيراً وواضحاً في القصص العربي، كونها كبيرة الحجم، تقفز على المهاجم بسرعة خاطفة، لذلك أفزع الناس منها، وترك الأمر في مخيلاتهم آثاراً لا تنسى، فربطوا بينها وبين الجن، وجعلوها فصيلاً منها(٥). وسلكوا سلوكاً خاصاً معها، فكانت لهم طبائع ومعتقدات تجاهها. فمن الأخبار التي تناقلتها الكتب، أن عبد الله بن جدعان الذي كان مكروهاً لدى قومه، (خرج ذات يوم في شعاب مكة حائراً بائراً فرأى شقاً في جبل، فظن أن يكون به شيء يؤذي، فقصده لعله يموت فيستريح مما هو فيه، فلما اقترب منه إذا ثعبان يخرج إليه، فجعل يحيد عنه ويثب، فلا يغني شيئاً، فلما دنا منه إذا هو من ذهب، وله عينان، هما ياقوتتان، فكسره وأخذه ودخل الغار، فإذا فيه قبور لرجال من ملوك جرهم، ومنهم الحارث بن مضاض الذي طالت غيبته فلا يدرى أين ذهب، ووجد عند رؤوسهم لوحاً من ذهب، فيه تاريخ وفاتهم، ومدد ولايتهم، وإذا عندهم من الجواهر واللآلئ والذهب والفضة شيء كثير، فأخذ منه حاجته، ثم خرج، وعلّم باب الغار، ثم انصرف إلى قومه، فأعطاهم حتى أحبوه، وسادهم وجعل يطعم الناس، وكلما قل ما في يده ذهب إلى ذلك الغار، فأخذ حاجته ثم رجع)(٦). فينبئنا الخبر أهمية الحية ومكانتها في حياة الجاهليين، لدرجة أنهم جعلوا لها تمثالاً من ذهب.

---

(١) موسوعة الأديان السماوية والوضعية (أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام)، ص١٥٢.

(٢) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١: ٥١٩.

(٣) المصدر نفسه، ٤: ١٩١، وينظر، موسوعة الأديان السماوية والوضعية "أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام"، ص١٥٢.

(٤) المصدر نفسه، ٥: ٤٧.

(٥) المصدر نفسه، ١: ٢٠٥، ١: ٧٢٦، وينظر، الأساطير العربية قبل الإسلام، ص٨١-٨٢.

(٦) ابن كثير، الحافظ: البداية والنهاية، ط٢، مكتبة المعارف، بيروت، ١٩٧٧، ٢/٢١٧، وينظر، الآلوسي، محمود شكري الآلوسي: بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، شرح محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، ١/٨٧-٨٩، الأساطير العربية قبل الإسلام، ص٢٠. الأبشيهي، شهاب الدين بن محمد: المستطرف في كل فن مستظرف، دار إحياء التراث العربي، ١/٣٤٧، غرائب وعجائب الجن والشيطان، ص١٩٥-١٩٧، آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجانّ، ص١٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا وكان للحية حضور في أساطير اليمنيين، فبينما كان والد بلقيس الملك شرحبيل يقوم بمهمات الصيد يوماً، وجد حيتين سوداء وبيضاء تقتتلان، فقتل السوداء، وحمل البيضاء، وصب الماء عليها حتى أفاقت، فأطلقها، فظهر له شاب من الجنّ كان هو الحية البيضاء التي أنجاها الملك، فكافأه بتزويجه ابنته التي كانت بلقيس ابنتها.[١] ويدل ذلك على علاقة قوية بين الحية والجن من ناحية، والحية والمرأة من ناحية أخرى. وما يؤرخ مكانة الحية لدى السبئيين ما عثر عليه من عضوين من البرونز (أحدهما ينتهي برأس تنين، والآخر ينتهي برأس حنش)[٢]، وبلغ اهتمامهم بالحية أن زخرفها فنانوهم، ورسموها ونقشوها.[٣]

ومن رموز الحية لدى الجاهليين أنها تمثل الإله القمر، وعند قسم منهم تمثل الروح[٤]، ومن معتقداتهم المسخ الذي يعني تحول صورة مخلوق إلى صورة أخرى، وتكون بالعادة أقبح من الأولى، لذلك كانت الحية في صورة جمل، لكن عقوبة الله لها جعلتها تمشي بدون أرجل وأيد[٥]، وذلك عندما سمحت لإبليس بالدخول إلى جوفها وأغوى حواء وآدم، ومن مزاعمهم وجود حية في بطن الإنسان، تعمل على عض شرسوفه وكبده في حالة الجوع[٦].

وللحية علاقة بالجن الذي كان له حضور في مغامراتهم وسفرهم الليلي، الأمر الذي جعلهم يتجنبون قتل الحية خوفاً من ثأر الجن نها، إذا ما قتل شخص ما ثعباناً، فإنهم (يأخذون روثه، ويفتونه على رأسه، ويقولون: روثه راث ثائرك، وقد يذر على الحية المقتولة يسير رماد، ويقال لها: قتلك العين فلا ثائر لك)[٧].

وإذا مرض شخص ما، وطال مرضه فإنهم يعزون طوال المرض إلى مس الجن، الذي يهاجمه بسبب قتله حية[٨]. وقد عملوا (جمالاً من طين وجعلوا عليها جوالق وملأوها حنطة

---

(١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: مروج الذهب ومعادن الجواهر، تحقيق محمد محـي الـدين عبـد الحميد، ط٤، مطبعة السعادة، مصر ١٩٦٤، ص ٧٥، وينظر، البستاني، كرم: أساطير شرقية، طبعـة جديـدة، دار مارون عبود، بيروت، ١٩٨٠، ص ١٠٨.

(٢) نيلسن، ديتلف وأخرون: التاريخ العربي القديم، ترجمة حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ص ١٦٩.

(٤) المرجع نفسه، ص١٦٧.

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٥٤-٥٥.

(٦) المرجع نفسه، ١٤٣/٦.

(٧) المرجع نفسه، ٨١١/٦، وينظر، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣١٣/٢.

(٨) المرجع نفسه، ٨١٢/٦، وينظر، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٥٨/٢، الأساطير والخرافات عند العـرب، ص٨٦.

(٩) المرجع نفسه، ٨١٢/٦، وينظر، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٥٩/٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشعيراً وتمراً، وجعلوا تلك الجمال في باب جحر إلى جهة المغرب وقت غروب الشمس وباتوا ليلتهم تلك، فإذا أصبحوا نظروا إلى تلك الجمال الطين، فإذا رأوا أنها بحالها قالوا: لم تقبل الدية، فزادوا فيها، وإن رأوها قد تساقطت وتبدد ما عليها من الميرة قالوا: قد قبلت الدية، واستدلوا على شفاء المريض وفرحوا وضربوا بالدف)[1]. ومن معتقداتهم تجاه السليم تعليق الحليّ والجلاجل عليه، ليشفى بذلك، حيث لا ينام بوجودها، ولا يستطيع السم السريان في جسمه فيهلك، وللمادة المصنوعة منها الحليّ أثر في الحياة والموت، فإن كانت الحلي ذهباً شفي، وإن كانت رصاصاً مات[2].

وكانت الحية في نظرهم حارسة جب الكعبة الذي توضع فيه هدايا الناس من مال وحلية، فبعثها الله لحراسة الكعبة بسبب سرقة قوم جرهم لها، فقد دامت مدة حراستها خمسمائة سنة إلى أن بنت قريش الكعبة[3]، فعندما لجأ العرب إلى بنائها خرجت حية سوداء الظهر، بيضاء البطن، رأسها مثل رأس الجدي، تمنعهم كلما حاولوا هدمها، الأمر الذي جعلهم يعتزلون، ودعوا: ربنا أردنا عمارة بيتك، فرأوا طائراً أسود ظهره، أبيض بطنه، أصفر الرجلين، أخذها فجرها حتى أدخلها أجياد، ثم هدموها وبنوا عشرين ذراعاً طولاً[4].

وقال الزبير بن عبد المطلب فيما يتعلق بالحية التي كانت قريش تهاب بنيان الكعبة لها:

عجبتُ لِما تصوَّبت العُقَـــابُ إلى الثعبان وهي لها اضطرابُ
وقد كانت يكون لها كَشِـيشٌ وأحيـــانا يكــون لهـــا وثابُ
إذا قُمْـنا إلى التأسيـسِ شدَّت تهيبنـــا البنــــــاءَ وقـــد نهابُ
فلما أنْ خَشِـيْنا الرِّجزَ جاءت عُقَــابٌ تتلـئبُ لها انصبــابُ
فضمَّتها إليــــها ثم خـــلَّت لنا البنيـــان ليس لها حجــــابُ

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٥٩/٢، وينظر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨١٢/٦، الأساطير والخرافات عند العرب، ص ٨٦.

(٢) الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر: الحيوان، تحقيق عبد السلام محمد هارون، دار الجيل، بيروت، ٢٤٧/٤، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨١٢/٦، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٠٤/٢.

(٣) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، أخبار مكة، تحقيق رشدي الصـــالح ملحـس، ط٣، دار الأنــدلس، بيروت، ١٩٨٣، ١٥٩/١، وينظر، السيرة النبوية، ٢٧٥/١ - ٢٧٧.

(٤) أخبار مكة، ١٥٨/١، ص١٦١-١٦٢، وينظر، عجينة، محمد: موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ط١، دار الفارابي، بيروت، ١٩٩٤، ٣٢٠/١-٣٢١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فقمنا حاشــدين إلى بنـــاء لنــا منه القواعــد والتـــرابُ

غداةَ نُرفِّع التأسيس منـــه وليس علــى مسوِّينــا ثيــابُ

أعزَّ به المليكُ بنــي لــؤيٍّ فليس لأصله منهـــم ذهـــابُ

وقد حشدت هناك بنو عديٍّ ومُرَّة قد تقدمــها كـــــلابُ

فبوّأنا المليكُ بذاك عِـــزّاً وعند اللهِ يُلْتمسُ الثــــوابُ(١)

ومن معتقدات العرب أيضاً أن المياه مسكونة بأرواح الجن، وأن تلك الأرواح اتخذت هيئة الأفاعي، واعتقدوا كذلك أن البقع الكثيفة بالنبات والأحراش كانت مسكونة بالأرواح الموجودة في شكل حيات.(٢) ومما يدعم اعتقادهم هذا اعتقاد آخر وهو أنه عندما أضرم حارب بن أمية ومرداس النار في بقعة كثيفة الأحراش، هربت الكائنات الروحية الموجودة في هيئة أفاع بيضاء، وكانت النتيجة موت الشخصين(٣).

ومن وظائف الحية لديهم حراسة الينابيع وعيون الماء، لذلك سموها "داهية الغبر"(٤)، ويدل مكانها على علاقتها بالماء والحياة، وتأكل الزعفران لما له من دلالة جنسية، ويدل زمانها على سبقها لآدم بألفي سنة، فهي حارسة الجنة كون إبليس طلب الإذن منها طمعاً في الخلود الذي يعد الرمز الأول للحية(٥). ولما كانت الحية الوسيلة التي دخل بها إبليس الجنة، وذلك بعد رفض الطاووس عرضه، ودله على الحية التي كانت على صورة الجمل، ولها قوائم كقوائمه، ولها ذنب، وكانت سيدة دواب الجنة(٦).

(وكان مسكنها في جنة المأوى، ومبركها على شاطئ نهر الكوثر، أكلها من الزعفران،

---

(١) السيرة النبوية، ٣٨٣/١.

(٢) النوري، قيس: الأساطير وعلم الأجناس، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨١، ص١٤٩.

(٣) الحيوان، ١٤٣/٣، وينظر، زكي، أحمد كمال: دراسات في النقد الأدبي، ط١، مكتبة لبنان ناشرون، الشركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٧، ص٣٢١، الأساطير وعلم الأجناس، ص١٤٩.

(٤) الحيوان، ١٤٥/٤-١٤٦، وينظر، مجمع الأمثال، ٤/١، ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم، المعاني الكبير، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر أباد الدكن، الهند، ١٩٤٩، المجلد الثاني، ص٦٧١.

(٥) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ٣١٨/١.

(٦) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، مطبعة دار الكتب المصـرية، القـاهرة، ١٩٣٨، ١٥/٣-١٨، وينظر، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧، المجلد الأول، ص٧٢، موسوعة أساطير العربية عن الجاهلية ودلالاتهـا، ٣١٦/١-٣١٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشربها من ذلك النهر، وكلامها التسبيح لله رب العالمين، وكان الله تعالى خلقها من قبل أن يخلق آدم بألفي عام، وكانت تخبر آدم وحواء عن كل شجرة في الجنة وكل شيء فيها)[١].

وبعدما تمثل دور الحية في إدخال إبليس في فمها[٢]، خاطب إبليس آدم قائلاً: (يا آدم هل أدلك على شجرة الخلد وملك لا يبلى)[٣]. فكان أن أكلت حواء وآدم من الشجرة وبانت سوآتهما، وكان ورق الشجر وسيلة سترهما، وكان عقاب الله للمرأة حملها كرهاً، والولادة كرهاً، وعقاب الحية دخول قوائمها في بطنها، ورزقها التراب، والعداوة بينها وبين بني آدم[٤].

ومن المعتقدات التي سارت في الصحراء العربية أن الحيات كانت مصدر مساعدة أو تهديداً اعتماداً على طبيعة الأرواح التي كانت تحملها، ونوايا الناس التي تواجههم[٥]. والحية تكافئ من يعمل خيراً معها، فلا تنسى ذلك، فمن القصص ما أوضحت أن عبيد بن الأبرص خرج يوماً يريد الشام فعرضت له حية تلهث عطشاً، فنزل بئراً وسقاها، حتى إذا كانت ليلة من الليالي ضلت ناقته، فما كان من الشجاع إلا أن أمده ببكر أوصله إلى باب داره[٦]. وكانت أيضا خير معلم للإنسان، فهي التي علمت أمية بن أبي الصلت قول (باسمك اللهم) فكانت على هيئة مسخ من الجان، وذلك عندما خرج مع قومه في عير، وقتلوا حية اعترضتهم، فاعترضتهم حية أخرى محاولة الأخذ بالثأر، فكان الصراع مريراً[٧].

وقد زعم العرب أن الحية صنف من الجن، وفي ذلك قال أبو قاسم الشبلي: (الجن ثلاثة أصناف كما جاء في الحديث، صنف على صور الحيات، وصنف على صور كلاب سود، وصنف ريح جبارة)[٨]. فمن أساطيرهم أسطورة طواف الحية (الجان) بالكعبة، والتي تبين

---

(١) الكسائي، محمد بن عبد الله: قصص الأنبياء، طبعة أيزن بيرغ، بريل لدين، ١٩٢٢، ص٣٦-٣٧.

(٢) تاريخ الأمم والملوك(تاريخ الطبري)، ص٧١.

(٣) سورة طـه، اية ١٢٠.

(٤) تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)، ص٧٢.

(٥) الأساطير وعلم الأجناس، ص١٤٩.

(٦) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ٣١٣/١، وينظر، القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب: جمهرة أشعار العرب، تحقيق محمد علي الهاشمي، ط٣، دار القلم، دمشق، ١/ ١٧٩- ١٨٠، وينظر، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٥٤/٢-٣٥٥.

(٧) مروج الذهب، ١: ٧٨، وينظر، موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها، ٣١٣/١.

(٨) الشبلي، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله: آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجـان، تحقيـق ايمـن البحيري، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥، ص٢٤، وينظر، غرائب وعجائب الجن والشـياطين، ص٣٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طواف رجل من الجن وتعرض رجل له من بني سهم، وقتله، فأخذ الجان ثأره من بني سهم، فقتل بنو سهم الحشرات من الحيات والعقارب وغيرهما، فنادى هاتف من الجن مطالباً بالصلح، الذي تحقق فيما بعد(١).

ومن معتقدات العرب أن الحية كانت خادمة آدم في الجنة، وكانت أحسن الخلق، لها قوائم كقوائم البعير، فعرض إبليس نفسه على الدواب كلها، لكنها رفضت الطلب إلا الحية، فحملته بين نابيها، فدخل الجنة بذلك(٢).

وبلغ من شدة تقديرهم للحية أنهم كانوا إذا وجدوا حية ميتة كفنوها ودفنوها، وقد امتدت هذه العادة إلى العصر الإسلامي، فمن الحكايات الطريفة أنه (كان جمع من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يمشون فوقع لهم إعصار، ثم جاء إعصار أعظم منه، ثم انقشع، فإذا حية قتيل فعمد رجل – منا – إلى ردائه، وكفن الحية ببعضها ودفنها، فلما جن الليل، إذا امرأتان تتساءلان: أيكم دفن عمرو بن جابر، فقلنا: من ندري ما عمرو بن جابر! فقالتا: إن كنتم قد ابتغيتم الأجر فقد وجدتموه، وإن فسقة الجن اقتتلوا مع المؤمنين منهم، فقتل عمرو وهو الحية التي رأيتم)(٣).

ومن رموز الحية الجوع، الذي ظهر في يوم من أيام داحس والغبراء(٤)، حيث جاء في رثاء الحطيئة قيس بن زهير:

إنَّ قيســـاً كانَ مَيْتَتُــهُ	أنفـا والحـر مُنْطَـلِقُ
شامَ ناراً بِاللِّوى اقتدحَتْ	وشُجـاع البَطْنِ يَخْتَنِقُ
في دريــــسٍ لا يُغَيِّبُــهُ	ربَّ حرٍّ ثوبـهُ خَلِـقُ(٥)

وترمز الحية إلى علاقة بينها وبين المرأة، ففي يوم البردان نام حجر آكل المرار، فإذا ثعبان أسود يظهر وزوجته تراه، فيهوى عليه ويريد عضة، وهو يتحرك فلا ينيله من نفسه، وتتمنى المرأة موت زوجها، حتى إذا رأى الثعبان عُسَّ الملك المملوء لبناً سعى إليه وشربه ثم

---

(١) أخبار مكة، ٢/١٥ -١٦، وينظر، موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ١/ ٣١٤- ٣١٥.
(٢) ابن قتيبة، محمد عبد الله بن مسلم: المعارف، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨١، ص١٥.
(٣) تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/٧٢٧، وينظر، دراسات في النقد الأدبي، ص ٣٢١.
(٤) المصدر نفسه، ٦/ ٧٢٧.
(٥) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣١٤، والأبيات ليست موجودة في ديوانه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مجّه، فقالت: سيستيقظ فيشرب فيموت فأستريح منه، ولما انتبه حجر طلب العس، ولم يكد يرفعه إلى شفتيه حتى اضطربت يداه وأريق اللبن، فنظر إليها يسألها عن الثعبان أين ذهب؟ فقالت: ما رأيته! فقال: كذبت والله! فقد تكهن أو لعل الثعبان كان رئيه فأخبره إلا أنه لم يقتل المرأة[١].

ومن معتقدات العرب أن الحية لا تموت حتف أنفها، بل تموت بعارض ما، وإن كبرت في السن صغر حجمها[٢]، لاعتقادهم أن فيها شياطين، وأنها ممسوخة، وأنها كانت ملجأ إبليس الذي وسوس لحواء وآدم في الجنة[٣]. ومن رموزها الشيطان، فاعتقدوا أن الحية الخفيفة شيطان[٤]، وذلك لخفة حركتها لأنهم لا يسمون الحية الثقيلة بذلك، لعدم قدرتها على التنقل كما تفعل الخفيفة[٥].

ومن مزاعم العرب أن عيون الحية تضيء ليلاً، ومن ذلك قصة رجل سجستاني حدث العرب بذلك[٦]. وكما للحية علاقة وثيقة بالماء وأماكنه، كذلك لها علاقة بالنار، فزعم العرب (أن الحية التي يقال لها الأصلة لا تمر بشيء إلا احترق) [٧].

ومن باب الخرافة ما روي حول سعة شدقيها ابتلاعها (كبشاً عظيم القرنين، فجعلت تضرب به الحجارة يميناً ويساراً حتى كسرت القرنين، وابتلعته وقرنيه)[٨].

ومن معتقدات العرب كذلك أن للحية قدرة على السمع والنطق[٩]، وكانوا يتخذون منها سلاحاً للتهويل والترغيب، الأمر الذي جعلهم يصفونها بصفات غيبية غريبة جداً، منها أن لها رأسين، تتغذى بواحد، وتتعشى بواحد، تعض بهما معاً[١٠]. ومما جاء في تفسير سورة غافر أنه (لما خلق الله تعالى العرش قال: لم يخلق الله تعالى خلقاً أعظم مني واهتز تعاظماً فطوقه الله بحية لها سبعون ألف جناح، في كل جناح سبعون ألف ريشة، وفي كل ريشة سبعون ألف وجه،

---

(١) دراسات في النقد الأدبي، ص ٣٢٢.
(٢) الحيوان، ٤/١١٨ – ١١٩.
(٣) المصدر نفسه، ٤/١٥٧.
(٤) المصدر نفسه، ٤/١٣٣.
(٥) المصدر نفسه، ٤/١٣٣.
(٦) المصدر نفسه، ٤/ ١١٦.
(٧) المصدر نفسه، ٤/ ١٥٥.
(٨) المستطرف من كل فن مستظرف، ١/١١١.
(٩) الحيوان، ٤/٢٠٤.
(١٠) المصدر نفسه، ٤/١٥٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في كل وجه سبعون ألف فم، في كل فم سبعون ألف لسان، يخرج من أفواهها كل يوم من التسبيح عدد قطر المطر، وعدد ورق الشجر، وعدد الحصى والثرى، وعدد أيام الدنيا، والملائكة أجمع، فالتفت الحية بالعرش، فالعرش إلى نصف الحية وهي ملتوية به)[1].

هذا ولم تقتصر العلاقة بين الحية والمرأة على الأشعار، بل تضمنتها بعض الأمثال العربية التي تعد لسان الناس، فلسان الحية (يشبه به القدم اللطيفة، كما قال بعض البلغاء في وصف امرأة حسناء: لها صدغ كالعقرب، وعنق كالإبريق الفضية، وسُرَّةٌ كدهُن العاج، وقدم كلسان الحية)(٢)، وهذا تشبيه يوحي بنوع من الايجابية الذي سجل لصالح المرأة، ولكن ذلك لا ينقذها من نتائج لا تحمد عقباها، (صباح الحية، ولا صباح البنية)(٣)، وفي هذا المثل توبيخ للفتاة وانتقاص من حقها، وكأن شرور الحية أخف من شرور المرأة، وصباح البنية منع للرزق، وتعسير للأمور الحياتية.

وتبقى العادات والتقاليد سائدة عبر شرايين الزمن لتصل إلى عرب العصر الحديث، ففي الوسط الشعبي الفلسطيني (اعتقاد مؤداه بأنه إذا لدغت أفعى أماً وهي حامل، فإن ابنها يولد "محوي"، وتقوم بعض الأمهات بتعريض أنفسهن للدغ الأفعى من أجل تحصين المولود المنتظر)[4]. ومن الخرافات التي تتصل بالحية ولها علاقة بها، ما يعرف بخرزة الحية التي تتعامل معها، فيقال (عن حاملة هذه الخرزة أنها تجعل الذي تريده ينساب أمامها كالحية الملساء، إذ يأسره حبها، وهي خرزة باللون الأبيض لونها بني أو أسود فاتح)[5].

ومن هذا الخبر نستشف مدى تأمل المرأة خيراً بالحية، خاصة إذا كان الهدف المقصود الرجل، الذي خبرته في الجنة، وكانت الحية بطل الحادثة، وفي هذا قمة التوافق والتشابه في النتيجة، لأن آدم هو الضحية.

وقد (روى أسامة بن منقذ في كتاب سيرته (الاعتبار): قصة عن إفرنجي وجد آخر مع امرأته في الفراش، فقال له: أي شيء أدخلك عند امرأتي، قال كنت تعباناً دخلت أستريح، قال:

---

(١) الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس، المكتبة الثقافية، بيروت، ص١٣، وينظر، موسوعة أساطير العرب عند الجاهلية ودلالاتها، ١/ ٣٢٠.

(٢) الثعالبي، أبو منصور محمد بن إسماعيل: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥، ص٤٢٧.

(٣) عباس، فؤاد إبراهيم. وشاهين، أحمد عمر: معجم الأمثال الفلسطينية، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٨٩، ص١٤٤.

(٤) سرحان، نمر: موسوعة الفلكلور الفلسطيني، ط٢، عمان، ١٩٨٩، ص٢٢٩، وينظر، المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧٤.

(٥) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص ٢٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كيف دخلت فراشي؟ قال: وجدت فراشاً مفروشاً نمت فيه، قال: والمرأة نائمة معك؟ قال: الفراش لها كيف أقدر أن أمنعها من فراشها؟ قال وحق ديني إن عدت فعلت كذا تخاصمت أنا وأنت![1]. يدلل الخبر على ارتياح الحية وشعورها بالأمن من قبل بالمرأة، وحبٍّ في التقرب إليها.

ولم تقتصر العلاقة بين الحية والمرأة على الأشعار والأمثال بل تعدتها إلى الأحلام، التي تعد رؤيتها وتفسيرها معادلا موضوعياً للواقع المعاش وانعكاساً له[2]. وقد (وصف فرويد تفسير الأحلام بأنه الطريق الملكي إلى معرفة اللاشعور)[3]، فمن خلال تفسيرها يتبين للقارئ علاقة الحية بالمرأة، فمن رأى أنه قتل حية في فراشه ماتت امرأته، وإن رأى في عنقه حية، فقطعها ثلاث قطع فإنه يطلّق امرأته ثلاثاً[4]. ومن (رأى حية دخلت بيته فهو عدو من جهة النساء[5]، ومن (رأى امرأته حاملاً ووضعت حية أتاه ولد عاق)[6]. (وحكي أن رجلاً أتى ابن سيرين، فقال: رأيت كأن حية تسعى وأنا أتبعها، فدخلت جحراً وفي يدي مسحاة فوضعتها على الجحر، فقال: أتخطب امرأة؟ قال: نعم، فقال: إنك ستتزوجها وترثها، فتزوجها فماتت عن سبعة آلاف درهم)[7].

وهناك نوع من الحيات، وهو الأصلة، وله صفات وخصائص غريبة بعيدة عن صفات الإنس، وقريبة من صفات الجن، فهي (تحرق كل ما تمر عليه، ولا ينبت حول جحرها شيء من الزرع أصلاً، وإذا حاذى مسكنها طائر سقط، ولا يمر حيوان بقربها إلا هلك، وتقتل بصفيرها على غلوة سهم، ومن وقع عليه بصرها مات، وضربه فارس برمحه فمات هو وفرسه)[8].

وارتبطت صورة الحية في الذهن الشعبي العربي ارتباطاً وثيقاً بالجن، فمن أشهر

---

(١) الحية في حياتنا وتراثنا، ص ٥٩.

(٢) كبه، نجاح هادي: منهج ابن خلدون في تفسير التراث الشعبي، التراث الشعبي، العدد الخامس، السنة التاسعة، ١٩٧٨، ص٦٤.

(٣) فروم، إيريش: الحكايات والأساطير والأحلام مدخل إلى فهم لغة منسية، ترجمة صلاح حاتم، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٠، ص٢٧.

(٤) موسوعة أساطير العرب، محمد عجينة، ١: ٣٢٢. وينظر، تفسير الأحلام الكبير، محمد بن سيرين، ١٧٤، مغنية، أحمد: تفسير الأحلام، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٧٩، ص١٠٧.

(٥) الحية في حياتنا وتراثنا ص ٦٦.

(٦) المرجع نفسه، ص ٦٦.

(٧) تفسير الأحلام، محمد بن سيرين، ص١٧٤.

(٨) القانون في الطب، ص١١٦، وينظر، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠. حياة الحيوان الكبرى، ٢٩٢/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصور التي ظهرت بها الجن في الثقافة الجاهلية صورة الحية(١). وما يؤيد ذلك حادثة شرحبيل يوم خرج للصيد وصادف حيتين تقتتلان(٢). ويمكن اعتبار الحية التي كانت سبباً في وجود نبات الريحان لكسرى جنّاً، وذلك لخصوصية سلوكها(٣).

وذكر الإمام أبو الفرج ابن الجوزي: (أن عيسى عليه الصلاة والسلام مر بحاوٍ يطارد حية، فقالت له الحية: يا روح الله، قل له لئن لم يلتفت عني لأضربنه ضربةً أقطعه قطعاً، فمر عيسى عليه الصلاة والسلام ثم عاد فإذا الحية في سلة الحاوي، فقال لها عيسى عليه السلام: ألست القائلة كذا وكذا فكيف صرت معه؟ فقالت: يا روح الله إنه قد حلف لي والآن غدر بي فسم غدره أضر عليه من سمي)(٤).

ونستدل من الخبر أن الحية باعتبارها حيواناً مادياً لا يخاطب ولا يشكو، وفي هذا تأكيد على أن هذه الحية جن، وأن هذا الجن من المسالمين الذين لا يعترضون طرق الآخرين، ويشكلون خطراً عليهم.

ومن طباع عرب الصحراء أكل لحم الحية، وذلك بعد اصطيادها وقطع رؤوسها وأذنابها وشيها على النار(٥)، ومن طباع الحية أنها لا تأكل الميت من الأشياء، فإن (رأت حية ميتة لم تأكلها، ولا تأكل الفأر ولا الجرذان الميتة، ولا العصافير الميتة ...، ولا تأكل إلا لحم الشيء الحي)(٦).

وبالمقابل فإن (الذر متى رأت بحية خدشاً لم تقلع عنه حتى تقتله، وحتى تأكله)(٧). وما يشكل خطراً على الحية من حيوانات الصحراء القنافذ، خاصة إذ قبضت بالذنب، فإنها تنتهي الأكل دون خطورة(٨).

ومما ورد في العصر الإسلامي (يسأل الراقي الملدوغ إلى أين انتهى الوجع في العضو؟

---

(١) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧٠.
(٢) المرجع نفسه، ص٢٧٠.
(٣) المستطرف في كل فن مستظرف، ١١٢/١.
(٤) حياة الحيوان الكبرى، ٣٩٥/١.
(٥) المستطرف، ١١٢/١، وينظر، الحيوان، ٣٠٢/٤.
(٦) الحيوان، ٣٥١/٥.
(٧) المصدر نفسه، ٤١٣/٥، ٦٤/٧.
(٨) المصدر نفسه، ٣٧٤/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ثم يضع على أعلاه حديدة ويقرأ العزيمة ويكررها وهو يجرد موضع الألم بالحديدة حتى ينتهي في جرد السم إلى أسفل الوجع، فإذا اجتمع في أسفله جعل يمص ذلك الموضع حتى يذهب جميع الألم، ولا اعتبار بفتور العضو بعد ذلك وهي هذه: سلام على نوح في العالمين، وعلى محمد في المرسلين من حاملات السم أجمعين، لا دابة بين السماء والأرض إلا وربي أخذ بناصيتها أجمعين، كذلك يجري عبادة المحسنين إن ربي على صراط مستقيم نوح نوح. قال لكم نوح: من ذكرني فلا تلدغوه إن ربي بكل شيء عليم، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم)(١).

وامتدت ظاهرة رقي الحية إلى العصر العباسي، حيث أراد الخليفة المنصور اختبار أحد الحواتي بأن أحضر حية رصاصية وجعلها في سقف البيت ثابتة، وأتى بالحاوي ليرقيها، (فرقاها فلما رآها لا تتحرك زاد في رفع صوته وألقى قناعه، فلما رآها لا تتحرك نزع عمامته وزاد في رفع صوته، فلما رآها لا تتحرك نزع قلنسوته وزاد في رفع صوته. فلمّا رآها لا تتحرك نزع ثيابه، وزاد في رفع صوته، حتى أزبد، وتمرغ في الأرض، فلما فعل ذلك سال ذلك الرصاص وذاب)(٢).

وقد صارت العداوة بين الحية وآدم مكتوبة على الناس والحيات منذ أن أخفت الحية إبليس، ومكنته من الوصول إلى حواء(٣). لهذا امتدت العداوة منذ ذلك الزمن الفردوسي حتى الزمن الأرضي المتصف بالشقاء، بما يتبعها من متاعب ومشاق للجميع، امتدت العداوة إلى العصور الإسلامية، وكأن هذا الصراع لا ينتهي إلا بانتهاء الحياة الدنيا، ولا أظن ذلك، إن تذكرنا أن الحيات عقاب المشركين يوم القيامة.

ومن الحكايات والحوادث ما تؤكد على أن العداوة بين الحية وابن آدم قائمه حتى أجل غير مسمى، ومن ذلك حكاية رجل يدعى محمد بن حمير، وكان يصوم النهار ويقوم الليل (فخرج يوما يتصيد فبينما هو سائر إذ عرضت له حيه فقالت يا محمد بن حمير، أجرني أجارك الله، فقال لها: ممن؟ قالت من عدو قد ظلمني. قال لها: وأين عدوك، قالت له: من ورائي. قال لها: من أي أمة أنت؟ قال: من أمة محمد صلى الله عليه وسلم. قال: ففتحت لها من ردائي وقلت لها: أدخلي فيه. قالت: يراني عدوي. قال: فبسطت لها طمري وقلت: ادخلي بين طمري وبطني.

---

(١) حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٩٧-٣٩٨.

(٢) الحيوان، ٤/٤١٩- ٤٢٠.

(٣) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قالت: يراني عدوي. قلت لها: فما الذي أصنع بك؟ قالت: إن أردت اصطناع المعروف فافتح لي فاك حتى أنساب فيه. قلت: أخشى أن تقتليني، فقالت: لا والله ما أقتلك، والله شاهد علي بذلك وملائكته وأنبياؤه وحملة عرشه وسكان سماواته أن لا أقتلك. قال: ففتحت لها فانسابت فيه، ثم مضيت فعارضني رجل معه صمصامة فقال: يا محمد. فقلت له: ما تشاء؟ قال : هل لقيت عدوي ؟ قلت: ومن عدوك ؟ قال: حية. قلت: اللهم لا، واستغفرت ربي مئة مرة من قولي (لا)، لعلمي أين هي، ثم مضيت قليلاً فإذا بها قد أخرجت رأسها من فمي وقالت: انظر هل مضى هذا العدو ؟ فالتفت فلم أر أحداً فقلت: لم أر أحداً، فإن أردت الخروج فاخرجي فقالت: الآن يا محمد اختر لنفسك واحدة من اثنتين، إما أن أفتت كبدك وإما أن أنفث في فؤادك فأدعك بلا روح، فقلت: يا سبحان الله: أين العهد الذي عهدت إليّ، واليمين الذي حلفت لي، ما أسرع ما نسيت وخنت؟ فقالت: يا محمد ما رأيت أحمق منك إذ نسيت العداوة التي كانت بيني وبين أبيك آدم حيث أخرجته من الجنة، فليت شعري ما الذي حملك على اصطناع المعروف مع غير أهله؟ قال:فقلت لها ولا بد لك من قتلي. قالت: لابد من ذلك. قال: فقلت لها: أمهليني حتى أصير تحت هذا الجبل فأمهد لنفسي موضعاً. قالت: شأنك وما تريد، قال محمد: فمضيت أريد الجبل وقد أيست من الحياة فرفعت طرفي إلى السماء وقلت: يا لطيف الطف بي بلطفك الخفي، يا لطيف يا قدير، أسألك بالقدرة التي استويت بها على العرش فلم يعلم العرش أين مستقرك منه، يا حليم يا عليم، يا علي يا عظيم، يا حي يا قيوم يا الله، إلا ما كفيتني شر هذه الحية، ثم مشيت فعارضني رجل صبيح الوجه طيب الرائحة نقي الثوب فقال لي: سلام عليك، فقلت: وعليك السلام يا أخي فقال: مالي أراك قد تغير لونك واضطرب كونك؟ فقلت من عدو ظلمني، قال لي: وأين عدوك؟ قلت في جوفي. قال: فافتح فاك، ففتحته فوضع فيه مثل ورقة زيتون خضراء ثم قال: امضغ وابلع، فمضغت وبلعت. قال محمد: فلم ألبث قليلاً حتى مغصني بطني ودارت الحية في بطني فرميت بها من أسفل قطعاً قطعاً وذهب عني ما كنت أجده من الخوف، فتعلقت بالرجل فقلت: يا أخي من أنت الذي منّ الله عليّ بك؟ فضحك ثم قال: ما تعرفني؟ قلت: اللهم لا .قال: يا محمد بن حمير إنه لما كان بينك وبين هذه الحية ما كان ودعوت الله بهذا الدعاء ضجت ملائكة السماوات السبع إلى الله عز وجل فقال تبارك وتعالى: وعزتي وجلالي بعيني كل ما فعلت الحية بعبدي، وأمرني سبحانه وتعالى: أن انطلق إلى الجنة، وخذ ورقة خضراء من شجرة طوبى، والحق بها عبدي محمد بن حمير، وأنا يقال لي المعروف، ومستقري في السماء الرابعة. ثم قال يا محمد بن حمير عليك باصطناع المعروف فإنه يقي مصارع السوء، وإنه وإن ضيعه

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصطنع إليه لم يضع عند الله تعالى)[1].

إن التشابه قائم بين طلب الحية من فتح الرجل فمه قائما مع طلب إبليس من الحية فتح فمها للدخول إلى الجنة، ونلاحظ أن العداوة ظلت قائمه منذ العهد الفردوسي حتى العصور الإسلامية.

وهذا ما يدلل على استمراريتها حتى يوم الدين، ومن الأمور التي تلتقي مع الجنة وجود ورقه خضراء من شجرة طوبى، حيث تبقى للشجرة علاقة مع الحية. فكما كانت الشجرة سبب طرد آدم وزوجته من الجنة، كانت شجرة أخرى سبباً في نجاته من الحية التي لم تكتف بفعلها في الجنة، بل لاحقت آدم في أرض المصاعب والمشاق والآلام، وكان الصراع بينهما صراع وجود. وكما كان إبليس صديقا لها في سعيها في الجنة، صار الملك صديق ابن آدم في هذه المحنة.

ورأى العربي القديم في الحية دواء للعلاج، فهي مصدر الشفاء والصحة، فكما أنها سبب الموت فهي سبب الحياة، وكأنها مانحة الحياة والصحة، فكان على الشخص الذي (يشكو رخاوة في جفونه أو ذرف عينه الدمع باستمرار أن يأتي بحية ويطبخها مع جريش القمح. ويعطي الطبيخ إلى دجاجة ثم يأخذ ذرقها ويجففه ويسحقه ويجعل منه ذروراً يذر منه قليلاً في عينيه لعدة أيام)[2]. ومن معتقدات أبناء الفرات أنهم كانوا (يقتنون ثوب الحية الذي تسلخه في كل عام يحرقونه ويبخرون بدخانه من به زكام شديد)[3]. فالشفاء (عن طريق الأفعى الذي يعتبر أسباب التطبيب به معاكساً للأرنب، فهو صاحب قوة وسطوة وأنه سينقل هذه القوة والسطوة للمتطبب به، ... ، أليس ذلك كله امتداداً للعلة والمعلول الميثولوجي؟ وهو قوة الأفعى وخوف الإنسان منه، الذي عكسه ليس على نفسه فحسب بل على أعدائه الذين يجلبون له السحر، فعن طريق تجفيف قلبها وشده على الإنسان يعني خلاصه من السحر، فليس هناك قوة تدفع السحر مثل قوة قلب الأفعى، فاعتبروه مركز الثقل الذي يحرك هذا الإنسان المرعب، لكننا لا نعدم التفسير الأخلاقي حتى في التطبيب من الأفعى كما لا نعدم العوامل المتداخلة الأخرى في تفسير التطبيب بالحيوانات الذي هو أثر من آثار الطوطمية)[4].

---

(١) حياة الحيوان الكبرى، ١ /٣٩٦ -٣٩٧.

(٢) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٦٧.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٤-٦٥.

(٤) اثار من طوطمية الحيوان عند العرب، ص١٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وللحية أثر ايجابي يتعلق بصحة الإنسان، لذا عمد العرب القدامى إلى دمها للاكتحال به، حيث يحد البصر، ويمنع الغشاء، وأما شحمها فإنهم كانوا يذيبونه لينتفوا بـه شـعر الإبـط، وبطليهم مكان الشعر حتى لا يرجع، وبالشحم يمنع نزول الماء من العين. وأما قلبها فإنهم كـانوا يجففونه ويشدونه على شخص كي لا يؤثر فيه السِّحر، ومن معتقداتهم أن أكله يـؤمن الشـخص من الأمراض الصعبة ويقوي أعصابهم ويبطئ شيبه[١]. ومن معتقدات العـرب القـدامى حـول أهمية الحية في الصحة والحياة أنه كان (يؤخذ سلخ الحية مقلياً أو مقشوراً ويبخر بـه صـاحب البواسير الظاهرة والباطنة المتعلقة فإنها تسقط، ...، وبيض الحيات يدق مع بُورَق وخل ويطلـى به البرص الجديد فيقطعه. وسلخ الحية إذا عجن بثلاث تمرات وأطعم لمن به الثآليل ذهبت عنه، وإن أكله من ليس به ثآليل لم تخرج أبداً)[٢].

ومن الأخبار التي تدعم صحة ما سبق أن عمر بن يحيى العلوي قال: (كنا في طريق مكة فأصاب رجلاً منا الاستسقاء والعياذ بالله، فسلب العرب قطاراً فيه ذلك الرجل العليـل، ورجعنـا بعد الحج إلى الكوفة فإذا هو بالكوفة معافى فسألته عن حاله، فقال: إن الأعراب لما سلبوا القطار ساقوه إلى مسكنهم، وكان على فراسخ فطرحوني في أواخر بيوتهم وكنت أتمنى الموت إلـى أن رأيتهم يوماً قد أخرجوا أفعى صادوها، فقطعوا رأسها وذنبها وشووها، وكانوا يأكلون منها فقلت في نفسي: هؤلاء قد اعتادوا على أكل هذا فلا يضرهم، فلعلي أنا إن أكلت منه مت فاسـترحت، فاستطعمتهم فرمى إلي بعضهم واحدة وزنها أرطال فأكلتها فأخذني نوم ثقيـل، فانتبهـت وقـد عرقت عرقاً شديداً، واندفعت طبيعتي فقمت في يومي وليلتي أكثر من مئة مرة، فتقطعت طريق قوتي، وقلت هذا طريق الموت، وأقبلت أتشهد وأدعوا الله المغفرة إلى أن أصبحت فوجدت بطني قد ضمرت، وانقطع الألم، فطلبت منهم مأكولاً فأطعموني، وأقمت عندهم إلـى أن وثقـت مـن نفسي، ثم أخذت الطريق مع بعضهم، ولحمها أيضاً ينفع من الجذام)[٣].

فعادة التداوي بلحم الحية عادة قديمة جداً، تعود إلى الحياة الهندية القديمة، فرأى الهنـدي دوراً للحية لدى الآلهة في شفاء الناس بوساطة لحمها مع مواد أخرى تضـاف إليـه[٤]. وكـان العرب يلتمسون الحياة من الحية حين تلدغ أحدهم، فعند ذلك يأخذون الترياق الموجود في متونها من أجل التداوي[٥].

---

(١) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص٤٦٧-٤٦٨، وينظر، المستطرف من كل فن مستظرف، ١/١١٣.

(٢) الحيات في العالم (بحث تاريخي فني علمي)، ص٢٠.

(٣) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص٤٦٨.

(٤) الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، علمي)، ص٢٧.

(٥) الحيوان، ٤/٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثاني

حياة الحية في الشعر الجاهلي

المبحث الأول: الحية لغة.

المبحث الثاني: أسماء الحية.

المبحث الثالث: ألوان الحية.

المبحث الرابع: جسد الحية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحية لغة:

اشتقت الحية من الحياة، فالحياة نقيض الموت، والحي من النبات ما كان طرياً قابلاً للاهتزاز ويقال للأرض المخصبة حية، ويقال كذلك أحيا القوم، أي صاروا في الحيا، وهو الخصب. والحيوان عين في الجنة لا تصيب شيئاً إلا وأحياه. وكذلك اسم يقع على كل شيء. والمحاياة غذاء للصبي بما فيه حياته. ومن معاني الحيا الخصب، والمطر، والاستحياء إبقاء الكائن حياً على قيد الحياة. والحياء رحم الناقة، وهو الفرج لكل ذوات الخف والظلال، والحي فرج المرأة، والحية الحنش، ويجيء اشتقاقه من الحياة، والدليل عند سيبويه قول العرب في الإضافة إلى حية بن بهدلة حيوي، فلو كان من الواو لكان حووي، كما يقال في الإضافة إلى لية لووي. والحية للذكر والأنثى، ولكن دخلته التاء لأنه واحد من جنس مثل بطة ودجاجة، وروي عن العرب قولهم : رأيت حياً على حية، وفلان حية ذكر. ويقال لصاحب الحيات الحاوي، وذكر الحيات الحيوت، وجمع الحية حيات. والعرب تذكرها فإذا قالوا الحيوت عنوا الحية الذكر، وانشد الأصمعي:

ويأكلُ الحيةَ والحيُوتا [(١)]

فيلاحظ مما تقدم أن معاني مادة (حيا) اللغوية تدل بإجماع على النماء والخصوبة واستمرارية الحياة، وهذا ما يعزز صلة الحية بالحياة.

---

(١) ابن منظور، لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ط٦، دار صادر، بيروت، مادة "حيا"، وينظر، الزبيدي، محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني: تاج العروس من جواهر القاموس، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، مادة "حيا".

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أسماء الحية

كان من شدة حضور الحية في الفكر الجاهلي؛ أن تعددت أسماؤها وألقابها والكنايات عنها، فمن أسمائها:

الأَرْبَد:

الرُبْدة غبرة، وهو سواد مختلط، ويقال لمن يربد وجهه: احمرّ حمرة فيها سواد، وذلك عند الغضب. ويقال كذلك اربدّ الرجل في حالة إفساد ماله ومتاعه. والأربد نوع من الحيات خبيث، ويتميز بعضّ الإبل(١). فيتبين لنا أن الاسم جاء من اللون المركب من الأحمر والأسود.

قال المهلهل بن ربيعة التغلبي:

حيةٌ في الوجـــارِ أربد لا ينـــ فعُ منه السَّليمَ نفثةُ راقِ(٢)

الأَرْقَم:

يبدو أن تسمية الحية بهذا الاسم جاءت من تلونها لأن الرقم في اللغة الخز الموشى، ويقال للداهية وما لا يطاق ولا يقام به الرّقم، وللروضة الجميلة الرَّقْمَةُ، وذلك لتلونها بألوان عديدة من نباتاتها، والأرقم حية مرقم بحمرة وسواد، وهو من الحيات التي فيها سواد وبياض، وجمعه أراقم، غلب عليه غلبة الأسماء فتكسر تكسيرها، ولا يوصف به المؤنث، فيقال للذكر أرقم، ولا يقال حية رقماء، ولكن رقشاء، والأرقم نوع من الحيات الذي يشبه الجان في اتقاء الناس من قتله، والأرقم والجان يتقى في قتلهما عقوبة الجن لمن قتلهما، وفي هذا قول رجل لعمر: مثلي كمثل الأرقم، إن تقتله ينقم، وإن تتركه يلقم، وقد عد هذا النوع من أخبث الحيات وأطلبها للناس.(٣)

---

(١) لسان العرب، مادة "ربد"، وينظر، تاج العروس مادة "ربد".

(٢) شرح ديوان امرئ القيس، ص٢٣٤.

(٣) لسان العرب، مادة " رقم"، وينظر، تاج العروس، مادة "رقم"، الثعالبي، أبو منصور: فقه اللغة وسر العربية، تحقيق مصطفى السقا، وآخرين، ط٣، دار الفكر، ص١٨٠، شاكر، شاكر هادي: الحيوان في الأدب العربي، ط:١، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥، ١ /٢٦٩، الدميري، كمال الدين محمد بن موسى: حياة الحيوان الكبرى، مطبعة

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

نلاحظ مما تقدم أن الاسم عكس واقعاً، فكانت المطابقة بين الدال وهو الاسم والمدلول وهو اللون وطبيعة الشيء، وفيما يخص الدهاء والخبث، فإنهما صفتان تتسمان بعدم الوضوح، فلون الأرقم ثنائي، وكذلك الدهاء والخبث صفتان تميلان إلى الغموض وعدم الوضوح، الأمر الذي يشكل صعوبة في التعامل معه، كما يجد الإنسان صعوبة في رؤية الشيء الملون بالأحمر والأسود من بين عدة أشياء. وقد عكس عنترة دهاء الأرقم وشدة نقمته بقوله:

عساكَ تَمْنى مِنْ أراقمِ أرْضِنا   بأرْقَمَ يُسْقي السمَّ من كلِّ مَنْطِفِ[(١)]

ولم يقتصر اسم الأرقم على نوع من الحيات، فهناك أقوام سميت بهذا الاسم، وذلك لشبه عيونهم بعيون الأراقم، ومن تلك الأقوام: بنو بكر وجشم ومالك[(٢)]، وبعكس ذلك تأثر العرب بغيرهم من الأمم في طوطمية الحيوان، فرأوا في الاسم هوية لقوتهم وصمودهم وبقائهم. فقد قال عمرو بن كلثوم مخاطباً الهذيل بن هبيرة الثعلبي مشيراً إلى انتسابه الأول في بني نهد بن زيد بن ليث :

هلَكْتَ وأهْلَكْتَ العشيرةَ كُلَّها   فنهدُكَ نَهْدٌ لا أرى لك أرقما[(٣)]

وتعدى اسم الأرقم ليتصل بالأماكن سواء كانت أحياءً أو جبالاً، فقد تسمى حي من تغلب باسم الأراقم، وكان اسم الجبل الذي فيه كهف الفتية الذين آمنوا بربهم الرقيم.[(٤)]

الأسود:

السواد نقيض البياض، وسواد الناس عوامهم، ويقال للكلمة القبيحة سوداء، والسود سفح من الجبل مستدق في الأرض خشن أسود، أما السُّواد فهو وجع يأخذ الكبد من أكل الثمر، ويقال للأعداء سود الأكباد بسبب شدة عداوتهم، والأسودان: التمر والماء، ويقال للحَرَّة والليل الأسودان، وذلك لاسودادهما. ومن معاني الأسود العظيم الخبيث من الحيات، ويكون فيه سواد ويجمع على أسودات وأساود وأساويد، ويقال أسودُ سالخٌ غير مضاف، ويقال للأنثى أسودة ولا

مصطفى البابي الحلبي، مصر، ٣١/١، ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل: المخصص، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، بيروت، لبنان، السفر الثامن/١٠٨.

(١) الحيوان، ٣٠٧/٤، والبيت ليس موجوداً في ديوانه.

(٢) لسان العرب، مادة " رقم "، وينظر، الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٠.

(٣) ديوان عمرو بن كلثوم، ط:١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ص٤٨.

(٤) لسان العرب، مادة (رقم).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

توصف بسالخ كما هو الحال بالنسبة للمذكر، وقد سمي هذا النوع بالأسود السالخ بفعل سلخ جلده كل عام، ومن صفات هذا النوع اتباعه الصوت، وقتله المؤكد للشخص المصاب(١).

نعتقد للوهلة الأولى أن تسمية هذا النوع من الحيات بالأسود جاءت من لونه الذي هو ضد البياض، ولكنه إذا عقدنا مقارنة بين دلالات اللون الأسود ومعنى الأسود من الحيات، نجد علاقة ما بين الدلالات وطبع الحية السوداء، فهي لا تسر الناظرين، تماماً كالكلمة القبيحة التي لا تسر السامعين، والحية السوداء خشنة دقيقة كما هو حال سفح الجبل، وأكل التمر بكثرة يضر بالكبد، والسوداء تؤذي المرء الذي تتعرض له، ولا ينجو أبداً، ونستطيع القول إن الأسود كلمة يغلب عليها الصفة، فإذا ذكرت لفظة الأسود أو السوداء يتبادر إلى الذهن الحية الخبيثة العظيمة التي تتبع الصوت. قال حسيل بن عرفطة في هول منظر الأسود:

والضَّيْفُ عِنْدَك مِثْلُ أسودَ سالِخٍ لا بَلْ أحَبُّهُما إليكَ الأسْوَدُ(٢)

فقد خص الشاعر سلخ الجلد بالأسود دون غيره من أنواع الحيات، وقد فاقت كراهية الضيف أكثر من الأسود وصفاته كالخبث والمكر والدهاء. ولمن يقع ضحية للأسود ولا ينجو، قال عنترة الطائي:

أترجُو حياةً يا ابن بشْرِ بن مسهِرٍ وقد عَلِقَتْ رجلاك في ناب أسودا(٣)

وفي سلخ جلد الأسود قال جابر بن حني التغلبي:

يَرى النَّاسُ مِنَّا جِلْدَ أسْودَ سالِخٍ وَفَرْوَةَ ضِرْغامٍ مِنَ الأُسْدِ ضَيْغَمِ(٤)

وهناك من سمي باسم الأسود مثل الشاعر الجاهلي الأسود بن يعفر النهشلي، ومن الأسماء

---

(١) لسان العرب، مادة (سود)، وينظر: تاج العروس مادة (سود)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩. ٧. حياة الحيوان الكبرى، ٣٧/١. المخصص، ١٠٧/٨.

(٢) الحيوان، ٢٤٦/٤.

(٣) المصدر نفسه، ٣٠٨/٤.

(٤) الضبي، المفضل: المفضليات، تحقيق أحمد شاكر، عبد السلام هارون، ط٣، دار المعارف، ١٩٦٤، ص٢١٢، وينظر، قول خداش بن زهير في جمهرة أشعار العرب، ص١٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الجاهلية كذلك سوادة وسويد.(١)

الأَصَم:

الصمم انسداد الأذن وثقل السمع، والصماء من الأرض الغليظة، والصم في الحجر الشدة، والصمّة الشجاعة، والصميم العظيم من كل شيء، ويقال للداهية صماء، وفي الحديث الفتنة التي لا تسكن، وذلك لشدة تناهيها في صممها، ولعدم سماع الأصم للاستغاثة، وهي كالحية الصماء التي لا تقبل الرُّقى، فالأصم من الحيات لا يقبل الرقية كأنه قد صم عن سماعها، وقيل صماء للحية التي لا تقبل الرقى، والصمّة الذكر من الحيات، وجمعه صمم، ومنه سمي دريد بن الصمة.(٢)

ومن هنا جاءت دلالة الاسم مطابقة لدلالة المعاني المادية المتمثلة بالأرض الغليظة، والشدة في الحجر، فالاسم يدل دلالة واضحة على صفة الحية، وهي عدم التجاوب مع الراقي، وفي هذا قال عنترة الطائي:

أصَمَّ جِباليٍّ إذا عضَّ عضـَّــةً	تزايــــَلَ عنه جلــدُهُ فتبــدَّدا
بِسلْعِ صَفَاً لم يَبْدُ للشَّمس قَبْلَها	إذا ما رآه صاحب اليَمِّ أُرْعِدا(٣)

الأفعى:

فعا فلان شيئاً ما، أي فتته، والأفعى من الحيات لا تبرح بل تبقى مترحِّية، ويعني ترحيها استدارتها على نفسها وتحويها. والأفعى حية عريضة إذا مشت متثنية بثنيتين أو ثلاثة تمشي بأثنائها تلك حسناء ويجرش بعضها بعضاً، فالجرش حك ودلك، وهو العدو البطيء، ولا تنفع معها رقية، وهي رقشاء رقيقة العنق عريضة الرأس. وسمي ذكر الأفاعي أفعوان، ويقال للرجل الذي يسعى في الشر يفعى، فالفاعي هو الرجل الغضبان المزبد، ولم يقتصر هذا الاسم على هذا

---

(١) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: الاشتقاق، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، منشورات مكتبة المثنى، بغداد ، ١٩٧٩، ص٩٤، وينظر الحية في حياتنا وتراثنا، ص٣٩.

(٢) لسان العرب، مادة (صمم)، وينظر تاج العروس، مادة (صمم)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩. الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧٠.

(٣) الحيوان،٣٠٨/٤، وينظر، ديوان المتلمس الضبعي. شرح وتحقيق محمد التونجي. ط١، دار صعب، بيروت، ١٩٩٨، ص١٤٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحيوان، بل تعداه إلى تضاريس الأرض، فهناك هضبة سميت باسم الأفعى، وهي في بلاد بني كلاب.(١)

هناك علاقة واضحة بين دلالة الفعل فعى، وبين نتيجة لدغ الأفعى، ففي لدغها تفتيت لعزيمة الشخص المصاب، وقتل لقوته المعنوية والمادية.

قال تأبط شراً:

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ سُمّاً، كما أط ـــرَقَ أفعى ينفُثُ السمَّ صِلُّ (٢)

يظهر من البيت أن الأفعى ساكنة هادئة غير متنقلة تعتزم الشر لأنه من طبيعتها. وقد حذر أبوذؤيب الهذلي قائلاً:

فلا تُتْبِعِ الأفْعى يديكَ تَنُوشُها وَدعْها إذا ما غَيَّبَتْها سَفاتُها(٣)

ومن العرب من سمي بالأفعى، أو كني بأبي الأفعى، وذلك تيمناً بقوتها واعتقادهم أنها نصر على العدو، ومنهم عدي بن معقل الذي ذكره امرؤ القيس بن عدي الكلبي:

أبلغ أبا أفعى عدي بن معقـــــل وقد كنت مشولَ الرمحِ إذ غابِ معشري(٤)

الأيم:

هي المرأة التي لا زوج لها بكراً كانت أو ثيباً، وكذلك من الرجال، وسميت الحرب مأيمة لأنها تقتل الرجال، وتترك النساء بلا أزواج، وفي الحديث أرض جزر مجدبة مثل الأيم، فقد شبهت الأرض بالحية لملاستها. والأيم الحية الأبيض اللطيف، والأيم صفة للذكر والأنثى، ومن

(١) لسان العرب، مادة (فعا) ، وينظر، تاج العروس، مادة (فعى)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧٠، حياة الحيوان الكبرى١/٤١، المستطرف في كل فن مستظرف،١/١١١، المخصص، السفر الثامن، ص١٠٧.

(٢) تأبط شراً، شعره، تحقيق سليمان القرغولي، وجبار جاسم، ط١، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٣، ص١٦٣.

(٣) ديوان الهذليين، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥، ١/١٦٣.

(٤) شرح ديوان امرئ القيس، ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام ويليه أخبار النوابغ وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، تحقيق حسين السندوبي، المكتبة الثقافي، بيروت، ١٩٨٢، ص٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهم صفات هذا النوع أنها لا تضر أحداً.[1]

نلاحظ علاقة واضحة بين دلالات الاسم المادية والمعنوية، فالمرأة التي لا زوج لها تكون حياتها ضعيفة هشة، والأرض المجدبة ضعيفة لا قيمة لها، ويسهل السير عليها بلا عوائق، واللون الأبيض رمز السلام والوداعة، لذلك اكتسبت الحية الأيم صفة اللطافة فهي لا تضر، ولا تؤذي أحداً.

قال أبو كبير الهذلي:

ولقد وردتَ الماءَ لم يَشْربْ به   بين الرَّبيعِ إلى شهورِ الصَّيِّـفِ

إلا عَوَاسِــلُ كالمِراط مَعِيدةٌ   باللّيـــل مَوْرِدَ أيِّمٍ متغضِّــفِ[2]

الثُّعْبان:

يقال ثعب فلان الماء أو الدم يثعبه ثعباً إذا فجّره، وماء ثعْبٌ وثَعَبٌ وأُثْعوبٌ وأثْعبانٌ: سائل، ويقال لمسيل الوادي الثّعْب، وجمعه ثعبان. والثُّعبة نبتة يكون ورقها خشناً وساقها أغبر، وليس لها ثمرٌ، ومن معاني الثعبة نوع من الوزغ يطلق عليه سام أبرص، وهي دائمة الفتح لفمها، وتلدغ كل من يلاقيها، حتى لا يكاد يبرأ من تتعرض له. والثعبان الحية الضخم الطويل خاصة الذكر، ويكون لونه أصفر، أو أشقر، أو أحمر، وقيل إن نفخه يقتل [3].

فمن معاني ثعب فجر أو قاء، وهذا المعنى يتلاقى مع فعل الثعبان حين يلدغ الشخص، فهو يفرغ سمه بقوة في جسمه، ومن ناحية ثانية يكون السم سائلاً كما هو الأثعبان الذي يعني السائل، وكما أن الثعبة نبتة لا تحمل، فإن الأفعى كذلك لا تحمل الخير للشخص الذي تهاجمه، فالعلاقة واضحة بين الثعبان الحية الذكر، وبين باقي معاني ودلالات الألفاظ الأخرى، والتي تتلاقى في الوظيفة نفسها، أو الحدث.

---

(١) لسان العرب، مادة (أيم)، وينظر، تاج العروس، مادة (أيم)، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧٠. المخصص، ٨/ ١٠٩.

(٢) ديوان الهذليين،٢/١٠٥.

(٣) لسان العرب، مادة (ثعب)، وينظر، تاج العروس، مادة ثعب، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠، حياة الحيوان الكبرى، ٢٤٣/١، المستطرف في كل فن مستظرف، ١١٩/١، المخصص، ١٠٩/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال حميد بن ثَوْر الهِلاليّ:-

فلما أتته أنشبتْ في خِشاشه زِماماً كثعبانِ الحَماطَةِ مُحْكَما[1]

ابنةُ الجَبَل:

الجبل وتدٌ للأرض، وسيد القوم وعظيمهم، وجبلة الأرض صلابتها، والجُبلة السَّنام، وجبلة الشيء طبيعته، ويقال للشيء القبيح جَبِل وجَبْل. وأما ابنة الجبل فهي الحية خاصة التي لا تجيب الراقي، وكذلك الداهية لثقلها كأنها جبل.[2]

نستطيع الربط بين الحية والجبل من إطلاق التسمية، فكما أن الجبل من الناس سيدهم وعظيمهم، فإن الحية عظيمة في عالم الحيوانات لقوتها وعنفها وطول عمرها، وهناك علاقة ما بين القبح والحية، فبعض الأمم رأت فيها القبح والشر، ومن أسماء الحية الداهية لأنها سبب الهم والحزن والأذى لدى المصاب، فالذي يصاب بمصيبة تشبه حاله بمن يصاب بلدغة حية، ويبقى الجبل مأوى الحية، فهي ابنته.

الحُبَاب:

من معاني الحُباب الحُبُّ، ويقال أحبَّ البعير إذا برك، فالإحباب هو البروك، والإحباب في الإبل عدم الثورة، ويقال للبعير إذا أصابه مرض أو كسر أحبَّ. وأما الماء الجاري على الأسنان فيقال له حِببٌ، والحَبُّ هو الزرع، والحُباب أول الري، والحية، وهي اسم شيطان، لأنه يقال للحية شيطان.[3]

فالحباب اسم حية، وكذلك اسم شيطان، فما يميز الشيطان سرعة أدائه وحركته وكذلك الحية.

---

(١) ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ص٩٣.

(٢) لسان العرب، مادة (جبل)، وينظر، تاج العروس، مادة (جبل)، النيسابوري، أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الغالي: ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، تحقيق أبي الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة ١٩٦٥، ص٤٢٣.

(٣) لسان العرب، مادة (حبب)، وينظر، تاج العروس، مادة (حبب)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩، المخصص، ١١٠/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال علقمة مشبهاً فرسه بالحباب:

وراح يباري في الجنابِ قَلُوصَنا عزيزاً علينا كالحُبابِ المُسيَّبِ (١)

الحَمَاطِيط:

حمط: قشر، والحماطة خشونة تكون في حلق المرء، ومن معانيها سواد القلب، ونوع من العشب تألفه الحيات إذا يبس، وشجر عظام تألفه الحيات، وهو شجر التين الجبلي. الحماطيط حيات مفصَّلة بحمرة يشبه بها تفصيل البنان بالحناء، وهي منقوشة بألوان شتى.(٢)

تبدو العلاقة واضحة بين دلالات الاسم مادياً ومعنوياً، فخشونة الحلق أمر مكروه لما لها من ضيق وأذى للمرء، وهذا يتشابه مع سواد القلب الذي يكن صاحبه الشر للآخرين، والحية بألوانها المختلفة تسبب عدم الوضوح، خاصة عندما تلجأ إلى الأشجار المفضلة لديها، الأمر الذي يجعل خطرها داهماً للمرء، الذي قد لا يراها بألوانها المشاكلة لألوان الأشجار.

الحَنَش:

حنش: صاد، والحنش حية أبيض غليظ مثل الثعبان، وقيل كذلك الأسود، وقيل أيضا ما أشبهت رؤوسه رؤوس الحرابي. وأبو حنش كنية رجل، وبنو حنش بطن، والمحنوش من تلدغه حية، وكذلك من يساق كرها. والحنبشة المشي والتصفيق والرقص، والحنفيش الحية العظيمة الضخمة الرأس الرقشاء، والحنش كذلك ما يصاد من الحيات.(٣)

فالعلاقة واضحة بين اسم الحية، ودلالة الفعل، وهي عملية اللدغ، فاللدغ خاصية في الحية، فالفعل حنش : صاد، والحية تحرص كل الحرص على الصيد وعلى اللدغ، والمحنوش هو الواقع تحت تأثير الفعل. وفي هذا قال شاعر جاهلي:

لا هُمَّ إنْ كان أبو عمروٍ ظلَـمْ وخانني في عِلمه وقــد عَلِـــمْ

---

(١) ديوان علقمة، شرح سعيد نسيب مكارم، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ص٢٠.

(٢) لسان العرب، مادة (حمط)، وينظر، تاج العروس (حمط).

(٣) المصدر نفسه، مادة (حنش)، وينظر، تاج العروس، مادة (حنش)، الاشتقاق، ص٤٣٧، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩، حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٧٩، المخصص، ٨/١١٠، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فابعثْ لَه بعضَ أعْراضِ اللَّمَـمْ لميمةً من حَنَشٍ أعمى أصـــمْ[1]

الخشاش:

من معاني خشَّ طعن، ودخل في الشيء، ومضى ونفذ، ويقال رجل مخش أي ماضٍ جريء على هوى الليل، ورجل خِشاش وخَشاش إذا كان حاد الرأس ماضياً خفيفاً. و"الخشاش" ثعبان عظيم منكر، وهي نوع من الحيات الخفيفة الصغيرة الرأس، ويقال: إنها حية صغيرة سمراء أصغر من "الأرقم". ومن معاني الخشاش الشِّرار من كل شيء. وسمي الخِشاش بذلك لانخشاشه في الأرض واستتاره فيها، ومن المعاني كذلك الغضب، والخشخشة حركة لها صوت يشبه صوت السلاح.[2]

فمعاني الكلمة المتشابهة تتلاقى جميعها مع صفة الحية، حيث يظهر الأمر واضحاً بينها وبين طبع الحية، فالفعل خش ومعانيه دخل ومضى ونفد، والمشتق مخش جريء، فالحية الخشاش تدخل بيتها بسرعة كبيرة، وذلك لخفتها، ولصوت حركتها التي تسمع، ومن صفات الحية الخشاش العنف والشراسة.

الدَّاهِيَة:

الدّهاء العقل، ويقال للرجل العاقل المنكر البصير بالأمور رجل داهيةٌ، والداهية الأمر المنكر العظيم، وهي من شدائد ومصائب الدهر.[3] فإذا ربطنا بين معنى الحية الداهية وبين ما سبق من معان، فإن الحية تستحق هذه التسمية، لأنها خبيثة في تعاملها مع الإنسان خاصة إذا ما حاول الراقي التعامل معها، فهي تسبب الضرر والشر والمصيبة للشخص الذي يقع فريسة لها. وقد ربط كثير من الشعراء بينها وبين الدهر[4].

الرَّقْشَاء:

---

(١) الحيوان، ٢٨٣/٤.

(٢) لسان العرب، مادة (حنش)، وينظر، تاج العروس، مادة (حنش)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠، حياة لحيوان الكبرى، ٤١٥/١، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧١.

(٣) لسان العرب، مادة (دها)، وينظر، تاج العروس، مادة (دهى).

(٤) ينظر الحيوان: ١٤٦/٤، شعر زيد الخيل، تحقيق أحمد مختار البزرة، ط١، دار المأمون للتراث، ١٩٨٨، ص١٧٠، المفضليات، ص٣٨٩، ديوان أوس بن حجر، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧، ص٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرَّقش لون فيه كدارة وسواد، ومن المعاني الخط الحسن، والترقيش الكتابة والتنقيط، وكذلك المعاتبة والنّم، والتحريش وتبليغ النميمة. وترقيش الكلام زخرفته، ويقال للمرأة تزينت إذا ترقشت، والحية الرقشاء فيها نقط سواد وبياض. وسميت الحية الرقشاء بهذا الاسم لوجود ترقيش مكون من خطوط ونقط في ظهرها.(١)

نلاحظ تشابهاً بين الدلالات المادية والمعنوية للفعل رقش، واسم الحية، حيث نجد العلاقة واضحة بينهما، فالحية الرقشاء لها لون مركب، يزينها وينمقها، وكذلك الكتابة فيها الخطوط والنقط، وأما النميمة فتؤدي إلى الفساد والفتنة، وهي عدم وضوح الشيء بين الأشخاص من أمور وقضايا، وهذا ما يتسم به لون الرقشاء من عدم الوضوح التام بين الأشياء، فاسمها جاء من طبيعة لونها.

قال النابغة الذبياني:

فَبِتُّ كأنّي ساورتني ضئيلةٌ   من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ ناقع(٢)

فاختار الشاعر أن تكون حيّة رقشاء رقيقة جداً، لما لها من صفات القوة في الهجوم على الفريسة.

الرَّقْطَاء:

الرُّقطة سواد يشوبه نقط بيضٍ أو بياض يشوبه نقط سود، ويقال ترقط الثوب إذا رش عليه مداد أو غيره من السوائل فصار فيه نقط.

ويقال للنمر أرقط بسبب طبيعة لونه، ويقال للفتنة رقطاء لتلونها، وسمي حميد بن هلال الأرقط لوجود آثار في وجهه، وقد قيل كذلك للحية الرقطاء.(٣)

إذا أخذنا القاسم المشترك لدلالات الكلمة وجدنا تشابهاً مع ما أُطلق على الحية من لفظة رقطاء، فالحية التي يسودها لون أبيض وأسود تشبه لون النمر الأرقط، ومن طبع الحية الشر

---

(١) لسان العرب، مادة (رقش)، وينظر، تاج العروس، مادة (رقش)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠.

(٢) ديوانه، ص٥٣.

(٣) لسان العرب، مادة (رقط)، وينظر تاج العروس، (رقط).

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والدهاء، وهذا يتشابه مع الفتنة، حيث التشابه مادي ومعنوي. وتعطي لفظة الرقطاء للأنثى أو الأرقط للذكر صفة غالبة على الاسم، وذلك بفضل اللون.

قال شاعر جاهلي يصف حية رقطاء:

أسْمَرَ زَحّافاً من الرُّقْطِ العُرُمْ قد عاشَ حتى هُوَ لا يَمْشي بدَمْ[١]

ابنةُ الرَّمْل:

سميت الحية بهذا الاسم نسبة إلى الرمل، الذي من معانيه نوع من التراب، ويقال رمّل فلان الثوب، أي لطخه بالدم، ورمل فلان السرير، أي زينه بالجوهر، ورمل الرجل أي أسرع في مشيته، وهز منكبيه، والمِرْمل قيد صغير، والرَّمل خطوط تكون في يدي البقرة الوحشية ورجليها، بحيث تخالف سائر لونها، والرُّمل خطوط سود تكون على ظهر الغزال وأفخاذه، والرُّملة الخط الأسود.[٢]

فيلاحظ مما تقدم أن معاني لفظة رمل تمت بصلة إلى الحية، فالرّمل مأوى الحية من ناحية، ومن ناحية أخرى فإن لون الحية المركب يتشابه مع لون الثوب الملطخ بالدماء، والسرير الملون بألوان عدة، وألوان البقرة الوحشية والغزال، فالعلاقة واضحة بين لدغ الحية ولون الدم. ومن صفات الحية أنها تسرع كما يسرع الرجل ويهز منكبيه كما تتلوى، فمن هنا جاءت تسمية الحية بابنة الرمل موافقة لمعاني الرمل المختلفة، خاصة انه مكان سكنها. وقد صور الشنفرى نفسه قائلاً: (فإمّا تَرَيْني كابْنَةِ الرّمْلِ ضاحياً)[٣]

السَّف:

سفف: أكثر، ويقال أسفَّ فلان الجرح دواء إذا حشاه به، وأُسِفَّ الوجهُ إذا تغير لونُه، ويقال كذلك لسواد اللثة السّفوف، والسُّفة ما تصنعه المرأة في شعرها ليطول، والإسفاف شِدة النظر وحدته، والسَّفسافة ريح تجري فوق الأرض، والسفساف الدقيق من التراب، والمسفسف اللئيم، والسَّفسَف ضرب من النبات، والسَّفيف اسم من أسماء إبليس، والسَّف نوع من الحيات

---

(١) الحيوان، ٢٨٣/٤.

(٢) لسان العرب، مادة (رمل)، وينظر، تاج العروس مادة (رمل).

(٣) ديوان الشنفرى، تحقيق إميل بديع يعقوب، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦، ص٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يطير في الهواء[1].

هناك علاقة واضحة بين الحية من حيث طبيعتها وباقي الدلالات لكلمة سف ومشتقاتها، فسف الدواء في الجرح يشبه تماماً تفريغ الحية سمها في الفريسة، وتغير الوجه بسبب ما يشبه تغير لون من تلدغه الحية، وهناك الحية السوداء التي يشبه سوادها سواد اللثة، وسواد الشعر، ونظرها شديد القوة، ومن صفات هذا النوع قفزها في الهواء قليلاً، كما تجري الرياح، ويبقى التراب الذي هو غذاؤها إذا عدمت غيره، والحية نوع من أنواع الجن كما أن السف نوع من أنواع الشياطين.

قال المعطل الهذلي في رثاء عمرو بن خويلد:

جواداً إذا ما الناسُ قلَّ جَوادُهمْ   وسُفَّاً إذا ما صَرَّحَ الموتُ أقْرَعا[2]

الشُّجَاع:

شجع: اشتد عند البأس، والشجاعة شدة القلب في البأس، والأشجع من الرجال من كان به جنون، ويقال للناقة السريعة الخفيفة شجعة، ومن معاني الشجع الطول، والشّجعة الرجل الطويل المضطرب، والزمن.

والأشجع أو الشجاع ضرب من الحيات، دقيق، طويل، مرقش الظهر، والشجعم هو الضخم من الحيات، خبيث مارد. زعمت العرب أنه إذا طال جوع المرء تعرضت له حية في بطنه يقال لها الشجاع.[3]

تشترك دلالات الاسم من شدة وسرعة وخفة وطول وزمن مع طبيعة الحية، فهي شديدة البأس قوية، سريعة المشي، خفيفة بحركتها، طويلة، لا تموت إلا بعارض، فهي خالدة مع الزمن. ومن الشعر الذي يدل على شدة البأس والتصميم، قول المتلمس:

---

(١) لسان العرب، مادة (سفف)، وينظر، تاج العروس، مادة (سفف)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠، المخصص، ١١١/٨، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧٢.

(٢) ديوان الهذليين، ٤١/٣.

(٣) لسان العرب، مادة (شجع)، وينظر، تاج العروس، مادة (شجع)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩، حياة الحيوان الكبرى، ٥٩٦/١. المخصص، ١٠٨/٨، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٤٢٤، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ، ولو يَرى   مَساغاً لنابَيْهِ الشُّجاعُ لَصمَّما[1]

وأما شجاع البطن الذي زعمت العرب بوجوده فقال عنه أبو خراش الهذلي:

أرُدُّ شُجاعَ البَطْنِ قد تَعْلَمينَه   وأُوثِرُ غيري من عِيالِكِ بالطُّعْمِ[2]

وقد امتد تأثير الجاهلية إلى العصور اللاحقة، فهناك من سمي بالأشجع كالشاعر العباسيّ أشجع السلمي، وهناك بنو شجعٍ الذين هم بطن من عذرةَ[3].

الشَّيْطان:

شطن عن: بعد عن، والشطن الحبل الطويل الشديد الفتل، ويقال للبئر الملتوية العوجاء بئر شطون. والحرب الشطون التي تكون شديدة عسرة، والشاطن هو الخبيث البعيد عن الحق. وأما الشيطان فهو كل عات متمرد سواء كان من الجن أو الإنس أو الدواب، وقد سمت العرب بعض الحيات شيطاناً، لكون هذا النوع له عُرْفٌ قبيح المنظر، وتسمى الحية الدقيقة شيطاناً وجاناً، وأورد ابن منظور حديثاً للرسول (ص): (حرجوا عليه، فإن امتنع، وإلا فاقتلوه فإنه شيطان)[4].

إن المتأمل لدلالة الكلمة، يتبين التقاءها مع طبيعة الحية، فهي طويلة ملتوية في جريها كحال الحبل والبئر، وشديدة عسيرة كالحرب، شريرة كالمبتعد عن الحق القريب من الشر، قبيحة المنظر، مؤذية معنوياً ومادياً للإنسان. وصف طرفة بن العبد امرأةً فقال:

تُلاعِبُ مَثْنى حَضْرَميٍّ كَأَنَّهُ   تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ[5]

ذات الصَّفا:

يقال للعريض من الحجارة الأملس الصَّفا، والصَّفاة الصخرة الملساء، وهو حجر صلب

---

(١) ديوانه، ص١٤٣.

(٢) ديوان الهذليين، ١٢٨/٢.

(٣) الإشتقاق، ص ٢٧٥، وينظر الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٠.

(٤) لسان العرب، مادة (شطن) ، وينظر، تاج العروس، مادة (شطن)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩، ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص٤٢٢.

(٥) ديوانه، تحقيق رحاب خضر عكاوي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٣، ص١٥٦، وينظر، الحيوان، ١٣٣/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ضخم لا ينبت عليه شيء[1]. لقد نسبت الحية بهذا الاسم إلى الصخر، كونها تلجأ إليه، فتكتسب صفة القوة منه.

قال النابغة الذبياني:

كما لَقِيَتْ ذاتُ الصفا من حليفها وما انْفَكَّتِ الأمْثالُ في النَّاسِ سائره[2]

الصَّفر:

من معاني الصفر داء في البطن يسبب اصفرار الوجه، وحية تلزق بالضلوع وتعضها وتؤذيها في حالة الجوع. والصُّفار صفرة تعلو اللون والبشرة، وأما الصفرية فهو نبات خريفي[3].

هناك علاقة بين الحية، وباقي الدلالات، فلدغة الحية للشخص تعرضه لاصفرار الوجه خوفاً ورعباً، وقد زعمت العرب بوجود حية في البطن تعمل على عضه إذا جاع صاحبه.

قال أعشى باهلة:

لا يغمزُ الساقُ من أيْنٍ، ومن وَصَبٍ ولا يعض على شرسوفه الصَّفَرُ[4]

الصِّل:

يقال صل اللجام، أي احتد صوته، ويصلصل كل باجس، فيقال للفرس حاد الصوت صلصال، وللحمار الوحشي صَّال، وصلصال، وبهذا يراد الأجسام الصحيحة الشديدة الأصوات لقوتها ونشاطها. ويقال لكل ما جف من الطين صلال ومصلال، ومن معاني الأصلال السيوف الحادة القاطعة، ويقال للإبل صلّت إذا يبست أمعاؤها من العطش وسمع لها صوت عند الشرب. والصّلة الجلد اليابس قبل الدباغ، وكذلك الأرض اليابسة. ومن المعاني كذلك المطرة المتفرقة القليلة.

---

(١) لسان العرب، مادة (صفا) ، وينظر، تاج العروس، مادة (صفو).

(٢) النابغة الذبياني: ديوانه، تحقيق سيف الكاتب، أحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٩، ص٤٧.

(٣) لسان العرب، مادة (صفر)، وينظر، تاج العروس، مادة (صفر)، حياة الحيوان الكبرى، ٦١٧/١.

(٤) الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب: الأصمعيات، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣، ص ٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والصّل الحية التي تقتل إذا نهشت من ساعتها، وهي لا تنفع فيها الرُّقية، فيقال للرجل الداهية: إنه لصل أصلال[1].

يتبين لنا من خلال المعاني السابقة اشتراكها في الصوت، خاصة في الأشياء القوية الصحيحة، فينتج الصوت من مصدر قوي، وبالتالي يعكس تناسباً طردياً بين شدة الصوت وقوة مصدره، وهذا يتقاطع مع طبيعة الحية القوية التي تسبب القتل كما يسبب السيف القتل، ومن صفاتها فشل الراقي في التعامل معها وذلك لقوتها وشدة إرادتها في التحدي.

قال النابغة الذبياني:

ماذا رُزِئْنا به من حيةٍ ذَكَرٍ نَضْناضَةٍ بالرزايا صلٍّ أصلالِ[2]

الضّئيلة:

الضئيل هو الصغير الدقيق الحقير، والنحيف، ويتضاءل الشيء في حالة انقباضه وانضمامه إلى بعضه بعضاً، والضؤولة الهزال، والضئيلة الحية الرقيقة[3].

يتبين من خلال المعاني أن تسمية الحية بهذا الاسم نابع من الحجم، فلو كانت الحية ضخمة لما سميت بهذا الاسم، ولكن الرقيقة فقط تسمى بهذا الاسم.

قال النابغة الذبياني:

فَبتُّ كأني ساورتني ضئيلةٌ من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُ ناقع[4]

ويتبين من ذلك أن النوع أهم من الحجم، فرغم صغر حجمها، إلا أن سمها فعال جداً.

ذو الطفيتين:

---

(١) لسان العرب، مادة (صلل)،. وينظر، ثمار القلوب في المضاف المنسوب، ص٤٢٣.

(٢) ديوانه، ص٦٩.

(٣) لسان العرب، مادة (ضأل)، وينظر، (تاج العروس)، مادة (ضأل)، حياة الحيوان الكبرى، ١/٦٥٠.

(٤) ديوانه، ص٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طفا الشيء فوق الماء، أي ظهر وعلا، ويقال مرّ الظبي يطفو إذا خفّ على الأرض، وكان سريع العدو. والطُّفاوة دارة الشمس والقمر، ويقال للنبت الرقيق الطَّفوة. والطفية الحية اللينة الخبيثة القصيرة الذنب، ويقال لها الأبتر. وذو الطفيتين حية لها خطان أسودان على ظهرها يشبهان الخوصتين(١)، ورد في قول الرسول (ص): " اقتلوا ذا الطفيتين والأبتر"(٢).

هناك علاقة واضحة بين مدلولات الكلمة وبين تسمية الحية بهذا الاسم، فالحية خفيفة سريعة الجري والقفز، فهي واضحة في قفزها تماماً كما يعلو الشيء الطافي على سطح الماء. فالطفية قصيرة لينة خبيثة، وهذه الصفات مجتمعة تؤهلها للجري السريع والقفز العالي، والظهور من بين الأشياء خلال ذلك. وما يجعل ذات الطفيتين واضحة ظاهرة الخطان الأسودان اللذان يظهران في أعلى ظهرها، وهذه التسمية أقرب إلى الصفة منها إلى الاسم.

قال أبو ذؤيب الهذلي:

عفت غَيْرَ نُؤْيِ الدار لأياً أُبينُهُ ... وأَقطاعِ طُفْيٍ قد عَفَتْ في المعاقل(٣)

العِرْبِد:

العربد الأرض الخشنة، والعربد سوء الخلق، والرجل المعربد هو الذي يؤذي نديمه في سكره، والرجل العربد الشرير، والعربيد السَّوَّار في السُّكْر. ومن معاني العربد كذلك الحية الخفيفة، والحية التي تنفخ ولا تؤذي، والذكر من الحيات، وحية أحمر أرقش بكدرة لا يظلم إلا إذا تعرض للأذى.(٤)

تظهر العلاقة واضحة بين الدلالات المادية المتمثلة بخشونة الأرض، وإيذاء الآخرين جسدياً، والدلالات المعنوية المتمثلة بسوء الأخلاق، وبمن يتصف بالشر، فالرجل الذي سِكر يؤذي نديمه حقاً، ويجلب له سوء العاقبة، وتضطرب حركاته ولا يتصف بالاتزان النفسي

(١) لسان العرب مادة (طفا)، وينظر، تاج العروس، مادة (طفا)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠. حياة الحيوان الكبرى، ٦٦١/١، المخصص، ١٠٩/٨.

(٢) الألباني، محمد ناصر الدين: صحيح الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٨٨، ١: ٢٥٥.

(٣) ديوان الهذليين، ١٤٠/١.

(٤) لسان العرب، مادة (عربد)، وينظر، تاج العروس مادة (عربد)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧٢. المخصص، ١٠٧/٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعقلي والجسمي، وهذا ما يتصف به العربد من حركة غير متزنة، فهو سريع الجري، شديد الأذى لمن يعترضه، وهذه الحية تؤذي بنفخها نفسياً حيث تسبب الرعب والقلق.

قال مالك بن حريم لعمرو بن معد يكرب:

فلقيتَ مِني عِرْبِداً يقْطو أمامَ الخيلِ قَطْوَا[١]

يظهر من البيت أن الشاعر ركز على صفة الجري السريع، الذي يتميز به هذا النوع من الحيات.

العَرِم:

من معاني الفعل عَرَمَ اشتد، لذا يقال للخبيث والشرير رجل عارم، ومن المعاني أيضا رضع، فيقال للطفل اعترم ثدي أمه، أي مصَّه.

والعرام الشدة والقوة والشراسة والأذى، والأعرم الدهر، وذلك لتلونه، والعَرِم السيل الذي لا يطاق، والعريم الداهية. والعَرَم والعُرْمة لون مختلط بسواد وبياض في أي شيء كان، وقيل كذلك تنقيط بهما من غير اتساع، وكل نقطة عرمة، وغلبت العرماء على الحية الرقشاء، ففيها نقط سود وبيض[٢].

فالمتأمل للمعاني السابقة يتبين له من خلال دلالاتها المادية والمعنوية قاسم مشترك ينحو منحى السلبية، وهذا ما يقترب من طبيعة الحية التي لا تدخر جهداً في الاعتداء على غيرها من القوارض، أو مهاجمة عدوها كالإنسان، فهي شديدة خبيثة شريرة مؤذية، فهي كالدهر الذي لا أمان له، وهي مؤذية ومدمرة كالسيل الذي لا يبقى ولا يذر، ومن حيث الفعل فهي تعض، وتلدغ لتفرغ سمها في جسم الفريسة، وهذا ما يشبه عملية الرضاعة التي تعتمد على تفريغ الحليب.

قال معقل بن خويلد الهذلي:

---

(١) الحيوان٦/٤٧٤.

(٢) لسان العرب، مادة (عرم)، وينظر، تاج العروس، مادة (عرم)، الاشتقاق، ص٤٨٩-٤٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رؤوسَ الأفاعي في مَرَاصِدِها العُرْمِ[1]

الغُول:

غال: أهلك، والغول المنية، فيقال قتل فلان فلاناً غيلة أي قتله في اغتيال وخفية، ويقال كذلك لكل ما يهلك الإنسان غول، والغول الحبس، والتغول التلون، فالمرأة تتغول أي تتلون، ومن معاني الغول السّعْلاة، وذكر ابن منظور حديث الرسول (ص): "عليكم بالدُّلجة، فإن الأرض تطوى بالليل، وإذا تغولت لكم الغيلان، فبادروا بالآذان، ولا تنزلوا على جودّ الطريق ولا تصلوا عليها، فإنها مأوى الحيات والسباع، أي ادفعوا شرها بذكر الله". ومن معاني الغول شيطان يأكل الناس، فكل ما يغتال الإنسان من جن أو شيطان أو سبع غول. ومن معاني الغول بعد المفازة، لأنه يغتال من يمر به. ويقال امرأة ذات غول، أي طويلة، لذلك تغول الثياب فتقصر عنها. ويقال كذلك للمنطقة المنخفضة من الأرض غول، والغول أيضا الصداع والسُّكر، والمشقة والخيانة، والذكر من الجن، ويقال كذلك غول لساحرة الجن، والحية، والجمع أغوال[2].

نلاحظ من معاني الغول المتعددة اشتراكها في معنى واحد، هو القتل والدمار والإهلاك، فالجن أو الشيطان أو السبع مخلوقات تؤدي إلى قتل الإنسان مادياً أو معنوياً، كما هو الحال بالنسبة للشيطان الذي يؤدي بالإنسان إلى الانحراف والدمار. وبُعد المفازة يؤدي إلى الضياع، والموت وسط بيئة خالية من مقومات الحياة، وأما التلون، فإنه يسبب ضياعاً للون الأصلي للشيء وعدم معرفة الأصل من الفرع. والصداع والسُّكر فهما غيبوبة للعقل الصحيح، وفي هذا ضياع ذهني قد يؤدي أحياناً إلى التدمير والقتل وإيذاء الآخرين.

فهذه المعاني والدلالات المتعددة تلتقي جميعها مع فعل الحية وهو القتل، فمن هنا جاءت تسمية الحية بهذا الاسم مناسبة لأنها مصدر خطر على غيرها من المخلوقات، فهي تقتل فريستها بضربة واحدة.

قال امرؤ القيس:

---

(١) ديوان الهذليين، ٣/٦٥، وينظر: الحيوان، ٢٨٣/٤.

(٢) لسان العرب، مادة (غول)، وينظر، (تاج العروس) مادة (غول)، الاشتقاق، ص١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أيقتُلني والمشرفيُّ مُضاجعي ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغْوالِ[١]

فاتخذ الشاعر الأغوال مجالاً لتصوير شدته وقوته، لأنها مصدر التهديد والقتل، ولا ينفع معها شيء.

المَخَارِيط:

الخرط هو تقشير ورق الشجرة ولحائها، ويقال للرجل الذي يؤذي الآخرين: خرطهم، ويقال: انخرط الصقر إذا انقض على فريسة، وأما الفرس فيقال له انخرط في سيره أي لج، وخرط اللبن أي أن يكون بالضرع داء فيخرج اللبن متعقداً، أو يخرج معه ماء أصفر، واخروطت الشركة في رجل الصيد، أي علقتها فاعتقلتها.

والإخرواط في السير المضاء والسرعة، والإخريط نبات ينبت في الصحراء وله قرون، ولونه أصفر، ودقيق العيدان والخرطيط فراشة منقوشة، الجناحين، ويقال للجسم انخرط إذا دق، والمخراط الحية التي تسلخ جلدها في كل سنة[٢].

يتضح من خلال دلالات الكلمة المادية مناسبتها لأن تطلق على الحية لفظة المخراط، لان الحية تسلخ جلدها كل سنة مرة واحدة كما يقشر لحاء الشجرة، وتؤذي الآخرين، وكما ينخرط الصقر على الفريسة تقفز الحية وتتبع أحياناً فريستها، وكما تقع الفريسة في شرك الصيد، يقع الشخص حين تلدغه الحية في شركها، هذا ويتشابه لون الحية المركب مع لون الفراشة، الأمر الذي يجعل هذه اللفظة صفة للحية وليس اسماً لها.

قال المتلمس الضبعي:

إنِّي كساني أبو قابوسَ مِرْفَلَةً كأنَّها سَلْخُ أبكارِ المَخاريطِ[٣]

النضناض:

نضَّ الماء سال الماء قليلاً قليلاً، واستنض فلان الشيء أي حركه وأقلقه، والنضيضة

---

(١) امرؤ القيس: شرح ديوانه، تحقيق حسين السندوبي، المكتبة الثقافية، بيروت، ١٩٨٢، ص١٦٢.

(٢) لسان العرب، مادة (خرط)، وينظر، تاج العروس، مادة (خرط)، المخصص، ص١١١.

(٣) ديوانه، ص١١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السحابة الضعيفة، ويقال للإنسان القلق الذي لا يثبت لنشاطه نضناض، ومن معاني النض الإظهار، وحركة اللسان والأمر المكروه، والنضنضة صوت الحية، وتحريك لسانها، ويقال للحية نضناض ونضناضة، ومن صفات هذه الحية أنها تقتل الشخص إذا نهشته من ساعتها، ولا تستقر في مكان محدد، وهذه الصفات للذكر(١).

إذا ربطنا بين دلالات الاسم وجدنا قاسماً مشتركاً بينهما، وهو الحركة، وهذا ما يتناسب مع الحية، فهي لا تستقر في مكان محدد، لأنها دائمة الحركة، وهذا ما يتطابق مع المثل الشعبي: " مكان العقرب لا تقرب، ومكان الحية افرش ونام "، ومن ناحية الأمر المكروه، فالحية مكروهة بشكل عام، لما تسببه من ضرر، والحية تصدر صوتاً كذلك خاصة إذا ما واجهها شخص ما، وبذلك جاءت التسمية مناسبة، لأنها تعكس طبيعة الحية في حركة جسمها، وحركة لسانها، وصوتها.

قال شاعر جاهلي:

حتَّى دَنَا من رَأْسِ نضناضٍ أصم		فخاضه بين الشِّراكِ والقَدَمْ(٢)

الهَزَلَى:

الهَزَلُ نقيض الجد، ونقيض السِّمَن، واسترخاء الكلام، والفقر، ويقال للأرض الرقيقة مهزولة، وقالت العرب للحيات الهزلى(٣).

يتبين من خلال معاني الكلمة أن تسمية الحية بهذا الاسم ناتجة من حجم جسمها المحدود، والتي تعتمد التراب طعاماً لها في حالة عدم توفر فرائس لها. ومن ناحية أخرى تترك لدغة الحية آثاراً سلبية على الشخص الملدوغ، مثل اعتلال الصحة، والموت.

قال ثمامة الكلبي:

كأنَّ مَزَاحِفَ الهَزَلَى صباحاً		خُدُودُ رصَائع جُدِلَتْ تُؤاما(٤)

---

(١) لسان العرب، مادة (نضض)، وينظر، تاج العروس، مادة (نضض)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠، الحيوان في الأدب العربي، ص٣٧٣.

(٢) الحيوان، ٢٨٤/٤.

(٣) لسان العرب، مادة (هزل)، وينظر، تاج العروس، مادة (هزل).

(٤) الحيوان، ١٧٥/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الأسماء الأخرى للحية، الأبتر، وذلك نسبة إلى ذنبه القصيرة، وهذا النوع خبيث أزرق. والأخزم، وله صفتان بارزتان هما الخبث والغضب، والأصيلع، وذلك لوضعية رأسه، ودقة عنقه، فكأن رأسه بندقة. والأعيرج، وهي حية صماء لا تقبل الرقية، ولقوتها قد تثب حتى تصير مع الفارس، وجمعها الأعيرجات. وتسمى الحية العجوز الأفنون[١].

وهناك الجانّ وهي (حية دقيقة ملساء لا تضر أحداً، يضرب لونها إلى الصفرة، وأهل الحجاز يسمون الأيم من الحيات الجان)[٢]، ويقال حية بيضاء، وكذلك الحية الصغيرة[٣]، قال تعالى: (فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا)[٤]. والجارن ولد الحية، والحر حية دقيقة، وهناك الحُرَفُ، لونه مظلم، وهو شديد جداً لدرجة أنه إذا أخذ شخصاً لم يبق فيه دمٌ إلا وخرج[٥]، ويسمى الذكر الضخم من الحيات الحِضْب[٦]. ويطلق على الحية الأحمر الدَّسَّاس، لونه كالدم، محدد الطرفين، لدرجة أنه يصعب على الناظر تحديد جهة رأسه، وجلده غليظ، ويسمى كذلك النكاز[٧]. ومن الأسماء الدَّوْدمس، محرنشف الغلاصم، والجمع الدواميس، وهناك الرقيب وهو خبيث، وجمعه الرَّقيبات والرُّقب. ويطلق على الحية الأغبر الأرقط الذي يتطوى ثم ينقز ابن قترة. وهناك القُدار، وهو ثعبان عظيم، والقرناء لها ما يشبه اللحمتين في رأسها، والقزة حية عرجاء. والقصيرى ضرب خبيث صغيرة الجسم. ويسمى فرخ الحية هلال، وقيل ضرب إذا سلخ فهو هلال[٨].

وللذكر كنى عديدة، منها أبو البحترى، أبو عثمان، أبو الربيع، أبو العاصي، أبو مذعور، أبو وثاب، أبو يقظان. وأما كنى الأنثى، فهي أم طبق، أم عافية، أم عثمان، أم الفتح، وأم محبوب[٩].

---

(١) الحيوان في الأدب العربي، ١/٣٦٩-٣٧٠.

(٢) المرجع نفسه، ١/٣٧٠-٣٧١.

(٣) حياة الحيوان الكبرى، ١/٢٦٠.

(٤) سورة النمل، آية ١٠.

(٥) الحيوان في الأدب العربي، ١/٣٧١.

(٦) حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٣٧. وينظر، الحيوان في الأدب العربي، ١/٣٧١.

(٧) المصدر نفسه، ١/٤٨٩، المخصص، ٨/١٠٩، الحيوان في الأدب العربي، ١/٣٧٣.

(٨) المخصص، ٨/١٠٩، وينظر، الحيوان في الأدب العربي، ١/٣٧٢-٣٧٣.

(٩) الحيوان في الأدب العربي، ١/٣٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ألوان الحية

كما تعددت أسماء الحية، تعددت ألوانها، الأمر الذي جعل اللون سبباً في تسمية الحية، فمنها الأَرْبَد، وهو ما كان لونه مختلطاً، أو يكون أسود أو رمادياً، أو أسود فيه نقاط، أو لون أسود فيه نقاط بيض أو حمر[1]. ووردت حية أربد في قول المهلهل ابن ربيعة التغلبي[2]، وقد خص الشاعر هذا اللون بالحزم والعزم في الخصومة، وبهذا نرى أن اللون كان سبباً في تسمية الحية، وكأن لطبيعة الأرض الصحراوية علاقة بوجود مثل هذا اللون.

وهناك اللون الأَرْقَط، وبه سميت الحية رقطاء، لتلونها بلونين[3]. فطبيعة الاسم نابعة من وجود لونين في الحية هما الأسود والأبيض اللذان يمثلان تضاداً لونياً ما بين التشاؤم والقلق من جهة، والهدوء والسلام من جهة أخرى، وهذا التضاد يعكس طبيعة الحية في حالة وجود عدو لها أم عدم وجوده، ويساعد هذا اللون الحية في الاختفاء بين موجودات الأرض في حالة تعرض شخص لها، وكأن اللون يعكس عدم الوضوح.

ومن ألوانها الرقمة، بحيث تكون الحية مرقمة بحمرة وسواد وكدرة، ويقال كذلك لما كان فيها سواد وبياض[4]. وواضح أن هذا اللون مركب يجمع لونين متضادين، هما الأبيض والأسود اللذان يشكل كل منهما وضوحاً للآخر، وقد أكثر الشعراء الجاهليون من ذكر هذا اللون في أشعارهم[5]، وذلك لطبيعته التي تعكس جانبين من الحياة، جانب الهدوء والطمأنينة، وجانب التشاؤم والقلق.

---

(١) لسان العرب، مادة (ربد)، وينظر، تاج العروس مادة (ربد).

(٢) شرح ديوان امرئ القيس، ص٢٣٤.

(٣) لسان العرب، مادة (رقط)، وينظر، تاج العروس مادة (رقط)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠.

(٤) لسان العرب، مادة (رقم)، وينظر، تاج العروس مادة (رقم)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠، الحيوان في الأدب العربي، ٣٦٩/١.

(٥) عنترة بن شداد: شرح ديوانه، تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، ط١، دار الكتب العلمية ، بيروت، ١٩٨٠، ص١٦٣، وينظر، ديوان دريد بن الصمة، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة، ص١٦٢، حميد بن ثور الهلالي: ديوانه، تحقيق محمد يوسف نجم، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ص٩٣، ديوان الشنفرى، ص٥٣، ديوان عمرو بن كلثوم، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والأسود أكثر الألوان وروداً لدى الشعراء الجاهليين[١]، وذلك لما يحدثه من أثر في نفسية السامع من قلق وريبة واشمئزاز. فالأسود العظيم من الحيات فيه سواد، وعرف العربي بالأسود[٢]، فكما اكتسب العربي لونه من البيئة الصحراوية الحارة، كذلك اكتسب هذا النوع من الحيات لوناً يتناسب مع هذه البيئة، وبهذا يظهر أثر البيئة جلياً في نوع من الحيات.

والحماطيط نوع من الحيات لونه مختلط من ألوان عدة [٣]، والرقشاء تتصف بلون الرقش الذي يكون فيه كدرة وسواد ونحوهما[٤]، وبذلك اكتسبت الحية اللون من طبيعة جسدها، وهذا يساعدها على الاختفاء بين الأشياء لعدم وضوح اللون تماماً. ورد هذا اللون عند أكثر من شاعر[٥]، ومن الألوان ذو الطفيتين[٦]، والعرم[٧]، والسمرة منزلة بين البياض والسواد[٨].

وبذلك تستفيد الحيات من ألوانها وأشكالها حين تختلط مع ألوان الوسط الذي تكون فيه، وتعرف هذه الطريقة بـ "الحماية بالتلون"، خاصة أن لون بعض الحيات يشبه ورق الشجر، وحيات الصحراء يشبه لونها لون الرمل الذي تعيش عليه وفيه[٩].

---

(١) ديوان النابغة الذبياني، ص٢٥، وينظر، الشماخ بن ضرار الذبياني، ديوانه، شرح وتقديم قدري مانو، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص١٠١، ديوان الشنفرى، ص٤٥، حسان بن ثابت: ديوانه، شرح يوسف عيد، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص١٠٠، جمهرة أشعار العرب، ص١٠٨، الأصمعيات، ص٦٠، المفضليات، ص٤٧، ٩٤، ٢١٢، الحيوان، ٤/١٥٢، ٢٤٦، ٣٠٨.

(٢) لسان العرب، مادة (سود)، وينظر، تاج العروس مادة (سود)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩.

(٣) المصدر نفسه، مادة (حمط).

(٤) المصدر نفسه، مادة (رقش)، وينظر، تاج العروس مادة (رقش)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠.

(٥) ديوان عدي بن زيد العبادي، تحقيق محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، ص١٥٩، وينظر، ديوان النابغة الذبياني، ص٥٣، ديوان الحطيئة، شرح يوسف عيد، ط١، دار الجليل، بيروت، ١٩٩٢، ص٢٢٣.

(٦) لسان العرب مادة (طفا)، وينظر، تاج العروس مادة (طفا)، فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠، الحيوان في الأدب العربي، ١/٣٧٢.

(٧) المصدر نفسه، مادة (عرم).

(٨) المصدر نفسه، مادة (سمر).

(٩) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٢٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جسد الحية

سبحان الذي جعل لمخلوقاته أشكالاً عدة، وأحجاماً مختلفة، وجعل لكل غايته في الحياة، فقال في كتابه: (وَاللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَابَّةٍ من مَّاء فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى بَطْنِه وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَى أَرْبَعٍ يَخْلُقُ اللَّهُ مَا يَشَاء إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ)[1].

ومهما اختلف شكل الحية من حيث الطول أو القصر أو اللون أو العمر، أو المنطقة التي تنتمي إليها، يبقى رأسها أهم أعضائها فهو الذي يمنحها القوة والعظمة في مقارعة أعدائها، فلولاه ما اختلفت عن باقي الزواحف، ففيه مادة الموت التي تقضي به على خصمها. فقد شبه فم الحية بفم الأسد من حيث فاعليته، هذا ولا يوجد في الرأس عظم قوي، ودليل ذلك أن عضها ليس شديداً، فهو جلد أطبق على عظمين رقيقين مستطيلين بفكيها الأعلى والأسفل، وتعرف الحية أن هذا الجزء أهم شيء فيها، لأنها تخفيه حين تتعرض لضربة شخص، فهو ضعيف جداً، وموضع قتلها[2]، ومن رؤوس الحيات ما يكون عريضاً، وله قرنان بناحية[3]، قال الشماخ في أكل العقبان الحيات:

ترى قِطَعاً من الأحناشِ فيهِ   جَماجِمُهُنَّ كالخَشَلِ النَّزيعِ[4]

وفي حوار بين الحية وشخص كان الرأس موضع اهتمام كل منهما فكان قول الحية على لسان النابغة الذبياني:

أبى ليَ قَبرٌ لا يزالُ مقابلي   وضربةُ فأسٍ فَوْقَ رأسي فاقِره[1]

---

(١) النور، آية ٤٥.

(٢) الحيوان، ٢٨٤/٥.

(٣) حياة الحيوان الكبرى، ٤٣/١، وينظر، فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩، المخصص، ١١١/٨، ص١٠٧. ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي: القانون في الطب، تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، ص١٢٧/٤،١١٨.

(٤) ديوان الشماخ بن ضرار الذبياني، شرح وتقديم قدري مانو، ط١: دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٤، ص٤٣، وينظر، الحيوان، ٢٨٤/٢.

فتبين أن القضاء على رأسها قضاء على حياتها. وممن أبدعوا في وصف رأس الحية شاعر جاهلي قال:

خُلِقَتْ لَهَازِمُهُ عِزِينَ وَرأسُهُ كالقرص فُلْطِحَ من طحينِ شَعِيرِ[٢]

فواضح من قول الشاعر أن تفرق أصول منكبيه جعل رأسه عريضاً مبسوطاً.

ويشبه رأس العصفور برأس الحية، (فليس في الأرض رأس أشبه برأس حية من رأس العصفور)[٣]، وذلك لدقته وصغره وأهميته.

ومن الشعراء من ركز على حركة رأس الحية كونه موطن الخطر لها ولغيرها من أعدائها، فلو لم يكن متحركاً لما كانت له أهمية تذكر، فبحركته تستطيع مناوشة العدو ومراقبته.

قال خالد بن زهير بن محرث لمعقل بن خويلد:

ولا تَبْعث الأفعى تُداوِرُ رَأْسها ودَعْها إذا ما غَيَّبَتْهَا سَفَاتُها[٤]

وقال الشماخ:

لكنتُ إذاً كالمُتَّقي رَأسَ حيَّةٍ بِحَاجتِهَا إنْ تُخْطِئِ النَّفْسَ تُعْرِجِ[٥]

فيظهر من خلال بيت الشماخ أهمية الرأس، فقتل الشخص أو التسبب له بعاهة ينبع من مكمن الخطورة والهلاك، فرأس الحية دائم الحركة، وهو خير رسول للشاعر معقل بن خويلد في تبليغ التهديد لعدوه[٦]. وعلى عكس الشعراء الذين وصفوا الرأس شديداً عنيفاً، وصف الشنفرى رأس الذكر الأيم ذليلاً متواضعاً في قوله:

---

(١) ديوان النابغة، ص٤٨.
(٢) الحيوان، ٢/٢١٤.
(٣) المصدر نفسه، ٥/٢٠٧.
(٤) ديوان الهذليين،١/١٦٢.
(٥) ديوانه، ص٣٤.
(٦) ديوان الهذليين، ٣/٦٥، وينظر، الحيوان، ٤/٢١٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وَوادٍ بعيدِ العُمْقِ ضَنْكٍ جُمَاعُهُ   مَرَاصِدُ أَيْمٍ قانتِ الرأسِ أَخْوفُ [1]

وحجم الرأس يحدد اسم الحية، فالحية الصغيرة الرأس الدقيقة العنق تسمى الأصيلع[2]، بينما تسمى ضخمة الرأس الحنفيش[3]. ويعد اللسان أهم جزء في رأس الحية من حيث الأداء الموكل إليه، وقدرته على الشم، وقد وصفت ألسنة الحيات بأنها سود، وألسنة الأفاعي بأنها حمر.[4] ولسان الحية مشقوق، وهذا ما جعل بعض الناس يظن أن لها لسانين[5]، وجعل بعض العرب يرى في ذلك عقاباً ربانياً لها، بسبب سماحها لإبليس بالدخول إليها من فيها[6]. ويعود الفضل لحركة لسانها التي لا تهدأ في اكتسابها اسماً جديداً، وهو النضناض[7]، وتسمى هذه الحركة لَظْلَظَة.[8]

قال عنترة الطائي يصف سواد لسان الحية وحركته:

رَقُودِ ضُحَيَّاتٍ، كَأن لِسَانَهُ   إذا سمِع الأجراس مِكْحَالُ أرْمَدَا[9]

فرأى الشاعر في حركة اللسان الخفيفة السريعة الدقيقة صورة المكحال الأرمد شديد السواد لكثرة استعماله، فلسانها دقيق في تحديد هدفها ، كما أن المكحال دقيق في تزيين العيون وتكحيلها. وللسان الحية جانب إيجابي في ضرب الأمثال الشعبية بين الناس، فإذا مدح الشخص خفيف الحركة، أو صاحب القدم اللطيفة في حركتها، قيل عنه: "كأنه لسان حية".[10]

وإذا انتقلنا إلى العيون التي تعد نافذة الكائن الحي على العالم الخارجي، نجد أن العرب تطرقوا إلى عيون الحية، فرأوا أن (الأفعى ليس بأعمى، وعينه لا تنطبق)[11]، ومن معتقدات

---

(١) ديوانه، ص٥٥.

(٢) الحيوان في الأدب العربي، ٣٧٠/١.

(٣) الحيوان في الأدب العربي، ٣٧١/١.

(٤) الحيوان، ٥:٢٠٧.

(٥) حياة الحيوان الكبرى، ١:٣٩٣، وينظر، الحيوان، ٥:٣٥٩.

(٦) الحيوان، ٤:٢٠٠.

(٧) المخصص، ١١٠/٨. وينظر، كتاب المعاني الكبير. ١٩٤٩، ٢:٦٦٥.الحيوان في الأدب العربي،١:٣٧٣.

(٨) الحيوان في الأدب العربي، ١:١١٢.

(٩) المصدر نفسه، ٤: ٣٠٨، وينظر، الحيوان في الأدب العربي، ٣٨٤/١.

(١٠) المصدر نفسه، ٤: ٢٥٠.

(١١) الحيوان، ١٧٩/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

العرب حول عين الحية أنها إذا فقئت تعود ثانية، ولا تغمض حدقاتها.[١]

وقد زعم العرب أن عيون الحية تضيء في الليل كالمصابيح[٢]، ومنهم من رأى أنها تسرج في الليل[٣]، ويرى بعضهم أن الحية عمياء، وهو اعتقاد راجع إلى ابتداء سلخ الحية جلدها من ناحية عيونها[٤].

أما لون عيون الحية فهو مختلف، فمنهم من رأى لون عيونها بين الزرق والذهبية[٥]، ومن رأى لونها أحمر[٦]، وأما حركة العين فهي (لا تدور في رأسها كأنها مسمار مضروب في رأسها)[٧]، وهذا ما ينفيه قول شاعر جاهلي:

ويديرُ عيناً للوِقاعِ كَأنَّها　　　سَمْراءُ طاحت من نَفيضِ بَرير[٨]

فيصف الشاعر حركة العين التي تستخدمها في تحديد هدفها.

وقال النابغة الذبياني:

مَهروتة الشدقين حَوْلاءَ النَّظَرْ　　　تفترُّ عن عُوجٍ حدادٍ كالإبَرْ[٩]

عبر الشاعر عن حركة عين الحية في اتجاهات عدة بالحول، وهذا ما يتعارض مع الزعم بثبات عيونها في رأسها. ومن الشعراء من رأى في نوع من الحيات العمى حيث وصف شاعر جاهلي الحنش بالعمي والصمم[١٠]، ليدلل على قوة تهديده لأن مثل هذا النوع لا يفرق بين الأشياء لعدم رؤيته لها.

---

(١) حياة الحيوان الكبرى، ١/٤١. وينظر، الحيوان، ٤/١٧٩.

(٢) الحيوان، ٤/١١٦.

(٣) المصدر نفسه، ٤/٢٢٩.

(٤) المصدر نفسه، ٤/٢٢٤، وينظر، المعاني الكبير، ٢/٦٧٢.

(٥) المصدر نفسه، ٥/٣٢٩.

(٦) القانون في الطب، ص١١٦.

(٧) حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٩٣، وينظر، المستطرف في كل فن مستظرف، ١/١١٢.

(٨) الحيوان، ٢/٢١٤.

(٩) ديوانه، ص٣٦.

(١٠) الحيوان، ٤/٢٨٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال عمرو بن شأس:

إياكَ، إياكَ أن تَمْنى بداهيةٍ رقشاء ليس لها سَمْعٌ ولا بَصَرُ[١]

وكأن شدة الحية وقوتها تتناسب طردياً مع فقدانها السمع أو البصر، حيث تتبع شدة الإيذاء من كبت محصور في عدم الرؤية. وتسمى الحية التي لها نقطتان سوداوان فوق عينيها ذات الزُبدتين[٢].

أما الأنياب التي تعتمد عليها الحية في أداء وظيفتها، فهي ضعيفة من حيث قدرتها على الحفر، وهذا ما تختلف به عن غيرها من بعض الحيوانات، فالنمل والذر مثلاً يقومان بذلك، ولكن ما يكفي الحية أن غيرها يحفر، وهي تسيطر على حفر غيرها[٣].

ومن مزاعم العرب في الناب أنه إذا (قلع عاد بعد ثلاثة أيام)[٤]، وإذا عُلِّقَ على من به حمى تزول عنه[٥]، و(إذا علق ضرس الأفعى الأيسر على من يشتكي ضرسه نفعه)[٦]، وتجرش الحية أنيابها بعضها ببعض في حالة مشيها متثنية[٧]، والحية واسعة الشّحو والفم، ولها خطم، ولهذا ينفذ نابها في فريستها، ولو كان في رأسها عظمٌ لكانت عضتها أشد وأقوى[٨]، وأنيابها مخلوقة في الفك مطبوعة فيه[٩]. ووصف بعض الشعراء قوة ناب الحية بالحديد، لما له من أثر سلبي في الجسد، فقال أمية بن أبي الصلت:

نابٌ حديدٌ وكفٌّ غيرُ وادعةٍ والخلقُ مختلفُ في القولِ والشِّيَمِ[١٠]

واتخذوه مثالاً للقوة والإيذاء كما ورد في بيت النابغة الذبياني حين وصف أنياب الحية

(١) الخليل، أحمد: الرؤية الجمالية في شعر الجاهلية وصدر الإسلام، رسالة ماجستير، جامعة حلب، ١٩٨٩، ص٧٨.

(٢) حياة الحيوان الكبرى، ٣٧٢/١.

(٣) الحيوان، ١٥٠/٤.

(٤) المستطرف من كل فن مستظرف، ١١١/١، وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ٤/١، ٣٩٣.

(٥) حياة الحيوان الكبرى، ٤٨/١.

(٦) المصدر نفسه، ٤٠٤/١.

(٧) فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩.

(٨) الحيوان، ١٥٢/٤.

(٩) المصدر نفسه، ٥٣/٤.

(١٠) ديوانه، تحقيق سجيع جميل الجبيلي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨، ص١١٦، وينظر، الحيوان، ١٨٧/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالإبر[١].

وقال شاعر جاهلي:

بمِذْرَبٍ أخرَجَهُ من جوْفِ كُـــمْ كأنَّ وَخْزَ نابِهِ إذا انتظَــمْ

وخزة إشفى في عطوف من أدم[٢]

فقد عبر الشاعر عن شدة وخز الناب في الفريسة، بشدة وخز المخرز في الجلد. وخير من صور حدة أنياب الحية عمرو بن شأس في قوله:

خشناء، شائكةُ الأنيابِ، ذابلة ينبو من اليُبْسِ، عن يافوخها الحجر[٣]

فصور طبيعة الأنياب من حيث قوة إيذائها لأنها تشبه الشوك في قوتها وإيلامها. وتعد الأنياب أكثر الأجزاء في جسد الحية وروداً في أشعار الجاهلين[٤]. ويسمى سم الحية الحمة، وذلك لشدته، وقوة حرارته في جسم المصاب، ويقال للمصاب محموم[٥]، وفي ذلك قال أمية بن أبي الصلت:

مِنْ خَلْفِها حُمَةٌ لولا الذي سَمِعَتْ قد كان ثبتها في جُحْرِهَا الحِمَمُ[٦]

ومن العرب قديماً من كان يذبح الحية، ويسلخها فيسيل لعاب من فيها، فيعتقد أنه السم، لدرجة أنها سالت قطرة منه علي ثياب الصيدلاني الذي قام بالعملية فتفشت في الثوب حجماً مقداره الدرهم، ولمس الموضع فتهافت[٧].

---

(١) ديوانه، ص٣٦.

(٢) الحيوان، ٤/٢٨٤.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٣٠٩.

(٤) ديوان النابغة، ص٥٣. وينظر الحيوان، ٤/١٥٢، ٢٧٠، ٣٠٨، ٢٨١، ١٨٧، شعر تأبط شراً، ص٧٧، ديوان المتلمس، ص١٤٣، ديوان حسان بن ثابت، شرح يوسف عيد، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢، ص١٠٠، ديوان امرئ القيس، ص١٦٢، شرح ديوان عبيد الله بن الأبرص، دار صادر بيروت، ص٨١.

(٥) المخصص، ١/١١٣، وينظر، الحيوان، ٢/٢٣٦.

(٦) ديوانه، ص ١١٥، وينظر، الحيوان، ٤/١٨٧.

(٧) الحيوان، ٤/١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأكثر ما يكون سم الحية فاعلاً في جسد المصاب في الصيف[١]، قال الشنفرى:

ويومٍ من الشِّعْرَى يَذوبُ لُعَابُهُ أفاعيهِ في رَمْضائِه تَتَمَلْمَلُ[٢]

ومن العرب من رأى أن الحية إذا عضت لم يكن هدفها النهش أو العض، لأن العض للأكل والابتلاع، أحيانا يكون حجمها كبيراً ولا سموم فيه، وبعضها لا يجرح[٣].

وما يميز لسع الحية الأنثى وجود مغارز لأكثر من نابين في مكان العض[٤]، وهناك من الحيات ما يجمع بين السم والجرح والعض والابتلاع وحطم العظم[٥].

وقسم العلماء شدة سم الحية ومفعوله في جسد المصاب إلى حالات تتفاوت بين الموت والحياة، فمنها ما يقتل خلال ثلاث ساعات ولا علاج للسعها، ومنها ما يؤدي إلى القتل[٦]. ومن معتقدات العرب في سم الحية، أنه مقيم في بدنها، وغير قاتل، ولكن إذا مازج بدناً لا يوجد سم فيه، فلا يقتله ولا يتلفه، بل يتلف الأجسام التي فيها سموم ممنوعة مما يضادها، فعند دخول سم الحية عليها، فإن السم الكامن يعاون السم الممنوع على مانعه، فإذا زال المانع تلف الجسم، وبهذا يكون السم الموجود بالجسم المنهوش هو السبب الأكبر في إتلاف الجسم[٧].

ومن الشعراء الذين صوروا شدة أثر السم في الجسم عبيد بن الأبرص الذي قال في محبوبته:

فقد أَوْرَثَتْ في القلبِ سُقْماً يَعُودُهُ عِيَاداً كَسُمِّ الْحَيَّةِ المُتَرَدِّدِ[٨]

فنتبين أن الإنسان الذي ينجو من موت لسعة الحية لا يشفى أبد الدهر، بل يبقى مفعول

---

(١) القانون في الطب، ٤/١١٥.

(٢) ديوانه، ص٧١

(٣) الحيوان ٤:١٤٨ وينظر، المخصص، ١/١١٢.

(٤) القانون في الطب، ٤/١١٩.

(٥) الحيوان، ٤/١٤٨.

(٦) حياة الحيوان الكبرى، ١/١٩٤. وينظر، القانون في الطب، ٤/١١٣.

(٧) الحيوان، ٥/٢١.

(٨) ديوانه، ص٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السم يعاوده خاصة في موعد الحادثة.ويبقى أثر الأنياب في الجسم طول حياة الشخص[١].

وقد وصف العرب شدة سم الحية، وشدة إجهازها ونفاده منها خلال عملية اللسع بأنه لم يبق في بدنها دم[٢]. وقال الشنفري:

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ موتاً كما أطـ ـرَقَ أفعى يَنْفُثُ السُّمَّ صِلُّ[٣]

وهذا يبين لنا أن الموت مصير من يأخذ السم طريقاً إلى جسده، وصور البيت تفريغ الحية سمها بالنفث. هذا وللسم درجات ومراتب في قوته وشدته، قال الحطيئة:

كأني ساوَرَتْني ذاتُ سَمٍّ نَقِيعٍ لا تُلائِمُها رُقَاها[٤]

وكأن السم النقيع هو الأشد في السموم، أو في حالات معينة تكون فيها الحية.

أما أذن الحية، فمن الحيات ما تكون ممسوحة غير ظاهرة، وهذا النوع يلد ويبيض، ومنها ما تكون ظاهرة، وهذا النوع يلد[٥]، وأما سمعها، فقد زعم العرب أنها أصم لا تسمع[٦]، لكن الشعراء يختلفون فيما بينهم حول سماع الحية أو عدم سماعها، أو درجة سماعها.

قال النابغة الذبياني:

تناذَرَها الراقونَ من سوءِ سمعها تطلقهُ طوْراً وطوْراً تراجع[٧]

فيلاحظ أنها تسمع، لكن هذا السمع ليس صافياً بل سيئاً، فهي التي تتحكم في حاسة السمع، وذلك بإرادة أمام الراقين.

أما أمية ابن أبي الصلت، فقال:

---

(١) الحيوان، ١٤٩/٤.
(٢) المصدر نفسه، ٤٠١/٦.
(٣) ديوانه، ص٨٥.
(٤) ديوانه، ص٢١٤.
(٥) الحيوان، ٢٣/٦.
(٦) المصدر نفسه، ١٧٨/٤.
(٧) ديوانه، ص٥٣

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا دعا باسمها الإنسانُ أو سَمِعَتْ   ذات الإلهِ بدا في مشيها رَزَمُ[1]

وتبيّن من البيت أن الحية تسمع خاصة إذا كان اسم الله وارداً، لأنها حين تسمع به، يبدو ضعف في مشيها.

أما شدقا الحية، فما يميزهما سعتهما[2]، وفي هذا قال شاعر جاهلي :

وكأنَّ شِدقيه إذا استعرضتَه   شِدقا عَجُوزٍ مَضْمَضَتْ لطهورِ[3]

فيدل ذلك على سعتهما ومرونة حركتهما وذلك لتسهيل عمليتي العض والبلع.

وما (أكثر ما يكون في أعناقها تخصير ...، وذلك الموضع المستدق إنما هو شيء كهيئة الخريطة، وكهيئة فم الجراب، منضم الأثناء، مُثَنَّى الغضون. فإذا شئت أن تفتح انفتح لك فم واسع)[4].

قال عنترة الطائي:

لهُ رِبْقَةٌ في عنقه مِنْ قميصِه   وسائِرُهُ عن مَتْنِهِ قد تَقَدَّدَا[5]

فكان وصف الشاعر وصفاً خارجياً، حين صور حبلاً على عنقه في حالة انسلاخ جلده عنه.

أما بطن الحية الذي يعد الجزء الأهم في الحية، فقد ورد في قول عدي بن زيد:

تَمْشِي على بَطْنِهَا في الدَّهْرِ ما عَمَرَتْ   والتُّرْبُ تَأْكُلُهُ حزْناً وإنْ سَهُلا[6]

فبطنها وسيلة المشي الذي لولاه لما تمكنت من الانتقال من مكان لآخر، وفي رواية بعض

---

(١) ديوانه، ص١١٦، وينظر، الحيوان، ٤/١٨٧.
(٢) الحيوان، ٥/٢١٤.
(٣) المصدر نفسه، ٢/٢١٥.
(٤) المصدر نفسه، ٤/١٥٣.
(٥) المصدر نفسه، ٤/٣٠٨.
(٦) ديوانه، ص١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحوائين أن لها حزوزاً في بطنها تقوم في حالة مشيها[١]. ويتميز ظهر الحية بطراوته وليونته الأمر الذي يساعدها على سرعة الحركة، فيرى الشماخ في الطريق التي تخلو من الوعورة في مرونته عند حركتها [٢].

ويعد الظهر الجزء الأقوى في الحية من حيث دوره في تقويتها، ومساندة الأضلاع –التي تبلغ ثلاثين ضلعاً بعدد أيام الشهر – وذلك في حالة حركتها[٣]. هذا ولا يسلم الإنسان من الحية، حتى بعد مماتها، فإذا وطئ على عظمها أصيب بمرض[٤].

اعتقد العرب أن دم الحية إذا اكتحلت به العين جلا بصرها[٥]، لكن كعب بن زهير قال:

تساقوا بماءٍ من بلادٍ كأنه　　　　دماءُ الأفاعي لا يُبَلُّ سَليمُها[٦]

وفي هذا القول ذم لدم الحية، خاصة التي لا يشفى سليمها، وإذا هرمت لا يبقى فيها شيء من الدم ولا ما يشبه الدم[٧]، وفي هذا قال شاعر جاهلي:

(قد عاش حتى هو لا يمشي بِدَمْ)[٨]

وصف جلد الحية بالجمال لشفافيته (فلا ثوب ولا جناح ولا ستر عنكبوت، إلا وقشر الحية أحسن منه وأرق، وأخف وأنعم، وأعجب صنعة وتركيباً)[٩]. وشبه سلخ الحية جلدها مثل البزول والقروح للخف والحافر، وقد تعددت الآراء فيما يخص المدة الزمنية لهذا السلخ، فهناك من يرى أنه يتم بعدد سنين كثيرة دون تحديد دقيق، وفريق يرى أنها تسلخ جلدها مرتين كل عام، مرة أول الربيع عند خروجها من أعشاشها، ومرة أول الخريف، وفريق ثالث يرى مرة واحدة خلال

---

(١) الحيوان، ٢٧٤/٤.
(٢) ينظر، ديوانه، ص١٠٢.
(٣) المستطرف في كل فن مستظرف، ١١٢/١. وينظر، الحيوان، ١١٨/٤، ٦٨/٧.
(٤) الحيوان، ١٢٥/٤.
(٥) حياة الحيوان الكبرى، ٤٨/١. وينظر، المستطرف في كل فن مستظرف، ١١٣/١.
(٦) ديوانه، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٦٨، ص ١٦٩.
(٧) الحيوان، ١٢٩/٦.
(٨) المصدر نفسه، ١١٩/٤، ص٢٨٣.
(٩) المصدر نفسه، ١٧٧/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الربيع أو الخريف[١]. وينتج عن عملية السلخ ضعف في جسد الحية لكنه يقوى بعد ذلك بفترة[٢]. وقيل إن الذي ينسلخ ليس الجلد، بل قشر يكون فوقه وهو غلاف يخلق كل عام[٣].

قال المرقش:

إنْ يَغْضَبُوا يَغْضَبْ لذاكم، كما   يَنسلُّ من خِرْشَائِهِ الأرقمْ[٤]

حيث بين كيفية سلخ الجلد، وهو الانسلال الذي يعكس بطئاً، وهذا ما يبقي على الجلد سليماً.

أما الجهة التي تبدأ الحية منها سلخ جلدها، فهي ناحية العيون ويستغرق ذلك يوماً وليلة[٥]. وتتفاوت نعومة الجلود أو خشونتها، فمنها ما يكون أملس[٦]، ويسمى هذا النوع الجان[٧].قال عنترة العبسي:

إن الأفاعي، وإن لانَتْ ملامسُهَا   عِند التَّقَلُّبِ في أنيابِها العطَبُ[٨]

وإن ملست ونعمت جلود الحية، إلا أن الأثر النفسي يبقى سلبياً[٩]. قال عمرو بن شأس:

لو سُرِّحت بالنَّدى ما مسَّها بَللٌ   ولو تكنَّفها الحاوون ما قَدروا[١٠]

وهذا يبين مدى ملاسة جلد الحية، الأمر الذي لا يبقى أثر للندى عليه، ومن الجلود ما

---

(١) الحيوان، ٢٢٣/٤، وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ٣١/١، ص٣٩٣، المخصص، ١٠٧/١، المستطرف في كل فن مستظرف، ١١١/١.

(٢) المصدر نفسه، ٢٦٨/٤. وينظر، بدوي، حسني محمد: الثعابين حيوانات أنيقة تبدل جلودها كالإنسان مع ملابسه، مجلة الكويت، العدد التاسع والثلاثون، السنة السادسة، ١٩٨٥، ص٦١.

(٣) المستطرف من كل فن مستظرف، ١١١/١.

(٤) الحيوان، ٣٤٠/٤، وينظر، المفضليات، ص ٢٤٠.

(٥) المعاني الكبير، ٢:٦٧٢، وينظر، الحيوان، ٢٢٤/٤.

(٦) فقه اللغة وسر العربية، ص١٧٩.

(٧) الحيوان في الأدب العربي، ٣٧١/١.

(٨) ديوانه، ص١٠.

(٩) ديوانه، تحقيق فوزي عطوي، الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٦٨، ص٢١٢.

(١٠) الحيوان، ٣٠٩/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يكون خشن الملمس، شديد الصوت إذا ما حك بعضها بعضاً[١]، ويشبه هذا الصوت صوت رحى تطحن الشعير[٢]، ومنها ما يكون غليظاً، بحيث لا يتأثر بالضرب[٣]، ويسمى الصوت إذا حك بعضها بعضاً كشيشاً أو حفيفاً[٤]. قال عمرو بن شأس يصف خشونتها:

خشناء، شائكةُ الأنيابِ ذابلة   ينبو من اليُبْسِ، عن يافوخها الحجَرُ[٥]

فإذا كان للمس جلد الحية الصخر أثر كبير، فكيف يكون لمسها الإنسان، فإنه سيتلاشى حسب هذا المعتقد والوصف. وقد وظف بعض الشعراء جلود الحيات للتعبير عن قوتهم، وقرنوها بفروة الأسد[٦]، وبجلد النمر تارة أخرى، قال خداش بن زهير:

ونحنُ إذا ما الخيلُ أدركَ ركْضَها   لبسنا لها جلدَ الأساودِ والنمرِ[٧]

وفيما يتعلق بحجم الحية فإنه يصغر كلما تقدمت بالعمر، وكذلك لم تعد تشته الطعام، ويصبح النسيم كافياً لها[٨].

قال النابغة الذبياني:

صلٌّ صفَا لا تنطوي من القِصَرْ   طويلةُ الإطراق من غير خَفَرْ

داهيةٌ قد صَغُرتْ من الكِبَـــرْ   كأنمـــا قد ذهبتْ بهــــا الفكَــرْ[٩]

وأما ذنب الحية، فإنه إذا قطع ينبت، وإذا قطعت من ثلثها، فإنها تعيش حينما لا يقترب

(١) المخصص، ١/١٠٨.

(٢) المعاني الكبير، ٢/٦٦٥.

(٣) المخصص، ١/١١١.

(٤) المصدر نفسه، ١/١١١.

(٥) الحيوان٤/ ٣٠٩.

(٦) المفضليات، ص٢١٢.

(٧) جمهرة أشعار العرب، ص١٠٨

(٨) الحيوان، ٤/١١٩. ص١٢٨، ٦/٥٦، ص ١٢٩.

(٩) ديوانه، ص٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الذر من جسمها[1].

وذنب الحية أضعف جزء في جسدها، وإذا أدخله القنفد في فيه أكله، واستولى ذلك على باقي الجسد[2]، وتسمى الحية مقطوعة الذنب الأبتر[3]، وإذا ضربت الحية، ولوت ذنبها تبغصصت وارتعصت[4].

وبيض الحية مستطيل أكدر اللون أخضر، وبعضه أرقش فيه نمش ولمع، والحية كثيرة البيض، ويكون منضداً في جوفها طولاً[5]، وعدد البيض الذي تبيضه ثلاثون بيضة، وذلك على عدد أضلاعها[6].

وللحية أصوات عديدة فمنها الصفير والنباح والضُّباح والحفيف والحدمة[7]. قال النابغة بن الجعدي:

فأرسل في دهمٍ كأنَّ حَنينَها   فحيحُ الأفاعي أعْجَلَتْ أن تحجرا[8]

و الفحيح صوت ناتج من جوفه، وكأنه صوت تنفسه الشديد[9].

أما حركة جسد الحية كله، فإنها تتنوع بتنوع الحيات، ومواجهة خصمها وسير خطها. فهي تتقلب بعد عملية العض[10]، وبعد عملية النهش، وبذلك يتوهم بعض الناس أن بانقلابها تفرغ سمها[11]. (عند التَّقَلُّبِ في أنيابها العطَب)[12].

---

(١) الحيوان، ٤/١١١، ٦/٥٤. وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١/٤١. المستطرف من كل فن مستظرف، ١/١١١.
(٢) المصدر نفسه، ٦/٢٧٤.
(٣) المخصص ، ص١٠٩. وينظر، الحيوان في الأدب العربي، ١/٢٦٩.
(٤) المصدر نفسه، ص١١١.
(٥) الحيوان، ٤/١٧٠.
(٦) المستطرف في كل فن مستظرف، ١/١١١، وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٩٣.
(٧) المخصص، ص١١٥.
(٨) جمهرة أشعار العرب، ص١٤٧.
(٩) المخصص، ص١١٥.
(١٠) الحيوان، ٤/١٢٤.
(١١) حياة الحيوان الكبرى،١/٣٩٣.
(١٢) ديوان عنترة، ص١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن الحيات ما تلتوي بعضها على بعض، أو يلتوي على ساق الشخص فتعمل على كسرها[1].

قال طرفة بن العبد يصف ناقة :

تُلاعِبُ مثنى حَضْرَمِيٍّ كأنّهُ   تَعَمُّجُ شَيْطانِ بذي خِرْوَعٍ قَفْرِ[2]

ومن الحيات ما يثب على الفارس فتقتله وتقوم على ذنبها[3]، والحية ليست بذات قوائم، فهي تنساب على بطنها، وتدفع أجزاءها، وحركتها ككل من ذات نفسها دليل قاطع على إفراط قوة بدنها[4].

قال أمية بن أبي الصلت:

كذى الأفْعَى تَرَبَّبَهَا لَدَيْهِ   وذي الجنِّيِّ أَرْسَلَهَا تُسَابُ[5]

وقال علقمة:

وراح يباري في الجنابِ قَلُوصَنا   عزيزاً علينا كالحُبابِ المُسَيَّبِ[6]

ونتبين من كل ذلك أن بطنها وسيلة تنقلها وسيرها على الأرض ولا بديل لذلك طوال حياتها[7].

وإذا كانت الحية تنساب وتزحف، فإنها تكون ماهرة في السباحة، وذلك على عكس التي تسير على جنب[8].

ومن الحيات ما تترحى، وترحيها استدارتها على نفسها وتحويها، وهذا النوع يمشي بثنيين

---

(١) المستطرف في كل فن مستظرف، ١/١١٩.

(٢) الحيوان، ٤/١٣٣.

(٣) المصدر نفسه، ٥/٢١٥، وينظر،حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٩، ص٥٩٦.

(٤) المصدر نفسه، ٤/١١٧. وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٩٣.

(٥) ديوانه، ص٢٥، وينظر، الحيوان، ٤/١٩٧.

(٦) ديوانه، ص٢٠.

(٧) ينظر حركة الحية في ديوان الهذليين، ٢: ٢٥، ٣: ٤٣، ٢: ١٠٥، وينظر، ديوان الشنفرى، ص٥٣، ديوان كعب بن زهير، ص٤٤.

(٨) الحيوان، ٤/١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أو ثلاثة بأثنائها[١].

قال السفاح بن بكير اليربوعي:

يَجْمَعُ حِلْمَاً وأناةً معاً   ثُمَّتَ يَنْبَاعُ انبياعَ الشجاعِ[٢]

والإنبياع يعني بسط الحية نفسها بعد تحويها لتثبت. وينوع كعب بن زهير في حركات الحية حين قال:

كأن شُجاعيْ رملةٍ درَجاً معاً   فمرًا بنا لولا وقوفٌ ومنزلُ[٣]

وهذه حركة جديدة للحية، وهي الدرج، وهي حركة متوسطة ما بين البطء والسرعة، ويعني ذلك سهولة في الحركة دون معيقات، ومن حركاتها وطريقة زحفها "القطو" وهي حركة سريعة تشير إلى نشاط الإنسان لتقارب خطاه[٤].

هذه هي حركات الحية وهي حية ترزق، أما بعد موتها، فكذلك لها حركة، فهي إذا قتلت فإنها تبقى تتحرك مدة ثلاثة أيام[٥].

---

(١) لسان العرب، فعا، ١٥/١٥٩.

(٢) الشيباني، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد: شرح المفضليات للتبريز، تحقيق محمد علي البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ٣/ ١١٢٥.

(٣) ديوانه، ص٤١.

(٤) الحيوان، ٦: ٤٧٤.

(٥) حياة الحيوان الكبرى، ١/٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الثالث

مواضع ورود الحية في الشعر الجاهلي

المبحث الأول: الحية والمرأة

المبحث الثاني: الحية والنبات

المبحث الثالث: الحية والجن

المبحث الرابع: الحية والرقية

المبحث الخامس: الحية والماء

المبحث السادس: الحية والأرض

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحية والمرأة

إذا بدأنا بالربط اللغوي بين لفظتي الحية وحواء، فإننا نجد علاقة واضحة بينهما في الدلالة المادية والمعنوية. فالحياة نقيض الموت، وحَيِيَ حياة، وحيَّ يحيا ويَحَيّ فهو حيٌّ. والحيُّ من كل شيء نقيض الميّت، وهو كل متكلم ناطق، ومن النبات الطريُّ المهتز، فيقال: أرض حية، أي خصبة، والحيا المطر[1]، حيث قال حميد بن ثور الهلالي:

بغير حيا جاءت به أرحبيَّةٌ أطال بها عامَ النِّتاج وأعظما[2]

ومن معاني الحيا الخصب، والحِيُّ جمع الحياة، والحيوان عين في الجنة. وماء فيها لا يصيب شيئاً إلا حيي بإذن الله.

أما الحوُّ فهو سواد يميل إلى الخضرة، أو حُمْرةٌ تضرب إلى السواد، فيقال: احواوَتِ الأرض، أي اخضرت، ويقال للمرعى الأخضر الأحوى، والحُوَّاء نبت يشبه لون الذئب، وحواء زوج آدم عليه السلام، وقد أطلقُ هذا الاسم على فرس علقمة بن شهاب، والحوُّ والحيُّ الحق. ومعنى الفعل حوى جمع وضم، فالحِواء اسم الذي يحوي شيئاً، أي يجمعه ويضمه[3].

فيظهر من خلال معاني كلمة "حَيَا" ودلالاتها، اشتراكها في معنى واحد، وهو الحياة، والخصب، واستمرارية الحياة، وكذلك دلالات مادة "حوا" التي تعني الخصب بكل قوة، وهذا يقودنا إلى الربط بين الحية وحواء، فكلاهما يتضمن الحياة، واستمراريتها وخصوبتها، فلفظ الحية مشتق من الحياة، ولفظ حواء يعني الاحتواء والجمع والضم والخصوبة، فهي تتمتع بالخصوبة التي تتضمن استمرارية الحياة، وكذلك الحية التي قيل إنها لا تموت إلا بعارض، وهناك من آمن بخلودها، والحيُّ فرج المرأة التي تفرز الحياة.

وللفظة "الحيّ" علاقة بدور الأمومة عند العرب، خاصة أن لهذه اللفظة علاقة بالحياة والدم، فيرى روبرت سميث أن إطلاق الألفاظ على معان اجتماعية دليل قاطع على الصلة التي كانت للأم في المجتمع القديم، ويقوده هذا إلى الاستدلال – من خلال معنى الحي– على وجود معنى الحياة في الكلمة الأصل، كما هو الحال في اللغات السامية، لذلك رأى فيها تمثيلاً لرابطة

---

(١) لسان العرب، مادة (حيا).

(٢) ديوانه، ص٩٢.

(٣) لسان العرب، مادة حوا.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

القرابة، وصلة رحم عند سائر العرب الساميين[١].

ويقودنا هذا إلى تناول صوت الميم في كلمة الأم الذي يعني الضم والجمع، خاصة أنه ورد في كلمة أم اللغة العربية والعبرية والإنجليزية، وهذا يؤكد على معنى الضم والاحتواء والجمع كما هو الحال بالنسبة لحواء التي تضم أفراد الأسرة، وقد دعا آدم زوجته حواء لأنها أم كل حيّ[٢]. ومما يثبت العلاقة بين الحية وحواء، نزولهما من الجنة إلى الأرض، حيث أهبط الله الحية بأصبهان، وحواء بجدة.[٣]

وفي اللغة العربية (ارتباط قديم بين القرنين والحياة والأنثى، التي وصلت بين القرن والحياة في الكلمتين: قرن وقران، ومما يستدعيه الميلاد من قران بين ذكر وأنثى، وبين تسمية الأنثى حواء، وتشارك الاسم مع الكلمة حياة)[٤].

كان للحية مع المرأة حضور غير قليل في أشعار الجاهليين، الذي تنوع ما بين رهبة ورغبة، وعكس صورة هذه الحية التي اختزنتها الذاكرة الجماعية عبر السنين. فتطرقوا إلى المرأة والحية على أساس من العلاقة الترابطية، فكان العرب (يصفون ذوائب النساء، فإذا بلغوا الغاية شبهوها بالأساود)[٥].

فهذا الشماخ بن ضرار يصف شعر صاحبته فيقول:

ماذا يَهيجُكَ من ذكْرِ ابنةِ الراقي　　　إذْ لا تَزالُ على هَمٍّ وإشفاقِ؟

قامتَ تُريكَ أثيثَ النَّبْتِ مُنْسَدِلاً　　　مثلَ الأساوِدِ قد مُسِّحْنَ بالفاقِ[٦]

وركز أكثر من شاعر جاهلي على شعر المرأة الأسود، وعلاقته بالحية السوداء، فهذا المزرد بن ضرار الذبياني يرسم لوحة جمالية لشعر محبوبته سلمى التي قال فيها:

وَبيضاءُ فيها لِلْمَخالِمِ صَبْوَةٌ　　　ولَهْوٌ لِمَنْ يَرْنُو إلى اللَّهْوِ شاغِلُ

---

(١) تاريخ العرب، ١: ٥٢٢.

(٢) سفر التكوين، الإصحاح الثالث/ ٧.

(٣) الأسطورة والتراث، ص٢٩.

(٤) المرجع نفسه، ص ٣٠٢.

(٥) الحيوان، ٤/ ٢٤٦.

(٦) ديوانه، ص٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لياليَ إذْ تُصبِي الحَلِيمَ بدلِّها وَمَشْيٌ خَزِيلِ الرَّجْعِ فِيه تَفَاتُلُ
وَعَيْنَيْ مَهَاةٍ في صُوَارٍ مَرَادُهَا رِياضٌ سَرَتْ فيها الْغُيُوثُ الهواطِلُ
وأسْحَمَ ريانِ القُرونِ كأنهُ أساوِدُ رَمَّانَ السِّباطُ الأطاوِلُ(١)

فرأى في الحية السوداء معادلاً لشعر محبوبته من حيث الطول واللون، خاصة أن حيات رمّان طويلة جداً، لينة، الأمر الذي يزيد شعر محبوبته جمالاً، وكأنه جمال غير آدمي، وهذا يعكس لاشعوراً متجذراً مريحاً تجاه جمال الحية السوداء الطويلة التي تمتاز عن غيرها، وكأنه لا شيء في الطبيعة يلتقي معها إلا شعر المرأة التي تتصف بصفات الجمال.

ويشارك المنخل اليشكري غيره في رسم صورة مماثلة، فيقول واصفاً شعر المرأة:

يَعْكِفْنَ مِثْلَ أساوِدِ الـ ـتَّنومِ، لمْ تعكفْ لِزَوْرِ(٢)

فهذه صورة تنم عن إعجاب الشاعر الجاهلي بشعر المرأة الأسود الطويل من خلال صورة الحية السوداء الطويلة اللينة. لكن هذا التصوير لا يمثل كل الشعراء الجاهليين، خاصة أننا نجد من يشكل صورة منفرة من المرأة التي يحذر منها، ومن صفاتها الجسدية التي لا تعكس صفات خلقية مرغوبة، فهذا جران العود يحذر من المرأة النوفلية قائلاً:

ألا لا تغرَّنَّ امرأً نَوْفَلِيَّةٌ على الرَّأس منها، والترائبُ وُضَّحُ
ولا فاحِمٌ يُسقَى الدّهانَ كأنَّهُ أساوِدُ يزهاها لعينِك أبْطَحُ(٣)

وكأنه أراد القول: إن جمال شعر المرأة الذي شبهه بالحية السوداء لا يجعل المرأة جميلة بصفة معنوية، فهذه صورة منفرة على المستوى النفسي لمثل هذه المرأة التي حملت شكلاً غير مريح. وقد جعل الحية هدفاً لإثارة التنفير من هذه المرأة، ومن كانت على شاكلتها.

ومن المواقف الجمالية التي شبه بها الشاعر المرأة بالحية، مشيها الذي يعكس جمالاً واتساقاً، فهذا تأبط شراً يصف امرأة قائلاً:

---

(١) المفضليات، ص٩٤.
(٢) الأصمعيات، ص٦٠.
(٣) الحيوان، ٤/ ٢٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإذا تَقُومُ فَصَعْدَةٌ في رَمْلَةٍ لَبَدَتْ بريقِ ديمَةٍ لم تغدَقِ
وإذا تجيء تجيء شحبٌ خَلْفَها كالأيمِ أصْعَدَ في كثيبٍ يرتقي(١)

وهذه صورة ايجابية، حيث تعكس جمال المرأة، وأثر مشيتها في نفسه، فصور مشيتها بحركة الحية الطويلة التي تصعد مرتفعاً، الأمر الذي يحدث تلوياً في جسمها، فهذه صورة بصرية نفسية تنعكس على صورة المرأة التي تزداد جمالاً بإقبالها.

وقد أكثر الشعراء الجاهليون من الصور التي تعكس جمالاً لحركة الحية، وذلك بتشبيه المرأة بها، فهذا المتنخل الهذلي يقول:

كالأيمِ ذي الطرة أو ناشئ الـ بردي تحت الحفاءِ المغيل(٢)

فلم يجد الشاعر معادلاً موضوعياً لحركة المرأة في جمالها إلا الحية الطويلة، ذات الطرف الطويل، التي تتلوى في مشيتها، الأمر الذي يعكس صورة بصرية تسر الناظرين.

وتطرق الشاعر الجاهلي إلى فراق محبوبته الذي يترك أثراً نفسياً سلبياً لديه، فرأى في فراق محبوبته له أثراً قاتلاً، حيث تتركه بخفة وسرعة تماماً كسير الحية ليلاً دون أن يراها أحد، قال الشاعر:

أتذهَبُ سَلْمَى في اللِّمامِ ولا تُرَى وفي اللَّيْلِ أيْمٌ حيثُ شاءَ يسيبُ(٣)

وهذا تصوير حالة المرأة التي تعمد لقاء المحبوب، وتحرص على السر، فجعل الشاعر حالتها كحالة الأيم الذي يخرج ليلاً، ويفعل ما يريد، وهو مطمئن إلى نجاته.

ومن الصور التي رسمها الشاعر -وهي منفرة- صورة للمرأة العجوز التي ظهر أثر الزمان عليها، فوجد الشاعر معادلاً موضوعيا في الحية، فقال شاعر جاهلي متخذاً من شدقي الحية ملمحاً يوحي بالهزل والضحك:

وكأنّ شِدقيه إذا استعرضتَه شِدقَا عَجُوزٍ مَضْمَضَتْ لطهورِ(١)

---

(١) شعره، ص١١٤.
(٢) ديوان الهذليين، ٢: ٤.
(٣) الحيوان، ٤/ ١٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فصور شدقي الحية وسعتهما وشكلهما بشدقي امرأة عجوز وقد أخذت تحركهما.

وتعددت الصور التي رسمها الشعراء الجاهليون للمرأة الحية، فمنهم من رسم صورة تنبئ عن حالة نفسية صعبة جداً، وقد جمع بين المادي والمعنوي في ذلك، فهذا عبيد بن الأبرص يصف أثر فراق محبوبته وبعدها عنه بأثر سم الحية في الجسم:

فقد أوْرَثَتْ في القَلبِ سُقماً يَعودُهُ عِياداً كَسُمِّ الحيَّةِ المُتَرَدِّدِ(٢)

وهي صورة ترجع المتأمل إلى مرحلة النعيم الفردوسي الذي كانت الحية سبباً في إخراج ابن آدم منه، وهنا يربط الشاعر ما يلاقيه من حزن وألم لفراق محبوبته بأثر سم الحية الشديد، خاصة أن فعل السم في الجسم يعود إليه في نفس موعد اللدغ. وبذلك نستطيع القول: إن الشاعر لا يزال يعاني الشقاء المادي والنفسي منذ أن كانت المرأة السبب في إنزاله من الفردوس إلى الأرض، فهذا الألم لم ينته.

وتتكرر الصورة نفسها لدى أكثر من شاعر جاهلي، الأمر الذي يدلل على وجود صورة جمالية مشتركة في اللاوعي الفردي للربط بين المرأة والحية، فهذا المثقب العبدي يقول:

تُلاقِي مِنْ تَذكُّرِ آلِ ليلى كما يَلْقَى السَّليمُ مِنَ العِدَادِ(٣)

فنلاحظ أثر فراق المحبوبة، وتذكرها أثراً قاتلاً في نفسية الشاعر، فلم يجد سوى سم الحية مخرجاً مهما طال الزمن.

ولا تسلم أشياء المرأة من دائرة العلاقة الترابطية مع الحية، فجمع الشاعر بين حلي المرأة وسم الحية، فكان العرب يرون أن تعليق الحلي وخشخشة الخلاخيل على السليم، مما لا يفيق ولا يبرأ إلا به(٤)، فقال النابغة الذبياني:

فبتَ كأني ساورتني ضَئيلةٌ من الرُّقشِ في أنيابها السُّمُّ ناقع

---

(١) الحيوان، ٢/ ٢١٥.

(٢) ديوانه، ص٦٦.

(٣) الحيوان، ٤/ ٢٤٩.

(٤) المعاني الكبير، المجلد الثاني، ٦٦٣-٦٦٤، وينظر بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/٣٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يسهدُ من ليل التِّمامِ سليمُها   لِحلْيِ النساءِ في يديهِ قعاقـــع[١]

فصور الشاعر حالته النفسية الصعبة بمن يتعرض للدغ الحية ثم لا يعرف النوم طريقـاً له، فيكون بهذه الحلي الخاصة بالمرأة أثر في تخفيف شدة السم في جسم المصاب، وكان الشاعر اعتقد بوجود علاقة خفية بين ممتلكات المرأة ونتائج لدغ الحية.

فهذه الصورة التي تعقد تلازمية بين أشياء المرأة، وأثرها في درء أثر الحية القاتل، يبين دوراً فعالاً إيجابياً لحلي المرأة التي اعتقد الإنسان الجاهلي بإيجابيتها، لدرجة أن الصورة نفسـها تتكرر عند أسباط الهذلي:

أرِقْتُ فلم تَطْعَمْ لي العَيْنُ مَهْجَعَا   وبِتُّ كما باتَ السليمُ مُقَرَّعَا

كأني سليمٌ نالَهُ كَلْمُ حيَّةٍ   تَرَى حَوْلَهُ حَلْيَ النِّسَاءِ مُرَصَّعَا [٢]

وقد جعل الشاعر رابطة تعكس ملمحاً جمالياً بين بعض ممتلكات المرأة كـذلك، ولسـان الحية، فقال عنترة الطائي:

رَقُودِ ضُحَيَاتٍ، كأن لِسانَهُ   إذا سمِعَ الأجرَاس مِكْحَالُ أرْمَدَا[٣]

فصور الشاعر حركة لسان الحية في سرعته، ودقة حركته، ونعومته بالمكحـال الـذي تستعمله المرأة لتزيين عينيها، وكأن الشاعر لم يجد في الطبيعة معادلاً موضوعياً للسان الحية إلا المكاحل التي تترك الجمال في عيون النساء.

ومن التشبيهات والصور المرتبطة بالمرأة والحية ما يوحي بالرهبة والقلق، ومنها حالـة الشاعر جران العود الذي خالف الآخرين حين صور حالته ونفسيته خلال لقاء محبوبتـه بمـن يواجه حية فيكون بحاجة إلى قدر من الحذر والحيطة، قال:

وكنتُ إذا لاقَيْتُها كان سِرُّنا   لنا بَيْننا مثل الشواء المُلـــهْوَجِ

---

(١) ديوانه، ص٥٣، وينظر، الحيوان، ٤/ ٢٤٨.

(٢) الحيوان، ٤/ ٢٤٨.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٣٠٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لكنتُ إذاً كالمُتَّقي رَأسَ حَيَّةٍ بحاجَتِها إن تُخطِئ النَّفْسَ تَعْرجِ[1]

فعمد الشاعر إلى تصوير مظهره الخارجي، فصور نفسه وهو يراقب بحذر ويقظة خوفاً من مصير مجهول من الآخرين، كالشخص الذي يحاول تجنب رأس الحية، لأنه سبب الموت ومدبره، وفي سرعة الحركة، وبالتالي لا بد من سرعة أدق في المراقبة، في أثناء لقاء محبوبته وإلا يكون مصيره مصير من يهمل اتقاء شر رأس الحية القاتل، وبالتالي يكون الموت الفعلي، والموت المعنوي للشاعر إذا ما تم كشف سره.

ويربط أحمد عبد الفتاح بين ليونة المرأة وملمسها الناعم بملمس الحية في بعض السياقات التي ترد فيها، فهما متشابهتان في الرقة والنعومة والدهاء والتلون والخديعة إذا لزم الأمر[2]، وذلك في قول عنترة:

إن الأفاعي وإن لانَت ملامسُها عند التَقَلُّبِ في أنيابها العطَبُ[3]

هذا وقد امتدت هذه الظاهرة إلى العصر الأموي، حيث بقي الشعراء (يصفون بطن المرأة الهيفاء الخميصة البطن، ببطن الحية. وهي الأيم. قال العجاج: وبطن أيم وقواما عُسْلُجا).[4]

بقيت العلاقة بين المرأة والحية قائمة في العصر الإسلامي، لكن اختلافاً شابها، فتحولت عكسياً، وذلك بفعل الشريعة الإسلامية التي رأت في القصاص حياة للأفراد، فقد روى (جوبير بن إسماعيل، عن عمه قال: حججت فإنا لفي وقعة مع قوم نزلوا منزلنا، ومعنا امرأة، فنامت فانتبهت وحية منطوية عليها، قد جمعت رأسها مع ذنبها بين ثدييها، فهالها ذلك وأزعجنا، فلم تزل منطوية عليها لا تضرها بشيء، حتى دخلنا أنصاب الحرم، فانسابت فدخلت مكة، فقضينا نسكنا وانصرفنا، حتى إذا كنا بالمكان الذي انطوت عليها فيه الحية، وهو المنزل الذي نزلناه، نزلت فنامت واستيقظت، فإذا الحية منطوية عليها، ثم صفرت الحية فإذا الوادي يسيل حيات عليها، فنهشتها حتى نقت عظامها، فقلت لجارية كانت لها: ويحك ! أخبرينا عن هذه المرأة.

---

(١) ديوانه، ص٣٤.

(٢) أحمد، محمد عبد الفتاح: المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧، ص١٩٩.

(٣) ديوانه، ص ١٠.

(٤) الحيوان، ٤/ ٣٠٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قالت: بغت ثلاث مرات، كل مرة تأتي بولد، فإذا وضعته سجّرت التنور، ثم ألقته فيه).[١]

فيظهر من الخبر أن الحية تحولت في بعض صورها من الجمالية والتوافقية مع المـــرأة، لتصبح عدوها الذي يفتك بها، وذلك بمشيئة الله.

وما يدلل على مثل هذه العلاقة تفسير الأحلام التي ترى فيها دلالة على الزنـــاة ولـــدغهم وطباعهم.[٢]

وطالما ربط الشاعر غير الجاهلي المرأة بالحية في أشعاره، فقد قال السعدي، وهـــو مـــن بني سعد:

مريضة أَثْناءِ التَّهـــادي كأنمـــــا   تخاف على أحشائهـــا أن تَقطَّعـــا
تسيب انسيابَ الأيِمِ أخْصَرَه النَّدَى   يرفِّع من أطرافه ما ترفَّعا[٣]

فوصف الشاعر المرأة ترفع بعض أجزائها، تماماً كانسياب الحية فـــي حركتهـــا. وهـــي صورة توحي بالجمالية، وتدل في أعماقها على الخصوبة التي كانت تتمتع بها المرأة باعتبارهـــا مقياساً لرفاهيتها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

---

(١) الحيوان، ٤/ ٢٥١.

(٢) ابن سيرين، محمد: تفسير الأحلام الكبير، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨، ص ١٧٣.

(٣) الحيوان، ٤/ ٢٥٩.

الحية والنبات

إن المتأمل لعلاقة الحية بالنبات يرجعها تاريخياً وجغرافياً إلى العهد الفردوسي، إذ كانت بداية الانطلاقة، وبعدها امتدت إلى الأرض بفعل هبوط أقطاب المعادلة المؤلفة من آدم وحواء وإبليس والحية.

كانت في الجنة شجرة حرم مسها أو الأكل منها على آدم وزوجته حواء، وذلك بهدف اختبار مدى قوة تحملهما وصبرهما. لكن هذه المقدرة لم تدم طويلاً، بسبب تدخل الحية وإغراء آدم وحواء للأكل منها، وكأن بداية علاقة الحية بالنبات بدأت في الجنة، الأمر الذي يجعلنا نشعر بعلاقة مقدسة بينهما لطيب شجر الجنة كما قال عدي بن زيد: (من شجر طيب أن شم أو أكلا)[1].

وعلى المستوى الأرضي، فإن الحية (تعجب باللفاح والبطيخ، وبالحرف، والخردل المرخوف)[2]. واللفاح (نبت عريض الورق، وله ثمر في حجم التفاح... فإذا نضج مال إلى حلاوة ما، ويسمى بالشام تفاح الجن، وأصله يتكون كصورة الإنسان بيديه ورجليه، ولذلك يسمى بالسريانية "يبروحا"؛ أي ينقصه الروح، ويسمى بالفارسية: "هزار كشاي"؛ أي يحل ألف عقدة)[3]، فمن خلال معاني اللفاح نستنتج صلة الحية بالجن والإنس.

وتظهر علاقة الحية بالنبات واضحة ، حيث ترى في الشجر مكاناً آمناً، فتلجأ إليه تستظل بظله مع بعض الطيور، لكنها أحياناً تتخذ منه نقطة انطلاق لتصل إلى عدوها الإنسان، روي (أن رجلاً قال تحت شجرة، فتدلت عليه حية منها فعضت رأسه، فانتبه محمر الوجه، فحك رأسه، وتلفت، فلم ير شيئاً، فوضع رأسه ينام، وأقام مدة طويلة لا يرى بأساً، فقال له بعض من كان رأى تدليها عليه، ثم تقلصها عنه وهروبها منه: هل علمت من أي شيء كان انتباهك تحت الشجرة ؟ قال: لا والله، ما علمت. قال: بلى، فإن الحية الفلانية نزلت عليك حتى عضت رأسك، فلما جلست فزعاً تقلصت عنك وتراجعت. ففزع فزعة، وصرخ صرخة، كانت فيها نفسه)[4]. فكما كان هدفها في الفردوس طرد آدم وحواء منها ومن نعمه، فقد حاولت استكمال مهمتها على

---

(١) ديوانه، ص ١٥٩.

(٢) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: عيون الأخبار، شرح يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، المجلد الأول، ٢/ ١١٢، وينظر، الحيوان : ٤ / ١١٠.

(٣) حاشية الحيوان، ٤ / ١١٠.

(٤) الحيوان، ٤/ ١٢٢. وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٣٩٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأرض، فلم يرق لها رؤية ابن ادم مرتاحاً تحت الشجرة.

لكن القول السابق لا يؤخذ بإطلاقه، إذ كان للحية دور وفضل في اكتشاف نوع من النباتات الأرضية التي تؤثر إيجاباً؛ فقد سجل لها السبق في إيجاد نبتة الريحان، قيل إن (الريحان الفارسي لم يكن قبل كسرى أنو شروان، وإنما وجد في زمانه، وسببه أنه كان ذات يوم جالساً للمظالم إذ أقبلت حية عظيمة تنساب تحت سريره فهموا بقتلها، فقال كسرى: كفوا عنها فإني أظنها مظلومة، فمرت تنساب فأتبعها كسرى بعض أساورته فلم تزل سائرة حتى استدارت على فوهة بئر فنزلت فيها، ثم أقبلت تتطلع، فنظر الرجل فإذا في قعر البئر حية مقتولة وعلى متنها عقرب أسود، فأدلى رمحه إلى العقرب ونخسه به، وأتى إلى الملك فأخبره بحال الحية، فلمّا كان في العام القادم أتت تلك الحية في اليوم الذي كان فيه كسرى جالساً للمظالم، وجعلت تنساب حتى وقفت بين يديه، ونفضت من فيها بزراً أسود، فأمر به الملك أن يزرع فنبت منه الريحان، وكان الملك كثير الزكام، وأوجاع الدماغ، فاستعمل منه فنفعه جداً)[١].

وبالمقابل هناك من النبات ما يكون وقاية من شر الحية، فيوضع تحت فراش الإنسان فيحميه منها.[٢] ومن النباتات ما تنفع عصارته من لسع الحية شرباً، وذلك كنبات الأترج[٣]، إضافة إلى شجرة بلسان التي ينفع حبها وعودها في مقاومة السموم ونهش الحيات، ويعمل ورق شجر البلوط إذا القي على حية، فإنها لم تستطع أن تسعى[٤].

ومن معتقدات الجاهليين أن من يعلق على نفسه كعب أرنب لا يقربه شيطان الحماطة، تلك الشجرة التي تأوي إليها الحيات، وهي شجرة التين.[٥] ومن أمثال العرب على ذلك: (ما هو إلا شيطان الحماطة)[٦]، وذلك في حالة رؤية الإنسان منظراً قبيحاً[٧]، والمقصود بشيطان الحماطة: الحية التي تلازم مثل هذه الأشجار.

وبذلك لم تستطع الحية الاستغناء عن الشجرة، أو تركها لابن آدم، وكأنها اقتسمت جزءاً

---

(١) المستطرف من كل فن مستظرف، ١/ ١١٢. وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٣٩٥-٣٩٦.

(٢) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، حسن الباش، ص٢٧٤.

(٣) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص٢٨٣-٢٨٤.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٨٥.

(٥) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٨١٣.

(٦) ثمار القلوب، ص٤٢٢.

(٧) المصدر نفسه، ص٤٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الطبيعة لها، ألا وهو الشجر الذي يمثل حياة بأكملها، فكما عمدت إلى شجرة الجنة التي كانت سبباً في بقاء آدم وزوجه فيها، أو تركها، فالقاسم المشترك بين الجنة والأرض الشجرة. والتي تبقى الشاهد على تحول آدم من النعيم إلى الشقاء بفضل تدخل الحية، فتمثل الشاعر الجاهلي العلاقة الحميمة بين الحية والشجرة فهذا حميد بن ثور الهلالي يقول:

فلما أتته أنشبت في خِشاشه　　　زِماماً كثعبانِ الحَماطَةِ مُحْكَما(١)

فشجرة الحماطة هي شجرة التين التي وردت في القرآن الكريم، التي أقسم الله بها، الأمر الذي لا يدع مجالاً للشك في سر هذه الشجرة التي كانت محور اهتمام الحية بالجنة، ولحقت بها إلى الأرض لتجعلها حصناً لها وليس لابن آدم.

ورأى بعض الشعراء في الحية قدرة سلبية ذات أثر في النبات ونموه، فهذا عمرو بن شأس يقول:

لا ينبتُ العشبُ في وادٍ تكونُ به،　　　ولا يجاوِرُها جِنٌّ ولا بَشَرُ(٢)

فتصوير الشاعر الجاهلي لقدرتها يفوق الأمور الطبيعية للحية باعتبارها حيواناً عادياً، ولطبيعتها البيولوجية، فالعشب لا ينبت، وكأن الشاعر قصد العشب دون الشجر الذي هو محور اهتمام الحية. فتكرار الصورة أكثر اختلافاً، فالمصير هو القحط، لأنها تسبب عدم الإنبات وخصوبة الأرض، وهي صورة قاتمة جداً. ومما يثير الدهشة والتعجب اعتقاد العرب بأن مرور الحية يحرق الأشياء من حولها(٣).

ومن معتقدات الشاعر الجاهلي تعاطف الشجر مع الحية، بحيث تخفيها من عدوها سواء الإنسان أو الحيوان، وهذا التعاطف يعكس ارتياح الحية للشجرة، خاصة أن الحية تشكل خطراً على من يحاول دهم الشجرة، فكأنها حارستها كما كانت حارسة الجنة المليئة بالأشجار، لذا صور أبو كبير الهذلي هذه العلاقة قائلاً:

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

---

(١) ديوانه، ص٩٣.

(٢) الحيوان، ٤/ ٣٠٩.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ١٥٥.

أم مَنْ يُطالِعهُ يقُلْ لِصحابه		إن الغَريفَ تُجنُّ ذاتَ القنْطر[1]

ومن المنافع التي تتحقق للحية من علاقتها بالشجر، اتخاذها شجرة كثيفة الأغصان عند لجوئها لسلخ جلدها، حيث يبدأ سلخه، ويتعلق المنسلخ منه بالفروع، فتفلت الحية، وتنطلق بعيداً.[2] وتتخذ من الأشجار ملجأً ومكمناً لها ترصد منها، فإذا ما رأت شيئاً ماراً وثبت عليه.[3]

وعلى المستوى الفني يربط الشاعر بين عين الحية وبعض ثمار الشجر، وبذلك يصمم الشاعر الجاهلي على إدامة العلاقة بين الحية والنبات، ولو على المستوى الجزئي، فقال شاعر جاهلي يصف عين الحية:

ويُديرُ عَيْناً للوِقاعِ كأنَّها		سَمْراءُ طاحت من نَفيضِ بَرير[4]

ومن المعتقدات الجاهلية أن بعض الحيات تجد الفائدة الطبية في نبات معين، فإذا (عميت أو خرجت من تحت الأرض لا تبصر طلبت الرازيانج الأخضر فتحك به بصرها)[5]، وبهذا يكون النبات الملجأ والمأمن والمكمن والدواء.

---

(١) ديوان الهذليين، ٢/ ١٠٤.

(٢) الثعابين، ص٦٤.

(٣) القانون في الطب، ص١٢٤.

(٤) الحيوان، ٢/ ٢١٥.

(٥) حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٣٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحية والجن

لعل ارتباط الحية بالجن في الفكر الجاهلي يرجع إلى قصة خروج آدم عليه السلام وحواء من الجنة، فكانت المحور الذي دارت حوله معتقدات العرب حول الحية والجن، خاصة أن إبليس نوع من أنواع الجن في المعتقد الجاهلي.

يرجع سبب خروج آدم من الجنة إلى الأرض، إلى الحية التي لعبت دوراً رئيساً في ذلك الحدث، فكانت حارسة الجنة، وجاء إبليس واستأذنها الدخول إلى الجنة، فسمحت له بذلك، فهذه الحادثة تعد أول ارتباط بين الحية والجن.

وقد تجلت العلاقة بين الحية والجن في عصا موسى عليه السلام، حين قال تعالى: "قَالَ أَلْقِهَا يَا مُوسَى، فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى، قَالَ خُذْهَا وَلَا تَخَفْ سَنُعِيدُهَا سِيرَتَهَا الْأُولَى "[(1)].

في هذا الموقف النفسي الآدمي الصعب (وقعت معجزة الحياة، فإذا العصا حية تسعى، وكم من ملايين الذرات الميتة، أو الجامدة كالعصا تتحول في كل لحظة إلى خلية حية، ولكنها لا تبهر الإنسان كما يبهره أن تتحول عصا موسى حية تسعى)[(2)]، والمعجزة الثانية التي وقعت تمثلت في (صورة سلب الحياة من الحية، فإذا هو جامد ميت)[(3)]. وسبب قوله تعالى لموسى "لا تخف" أن موسى (عرف ما لقي آدم منها)[(4)].

ويعود الفضل إلى حية موسى في أنها كانت السبب في تحول سحرة فرعون من حالة الكفر إلى حالة الإيمان، (حين رأوا الجنة والنار، ورأوا ثواب أهلهما)[(5)]. فقال تعالى: " فَأُلْقِيَ

---

(١) طه، ٢٠-٢١.

(٢) قطب، سيد: في ظلال القرآن، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٢، ١٦/ ٢٣٣٢.

(٣) المصدر نفسه، ١٦/ ٢٣٣٢.

(٤) فخر الدين، محمد الرازي: تفسير الفخر الرازي، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥، ٢٢/ ٢٩.

(٥) المصدر نفسه، ٢٢/ ٨٦، وينظر، الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، دار الفكر، ١٦/ ١٨٤- ١٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَى "[١]. فهذه الحية التي (لم تدع شجرة ولا صخرة إلا ابتلعتها حتى سمع موسى عليه السلام صرير أسنانها، وسمع قعقعة الصخر في جوفها، فحينئذ ولّى)[٢]. فقال تعالى: "فَلَمَّا رَآهَا تَهْتَزُّ كَأَنَّهَا جَانٌّ وَلَّى مُدْبِرًا "[٣]، وقال تعالى: "فَأَلْقَاهَا فَإِذَا هِيَ حَيَّةٌ تَسْعَى "[٤]، وقال كذلك: " فَإِذَا هِيَ ثُعْبَانٌ مُبِينٌ "[٥]، وفي هذا قال ابن عباس رضي الله عنهما: (صارت حية صفراء لها عرف كعرف الفرس، وصارت تتورم حتى صارت ثعباناً، وهو أعظم ما يكون من الحيات)[٦]. وجاء وصف الله تعالى لها من طبيعة مهمتها، فوصفها بالحية لعدوها، وبالثعبان لابتلاعها، وبالجانّ لتحركها، فكانت حية لموسى، وثعباناً لفرعون، وجاناً للسحرة.[٧] وما جعل السحرة متيقنين أن فعل موسى ليس من صنع البشر هو ظهور حركة الحية، وزيادة عظمها، وظهور الأعضاء عليها من العين والمنخرين والفم، وتلقفها جميع ما ألقوه، وعودتها إلى عادتها الأصلية وهي العصا[٨].

واختلفت الآراء حول أصل هذه العصا المعجزة، فمنها رأت أنها كانت عصا آدم عليه السلام عندما هبط بها من الجنة، وصارت متوارثة بين الأنبياء حتى وقعت إلى شعيب عليه السلام[٩]، ومنها رات أنها كانت عصا آدم عليه السلام، وأن جبريل عليه السلام أخذها بعد موته، وأعطاها لموسى عندما لقي ربه ليلاً[١٠].

ومن معجزات هذه العصا أن موسى عليه السلام كان (يستقي بها فتطول بطول البئر، وتصير شعبتاها دلواً، ويصيران شمعتين في الليالي، وإذا ظهر عدو حاربت عنه، وإذا اشتهى ثمرة ركزها فأورقت وأثمرت، وكان يحمل عليها زاده وماءه وكانت تماشيه، ويركزها فينبع

---

(١) طه، اية ٧٠.

(٢) تفسير الفخر الرازي، ٢٤: ٢٦٦.

(٣) النمل، اية ١٠.

(٤) طه، آية ٢٠.

(٥) الشعراء، آية ٣٢.

(٦) حياة الحيوان، ١: ٢٦٠.

(٧) المصدر نفسه، ١: ٢٦١.

(٨) تفسير الفخر الرازي، ٢٢: ٨٥.

(٩) المصدر نفسه، ٢٤: ٢٤٦.

(١٠) المصدر نفسه، ٢٤، ٢٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الماء فإذا رفعها نضب، وكانت تقيه الهوام)[1].

ومن المؤشرات القوية على وجود علاقة بين الحية والجن، أسماؤها التي تضمنت الأدلة والمعاني، فالحباب اسم شيطان، ومن معاني الخشاش الشِّرار من كل شيء، ومن معاني السف السفيف الذي هو اسم من أسماء إبليس، ومن معاني الغول شيطان يأكل الناس، فكل ما يغتال الإنسان من جن أو شيطان هو غول. وقد سميت الحية الدقيقة شيطاناً وجاناً، الجان هو الحية البيضاء. فالمتأمل في المعاني والدلالات المختلفة يتبين له الصلة القوية بين الطرفين، ففي بلاد العرب رمز السبئيون لإلههم الأكبر بالحية، وكان اسم الصنم اللات راجعاً إلى الإله، أي الحية[2]، ولارتباط مفهوم الحية بالجن تعود عبادة الحية إلى خوف الناس منها[3].

ومن الأمثال على ذلك (أكلةُ الشيطان)[4]، وهي (حية كانت في الجاهلية لا يقوم لها شيء. وكانت تأتي بيت الله الحرام في كل حين فيضرب بنفسها الأرض فلا يمر بها شيء إلا أهلكته)[5]، ورأى الجاحظ أن الحية خفيفة الجسم شيطان، خاصة إذا كانت داهية[6].

(إن الاعتقاد بوجود قوى خفية تحرك الكثير من الظواهر، وتفسر من خلالها الكثير من السلوكات، لهو أمر ملازم لكل الشعوب البدائية. فالعقل البشري مشدود إلى الاعتقاد بوجود قوى خفية خارقة، تنسب إليها كل ما يعجز العقل البشري آنذاك عن الإحاطة به ، فعني بذلك كل ما هو وراء المحسوس. ومن هذه القوى الخفية، الجن، حيث كانت عبادتهم منتشرة بين كثير من القبائل العربية).[7]

ومن الأدلة على وجود الجن في حياة الجاهليين، قول الشاعر جدع بن سنان:

أتوا ناري فقلتُ: منونَ أنتم؟	فقالوا: الجنُّ قلت: عموا صباحاً
نزلت بِشِعْبِ وادي الجن لما	رأيت الليل قد نشــر الجناحــا

(١) تفسير الفخر الرازي، ٢٢: ٢٧.

(٢) الأسطورة في التراث الشعري قبل الإسلام، ص ١٧٦.

(٣) المرجع نفسه، ص١٧٧.

(٤) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: مجمع الأمثال، تعليق سعيد محمد اللحـام، دار الفكـر، بيروت، ١٩٩٢، ١/ ٤٩-٥٠.

(٥) يحيى، أحمد إسماعيل: الحية في التراث العربي، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٧، ص٩٢.

(٦) الحيوان، ١: ١٥٣، ٣٠٠، ٤: ١٣٣.

(٧) أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، سميح دغيم، ص١٥٤-١٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أتيتــهمْ وللأقــدارِ حتـــم   تلاقي المــرء صبحاً أو رواحا[١]

ومن الأدلة القرآنية على ذلك قوله تعالى: (بل كانوا يعبدون الجن أكثرهم بهم مؤمنون)[٢]، (وجعلوا لله شركاء الجنّ)[٣].

عدت الجزيرة العربية منذ القدم من المناطق الصالحة لمعيشة الحيات، وذلك لملاءمة مناخها، وظروفها الطبيعية التي تجد فيها الحيات قدرة على العيش، وارتبط مفهوم الحية بالجن، وعد العرب القدماء هذا النوع من الحيوانات بنات الجن، لذلك كثر ورود هذا في القصص التي رواها الإخباريون عن الجن.[٤]

اعتقد العرب الجاهليون أن للجن تعلقاً ببعض الحيوانات، كالحية والديك والغراب والحمامة والقنفد، وكلها عرفت بـــ (مطايا الجن)، ولم يستثنوا من الحيوانات سوى الأرانب لأنها تحيض، والضباع لقذارتها، والقردة لزنيها[٥].

ومن المعتقدات التي كانت سائدة لدى العرب الجاهليين أن (الجن أرواح تتزاوج مع الإنس، وقد تخاوي بعضهم، وقد تدخل في الحيوان وتركبه ....، وهي لأجل ذلك تتلون بألوان مختلفة).[٦]

ومن مذاهب الجاهليين (أنهم كانوا إذا قتلوا الثعبان خافوا من الجن أن يأخذوا بثأره، فيأخذون روثه ويفتونها على رأسها، ويقولون: روثه راث ثائرك. وقال بعضهم:

طَرَحنا عليهِ الروثَ والزجرُ صادقٌ   فراثَ عَلَيْنا ثارَه والطوائل[٧]

وقال شاعر آخر:

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٥٢.

(٢) سبأ، آية٤٠.

(٣) الأنعام، آية١٠٠.

(٤) القيسي، نوري: الطبيعة في الشعر الجاهلي، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠ ، ص٢٠٥.

(٥) بلوغ الأرب، ٢/ ٣٦٠. وينظر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٨/ ٨١٦. أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص ١٥٧.

(٦) أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام، ص١٥٨.

(٧) بلوغ الأرب، ٢/ ٣٥٨. وينظر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٨١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولم أكُنْ كقتيلِ العين وسطكُم ولا ذبيحةَ تشريقٍ وتنحار[1]

وقد ربط الجاهليون بين مرضهم ومس الجن والحية، وبخاصة إذا اعتل أحدهم، واعتقدوا أن به مساً من الجن لأنه قتل الحية، ولذا كانوا يقدمون القرابين للحية أمام الجحور، بأن كانوا يصنعون جمالاً من طين عليها جوالق ملأوها بالحنطة والشعير، ويأتون إليها في اليوم التالي فإذا بقيت على حالها، فإنها لم تقبل الدية وإن وجدوها قد تساقطت، فذلك الدليل على قبول الدية، وشفاء المريض. [2]

قال بعض الجاهليين:

فيا ليت إن الجن جازوا حمالتــي وزحزح عَنِّي ما عناني من السقم

ويا ليتهم قالوا أنطنا كل ما حوت يمينك في حرب غماس وفي سلم

أعلّل قلبي بالذي يزعمونـــــــــه فيا ليتني عوفيت في ذلك الزعم[3]

وقال شاعر:

قالوا وقد طال عنائي والسقم احمل إلى الجن جمالات وضم

فقد فعلت والسقام لم يرم فبالذي يملك برئي اعتصم[4]

وقال آخر:

ألا إن جنان النويرة أصبحوا وهم بين غضبان علي وآسف

حملت ولم أقبل إليهم حمالة تسكن عن قلب من السقم تالف

ولو أنصفوا لم يطلبوا غير حقهم ومن لي من أمثالهم بالتناصف[5]

ومن الحوادث التي تدلل على صلات الإنس بالجن الذي يرتبط بالحية خروج (مالك بن حريم الدالاني في نفر من قومه في الجاهلية يريدون عكاظ، فاصطادوا ظبياً، وأصابهم عطشٌ شديد فانتهوا إلى موضع، ففصدوا ظبياً، وجعلوا يشربون من دمه من العطش، فلما ذهب دمه

(١) بلوغ الأرب، ٢: ٣٥٩.

(٢) المصدر نفسه، ٢/ ٣٥٩. وينظر، المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ٦/ ٨١٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٣٥٩.

(٤) المصدر نفسه، ٢: ٣٥٩.

(٥) المصدر نفسه، ٢: ٣٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ذبحوه، وخرجوا في طلب الحطب، وكمن مالك في خبائه، فأثار بعضهم شجاعاً فأقبل منساباً حتى دخل رحل مالك، فلاذ به، وأقبل الرجل في أثره فقال: يا مالك استيقظ فإن الشجاع عندك، فاستيقظ مالك فنظر إليه وهو يلوذ به، فقال عزمت عليك إلا تركته فكف عنه، وانساب الشجاع إلى مأمنه)[1]، وانشأ مالك بن حريم الدالاني يقول:

وأوصاني الحريمُ بعزّ جاري وأَمْنَعُهُ وليس به امتناعُ

وأدفعُ ضيمَهُ وأذبُّ عنهُ وأمنعهُ إذا مُنِعَ المَتاعُ[2]

وارتحلوا فاشتد العطش بهم، فإذا بهاتف يهتف بهم قائلاً:

يا أيها القومُ لا ماءَ أمامَكُمُ حتى تسوموا المطايا يومها التَّعَبا

ثم اعدلوا شامةً فالماءُ عن كثَبٍ عَينٌ رواء وماء يذهب اللَّغبا

حتى إذا ما أصبتم منه ريكُمُ فاسقوا المطايا ومنه فاملأوا القِرَبا[3]

فعدلوا شامة فإذا هم في عين خرارة في أصل جبل فشربوا وسقوا إبلهم، وحملوا ريهم حتى أتوا عكاظ، ثم أقبلوا حتى انتهوا إلى ذلك الموضع، فلم يروا شيئاً، فإذا بهاتف يقول:

يا مالِ عني جزاكَ اللهُ صالحةً هذا وداعٌ لكم مني وتسليمُ

لا تزهدنْ في اصطناعِ الخيرِ مَعْ أحدٍ إن الذي يَحْرِمُ المعروفَ محرومُ

من يفعلِ الخيرَ لا يعدمْ مَغَبَّتُهُ ما عاشَ والكفرُ بعد الغبّ مذمومُ

أنا الشجاعُ الذي أنْجَيْتَ من رهقٍ شكرتُ ذلك إن الشُّكْرَ مقسومُ[4]

نلاحظ من الخبر السابق الصلة القوية القائمة بين الحية والجن الذي تمثل بصوت الهاتف، وقد أبدى الشكر للإنسان. وأن هذا الجن قد ظهرت صورته الأولى بصورة الشجاع.

ومن معتقدات العرب في الجاهلية (أن الجن تطلب بثأر الجان، وهي الحية الدقيقة، فربما

(١) حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٥٩٦. وينظر، بلوغ الأرب، ٢/ ٣٦٢.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٦٢.

(٣) المصدر نفسه، ٢/ ٣٦٢.

(٤) المصدر نفسه، ٢/ ٣٦٢- ٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مات قاتلها، وربما أصابه خبل)[١]. والجان (حية دقيق أملس لا يضر أحداً، وربما كان في بيوت الناس لا يقتلونه، يضرب لونه إلى الصفرة، أكحل العينين، وأهل الحجاز يسمون الجان من الحيات الأيم)[٢].

ومن الأخبار التي تدل على وجود صلة بين الحية والجن، خروج (عبيد بن الأبرص يريد الشام، فلما كان في بعض الطريق عرض له شجاعٌ يلهث عطشاً، فعمد إلى إداوته، ونزل عن بعيره فسقاه حتى رواه، ثم مضى إلى الشام، فقضى حوائجه ورجع فأضد في بعض طريقه بعيره فنكب عن الطريق ليطلبه. فإذا هاتف يقول:

يا صاحبَ البَكْرِ المضلّ مذهبه   دونك هذا البكر منا فاركبه

حتى إذا الليل تراءى غيهبـــــه   وأقبل الصبح ولاح كوكبه

فحط عنه رحله وسيبه[٣]

فرأى بعيراً واقفاً فاستوى على ظهره، فلم يلبث ساعةً أن رأى بيته! وكان بينه وبين بيته عشرون مرحلة! فخلى عنه الرحل وهو يقول:

يا صاحب البكر قد أنجيت من كرب   ومن فيافٍ تضل المدلج الهـــــادي

هلا بدأت لنا خلقـــاً لتعـــرف مـــن   (عليك) قد جاء بالنعماء في الوادي

ارجع حميداً فقـــد بلغـــت حاجتنـــا   بوركتَ من ذي سلام رائح غـــادي

فأجابه:

أنا الشجاع الذي أرويتني ظمـــأً   من صحصحٍ حَصبٍ عن أهله صادي

وجدت بالماء لما عـــزّ مطلبـــه   نصف النهارِ على الرمضاء في الوادي

هـــذا جزاؤك منـــا لا يمن بـــه   لك الجميـــل علينـــا إنـــك البـــادي

الخير يبقى وإن طال الزمان به   والشـــــر أقبـــح مـــا أوعيت من زادِ[١]

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ١/ ٣١.

(٢) المخصص، السفر الثامن/ ١٠٩، وينظر، الحيوان في الأدب العربي، ١/ ٣٧١.

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٥٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالهاتف صوت الجن تشكل بصورة شجاع مما يدلل على علاقة الجن بالحية، والجني أو الشجاع يقدم لعبيد بن الأبرص مطية يركبها، وهي سريعة تفوق تصور العرب، إذ قطعت مسافة عشرين مرحلة في ساعة واحدة.

ومن الأدلة على وجود علاقة بين الحية والجن وقائع الإعصار أيام صحابة الرسول عليه الصلاة والسلام، وتكفين أحد الصحابة الحية التي وجدوها مقتولةً، والتي كانت جناً، حيث مثلت صراعاً بين الفاسقين والمؤمنين من الجن.(٢)

وللحية الجن علاقة بالأشجار، فهي مأوى لها، ففي يوم من الأيام اتفق مرداس والد العباس مع حرب بن أمية على أن يصلحا غيضة مشجرة، (فأضرما النار في الغيضة، فلما استطارت، وعلا لهيبها سمع من الغيضة أنين وضجيج كبير، ثم ظهرت منها حيات بيض تطير...، ولم يلبث حرب ومرداس أن ماتا).(٣)

ومن الأخبار التي تظهر توحّد الجن بالحية (أن أمية كان مصحوباً تبدو له الجن، فخرج في عير من قريش، فمرت بهم حية فقتلوها، فاعترضت لهم حية أخرى تطالب بثأرها، وقالت: قتلتم فلاناً ثم ضربت الأرض بقضيب، فنفرت الإبل، فلم يقدروا عليها إلا عناء شديد. فلما جمعوها جاءت فضربت ثانية فنفرت فلم يقدروا عليها إلا بعد نصف الليل. ثم جاءت فضربت ثالثة فنفرتها فلم يقدرا عليها حتى كادوا أن يهلكوا بها عطشاً وعناء وهم في مفازة لا ماء فيها. فقالوا لأمية هل عندك من حيلة؟ قال لعلها. ثم ذهب حتى جاوز كثيباً فرأى ضوء نار على بعد فأتبعه حتى أتى على شيخ في خباءٍ فشكا إليه ما نزل به وبصحبه. وكان الشيخ جنياً، فقال: اذهب فإن جاءتكم فقولوا: "باسمك اللهم سبعاً". فرجع إليهم وقد أشرفوا على الهلكة فأخبرهم بذلك، فلما جاءتهم الحية، قالوا ذلك. فقالت تباً لكم، من علمكم هذا؟ ثم ذهبت. وأخذوا إبلهم وكان فيهم حرب بن أمية بن عبد شمس جد معاوية بن أبي سفيان، فقتله الجن بعد ذلك بثأر الحية المذكورة)(٤)، وقالوا فيه:

---

(١) جمهرة أشعار العرب، ٢٣. وينظر، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢: ٣٥٤-٣٥٥، آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان، ص١٢٦.

(٢) تاريخ العرب، جواد علي، ٦: ٧٢٧. وينظر، دراسات في النقد الأدبي، أحمد زكي، ص١٦٥.

(٣) الحيوان ٢/ ١٤٣. وينظر، الأصفهاني، أبو الفرج: الأغاني، شرح سمير جابر، ط٢، دار الفكر، بيروت، ٦/ ٢٩٢. دراسات في النقد الأدبي، ص١٦٤.

(٤) مروج الذهب للمسعودي، ١/ ٧٨، وينظر، اكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان، ص١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقبر حرب بمكان قفر   وليس قرب قبر حرب قبر[1]

ووردت العلاقة واضحة بين الحية والجن في قول أمية بن أبي الصلت حين قال:

كذى الأفْعَى تَرَبَّبَها لَدَيْهِ   وذي الجِّني أرْسَلَها تسَابُ

فلا رَبُّ البرية يَأْمَنَنْــــها   ولا الجنيُّ أصبح يُستَتَابُ[2]

فقد حمل الله الجن مسؤولية ترك الحية تسعى في الأرض لبث الشر.

ومن المشروبات ما توحد وتؤلف بين الحية والجن، فاللبن مثلاً شراب مفضل لكلٍ منهما.[3]

وقد كان الناس يهابون الجان من الحيات، ويرون قتله شيئاً عظيماً، فقد (رأى رجل منهم جاناً في قعر بئر لا يستطيع الخروج منها، فنزل على خطر شديد حتى أخرجها، ثم أرسلها من يده فانسابت، وغمَّض عينيه لكي لا يرى مدخلها كأنه يريد الإخلاص في التقرب إلى الجن)[4].

وهناك الحية التي كانت حارسة الكعبة، حيث حرست بئر الأخسف، وكانت قد منعت قريشاً من تجديدها، فعملت على حراسة هذه البئر التي كان الناس يلقون فيها الهدايا من مال وحلية. وهذا يدلل على علاقة الحية بالجنّ، لأن مثل هذه المهمة الموكلة إليها غريبة على مستوى الحيوان، وبذلك تكون الصلة مع الجنّ الذي يتمثل في هذه الحية.

ومن الأخبار الإسلامية ما يبين رفق المسلمين بالحية، والذي ينبع من تأكيد علاقة الحية بالجن روي (أن عمر بن عبد العزيز بينما هو يسير على بغلة ومعه ناس من أصحابه، إذا هو بجانٍ ميت على قارعة الطريق، فنزل عن بغلته فأمر به فعدل به عن الطريق، ثم حفر له فدفنه وواراه ثم مضى، فإذا بصوت عالٍ يسمعونه ولا يرونه، ليهنك البشارة من الله يا أمير المؤمنين أنا وصاحبي الذي دفنته آنفاً من النفر من الجنّ الذي قال الله تعالى: "وإذ صرفنا إليك نفراً من الجنّ يستمعون القرآن"، فلما أسلمنا آمنا بالله وبرسوله، قال رسول الله لصاحبي المدفون:

---

(١) مروج الذهب للمسعودي، ١/ ٧٨، وينظر، آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان، ص١٦٥.

(٢) ديوانه، ص٢٥، وينظر، الحيوان، ٤/ ١٩٧.

(٣) الحيوان، ٤/ ٢٥٧.

(٤) المصدر نفسه، ٦/ ٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"ستموت في أرض غربة يدفنك فيها يومئذٍ خير أهل الأرض)[1].

ومن الأحداث التي تصور توحد الجن بالحية، ما حدث أن امرأة من الجن كان لها ولد، وتزوج، وفي اليوم السابع لزواجه قال لأمه: إني أحببت أن أطوف بالكعبة سبعاً نهاراً، وفعلاً قصد في صورة جان، وعوذته أمه بقولها:

أعيذُهُ بالكعبةِ المستوره ودعواتِ ابن أبي محذوره،

وما تلا محمد من سوره إني إلى حياتِهِ فقيره

وإني بعيشِهِ مسرورَه

وخلال تواجده ببعض دور بني سهم عرض له شابٌ منهم، وقتله، فثارت بمكة غبرة غضباً لمقتله، وذلك إيذاناً بموت عظيم من الجن، وكانت نتيجة ذلك موت الكثير من بني سهم على يد الجن، وما كان من بين سهم إلا قتلوا هوام وحشرات الأرض من حية وعقرب وخنفس ...[2]، وإذا بصوت هاتف يقول: "يا معشر قريش الله الله، فإن لكم أحلاماً وعقولاً اعذرونا من بني سهم فقد قتلوا منا أضعاف ما قتلنا منهم. ادخلوا بيننا وبينهم بالصلح، نعطيهم ويعطونا العهد والميثاق أن لا يعود بعضنا لبعض بسوء أبداً، ففعلت ذلك قريش واستوثقوا لبعض من بعض فسميت بنو سهمٍ الغياطلة قتلة الجنّ)[3].

أما نبوياً فقد قال الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم: " خلق الله الجنّ ثلاثة أصناف، صنف حيات وعقارب وخشاش الأرض، وصنفٌ كالريح في الهواء، وصنفٌ عليه الحساب والعقاب...".[4] وقال الرسول (ص) كذلك: " الحيات مسخ الجنّ صورة، ما مسخت القردة والخنازير من بني إسرائيل".[5]

---

(١) اكام المرجان في أحكام الجان، ص٥٦، وينظر، موسوعة الأساطير، محمد عجينة، ١/ ٣١٢.

(٢) أخبار مكة، الأزرقي، ٢/ ١٠ – ١٦.

(٣) المصدر نفسه، ص٣١٤ – ٣١٥.

(٤) الألباني، محمد ناصر الدين: ضعيف الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، ١٩٩٠، ص٤١٨، وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٤١٦.

(٥) صحيح الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"، ١: ٦١٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحيّة والرقية

نظر الإنسان الجاهلي نظرة ملؤها الشك والريبة والخوف، لذا فقد عمد إلى طرق عديدة لاتقاء شرها والابتعاد عن خطرها، ومن هذه الطرق التي سادت في المجتمع الجاهلي وامتدت إلى العصور اللاحقة، طريقة الرقية التي تفاوتت نسبتها بين النجاح والفشل. فالرقية عوذة يرقى بها صاحب الآفة كالحمى والصرع وغيرهما من الآفات، ومن عادة الراقي أن ينفث نفثاً في عوذته، وتكره الرقية إذا كانت بغير اللسان العربي، وبغير أسماء الله وصفاته، وكان من حرص الرسول (ص) على الرقية وقوفه عليها، وذلك خوفاً من وجود ألفاظ ومعتقدات جاهلية، أو كلمات بغير اللسان العربي، ولا تعرف ترجمتها، وبالتالي يصعب فهمها[١].

لذا كان الجاهليون يستخدمون الرقية في تعاملهم مع الحيات، خاصة التي تمتنع عليهم، ولا تخرج من جحرها، فيرون فيها أمراً غريباً، وقوة لا تجابه إلا بالرقية، وتكون الرقية عادة مع الشخص السليم الذي يرجو الشفاء بها. ومن الأمثال الدائرة حول الحيّة (رقية الحيّة)[٢]، فيضرب في شيئين متضادين: أحدهما الكلام الطويل الذي يعجز سامعه عن فهمه، والآخر الكلام الذي يرجى منه إصلاح ذات البين، وهو لين لطيف مؤثر[٣].

وللرقية أنواع منها (الذي يدعيه الحَّواء والرّقاء، وذلك يشبه بالذي يدّعي ناسٌ من العزائم على الشياطين والجن، وذلك أنهم يزعمون أن في تلك الرقية عزيمة لا يمتنع منها الشيطان، فكيف العامر؟! وأن العامر إذا سئل بها أجاب، فيكون هو الذي يتولى إخراج الحيات من الصخر)[٤]، ومنها كذلك التعويذة، التي يتعوذ بها الراقي[١].

---

(١) لسان العرب، مادة "رقا"، ١٤: ٣٣٢.

(٢) ثمار القلوب في المضاف والمنسوب، ص ٤٢٦.

(٣) المصدر نفسه، ص ٤٢٦-٤٢٧.

(٤) الحيوان، ٤/ ١٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتكون الرقية مع الحية، وذلك لرهبتها وقوتها، وأثر سمها في جسم المصاب، وتكون هناك علاقة للجن في قضية الرقية، لذا لا تجيب الحية صاحب العزيمة حتى يلتزم بمظاهر خاصة توحي بالاستعداد الجسمي والنفسي، لذلك (يتوحش ويأتي الخرابات والبراري، ولا يأنس بالناس، ويتشبه بالجن ويغسل بالماء القراح، ويتبخر باللُّبان الذكر، ويراعي المشتري. فإذا دق ولطف، وتوحش وعزم، أجابته الجن، وذلك بعد أن يكون بدنه يصلح هيكلاً لها، حتى يلذ دخوله وادي منازلها، وألا يكره ملابسته والكون فيه. فإن هو ألحّ عليها بالعزائم، ولم يأخذ لذلك أهبته خبلته، وربما قتلته، لأنها تظن أنه متى توحش لها، واحتمى، وتنظف، فقد فزع، وهي لا تجيب بذلك فقط، حتى يكون المعزِّم مشاكلاً لها في الطباع)[٢].

وبهذا تتضح العلاقة بين الحية والجن، خاصة أن من مؤهلات الراقي اتصاله المباشر بالجن، وهذا الاتصال يوحي بالقيام بأعمال تفوق قدرة الإنسان، أعمال توحي بالقدسية والعبادة كالاغتسال بالماء الخالص الذي لا يخالطه شيء، وبالبخور النباتي، ومراعاة كوكب المشتري المسمى عند المنجمين (السعد الأكبر لأنه فوق الزهرة في السعادة، وأضافوا إليه الخيرات الكثيرة والسعادة العظيمة)[٣].

واختلف الجاهليون حول إخراج الحية من جحرها، فمنهم (من زعم أن إخراج الحية من جحرها إلى الراقي، إنما كان للعزيمة والإقسام عليها، ولأنها إذا فهمت ذلك أجابت ولم تمتنع)[٤]، ويرى أمية بن أبي الصلت أن الحلف بالله يخرج الحية من جحرها:

والحيّة الذكر الرّقشاءُ أَخْرَجَهَا ... مِنْ جُحْرِهَا أَمَنَاتُ اللهِ وَالقَسَمُ
إذا دعا باسمها الإنسانُ أَوْ سَمِعَتْ ... ذات الإله بدا في مشيها رَزَمُ
من خَلْفِهَا حَمَّةٌ لولا الذي سَمِعَتْ ... قد كانَ ثبتها في جُحرها الحمَمُ
نابٌ حديدٌ وكفٌّ غيرُ وادِعَةٍ ... والخلقُ مختلفٌ في القَوْلِ والشِّيَمِ
إذا دُعِيـنَ بأسماءٍ أَجَبْنَ لها ... لنافثٍ يعتريه اللهُ والكَلِمُ
لولا مخافةُ ربٍّ كان عَذَّبَهَا ... عرجاء تَظَلّعُ، في أَنْيابِها عَسَمُ

(١) الحيوان، ٤/ ١٨٦.
(٢) المصدر نفسه، ٤/ ١٨٥-١٨٦.
(٣) حاشية الحيوان، ٤: ١٨٥.
(٤) الحيوان، ٤: ١٨٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بَلَتْهُ فَذَاقَتْ بَعْضَ مَصْدَقِهِ		فليس في سَمْعِهَا، من رَهْبَةٍ صممُ

فكيف يأمنها أَمْ كيــف تألَفُــهُ		وليس بينهما قربَــى ولا رَحِــمُ![1]

آمن أمية بأن الحية تخرج من الجحر بالقسم واسم الله، لكنه لم يؤمن أن الحاوي يخاطب الجان الذي يسكن الحية.

٥٨٧٧٦٢

ومن العرب من رأى أن (الحيّة مثل الضب والضبع إذا سمع بالله والهدم والصوت خرج ينظر. والحواء إذا دنا من الجحر رفع صوته وصفق بيديه، وأكثر من ذلك حتى يخرج الحيّة، كما يخرج الضب والضبع)[٢].

فالراقي يتسلح بالصوت العالي، مهدداً متوعداً الحية بما يتلوه من العزائم، فالصوت سلاح الراقي حسب قول عنترة الطائي:

يُفِيتُ النُّفوسَ قبل أن يقع الرُّقى		وإن أبرق الحاوي عليه وأرْعَدَا[٣]

فللصوت تأثير في الحيّة كباقي الحيوانات، لذا يعمد الحاوي إلى التصفيق بيديه ورفع صوته عالياً، فيخرج كل شيء من الجحر، الأمر الذي يجعل الشخص الحاضر أن يصدق أثر الحاوي في إخراج الحيّة طاعة وخوفاً، وذلك كون الحاضر لا يعرف من طبائع الحيّة شيئا، فيؤمن بتأثير الحاوي في إخراجها تعظيما للعزيمة التي صدرت عن معتزم مطاع عند العمار.[٤]

والتصدية عادة جاهلية وردت في قوله تعالى: "وَمَا كَانَ صَلاَتُهُمْ عِندَ الْبَيْتِ إِلاَّ مُكَاء وَتَصْدِيَةً "[٥]. فهذه حيلة يتبعها الحاوي في سبيل إخراج الحيّة عن طريق الرقية، ووسيلته التحكم والتعريض بصوت رفيع مع مرافقة الصوت ببيت شعر أو خرافة[٦].

ومن المهارات والحيل التي يتبعها الحواء والراقي بالنسبة للجحر (أجحر حية هو أم جحر شيء غيره، فإن كان جحر حية لم يخف عليه أهي فيه أم لا. ثم إذا رقى وعزم فامتنعت

---

(١) ديوانه، تحقيق سجيع جميل الجبيلي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨، ص١١٦-١١٧، وينظر، الحيوان، ٤/ ١٨٨.
(٢) الحيوان، ٤/ ١٨٨.
(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٣٠٨.
(٤) المصدر نفسه، ٤/ ١٩٤ – ١٩٥.
(٥) الأنفال، آية ٣٥.
(٦) الحيوان، ٤/ ١٨٧ – ١٨٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من الخروج، وخاف أن تكون أفعى صماء لا تسمع، وإذا أراغها ليأخذها، فأخطأ لم يأمن من أن تنقره نقرة لا يفلح بعدها أبداً، فهو عند ذلك يستبرئ بأن يشم من تراب الجحر، فلا يخفى عليه أفعى أم حية من سائر الحيات)[١].

ومن معتقدات العرب الجاهليين تعليق حلي النساء على اللديغ، حتى يبقى فائقا، لا يعرف النوم، لأنه إذا نام سرى فيه السم، فيموت، ووظيفة هذه الحلي والجلاجيل إصدار الأصوات التي تكفل إبقاء اللديغ فائقا[٢].

وهذا ما يؤكده زيد الخيل في قوله:

ثم يكونُ العقْلُ منكم صحيفةً   كلما عُلِّقَتْ على السَّليمِ الجلاجلُ[٣]

هذا ولم تعرف طريقة غير الرقية في تعامل الجاهليين مع الحية، لذا كانوا يؤمنون إيماناً قوياً بها وبأثرها في شفاء السليم، ويعكس هذا الإيمان قول صخر الغي حين رثى أخاه أبا عمرو ابن عبد الله الذي نهشته حية فمات:

لعَمرُ أبي عَمرو لقد ساقَه المَنا   إلى جَدَثٍ يُوزَى له بالأهاضب
لِحَيَّةِ جُحْرٍ في وِجارٍ مقيمةٍ   تنمَّى بها سَوْقُ الْمَنَا والجَوالب
أخي لا أخا لي بعدَه سبقتْ به   منيَّتُــه جمــعَ الرُّقى والطَّبائب[٤]

وبيّن الجاهليون أن بعض الحيات عصي جداً على الرقاة، وبذلك يصنفون الحيات بين طائعة وعصية، فهذا عمرو بن شأس يقول:

قد جاوروها، فما قام الرُّقاةُ لها،   وخاتلوها، فما آبوا، ولاظفروا[٥]

ويعكس قول كعب بن زهير قوة بعض الحيات الفتاكة، فمنها ما يكون لدغها قوياً فتاكاً

---

(١) الحيوان، ٤: ١٩٠.
(٢) المعاني الكبير، المجلد الثاني، ص٦٦٣- ٦٦٤، وينظر بلوغ الأرب، ٢/ ٣٠٤، الحيوان، ٤/ ٢٤٧.
(٣) شعره، ص١٤٢.
(٤) ديوان الهذليين، ٢/ ٥١ – ٥٢.
(٥) الحيوان، ٤/ ٣٠٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بالإنسان، ولا تؤثر فيه الرقية:

لقد كنتم بالسهلِ والحزنِ حيَّةً   إذا لدغت لم تشفِ لدغَتَهَا الرُّقى[١]

ويقرر الشاعر الجاهلي أن نوع الرقية، أو شكلها، أو هيأتها لا تلائم الحية، وهذا يعكس نباهة الراقي، وقوة قدراته، فيقول الحطيئة عن حية: (لا تلائمها رقاها)[٢].

ويصور الشاعر الجاهلي طول الليل، وقسوته، وثقل همومه، وهيئة جلوسه في مثل هذه الليالي الصعبة، بهيئة من يجلس لرقية الحية، وكأن هناك جلسة خاصة تليق بهذا الموقف النفسي الصعب الدقيق، يقول المثقب العبدي:

كأني أقاسي من سوابقِ عَبْرَةٍ   ومن ليلةٍ قد ضاق صدري همومها

ترد بأثناء كأن نجومها   حيارَى إذا ما قلت: غابَ نجومُهَا

فَبِتُّ أَضُمُّ الركبتَينِ إلى الحشا   كأني راقي حَيَّةٍ أو سَلِيمُها[٣]

ومن الحيات نوع خبيث جداً، يمتنع من الخروج عند رقية الراقي، ولا يشفى السليم منه وفيه قال المهلهل بن ربيعة التغلبي:

إن تحت الأحجار حَزْماً وعَزْماً   وخصيماً ألد ذا معلاق

حيةً في الوجار أربد لا ينـ   ـفع منه السليمَ نفثةُ راقِ[٤]

وقد سميت الحيّة بالأصم لأنه (لا يقبل الرقية، كأنه قد صم عن سماعها)[٥]

وعلى مستوى الصراع بين الأشخاص، ومدى قوة هذا الشخص، أو منعة ذاك الشخص، وشدة عداوته، كان الشاعر الجاهلي يتبنى موقفاً يظهر من خلاله قوته، وقدرته النفسية التي يتسلح بها، وحنكته مع عدوه، فهذا خداش بن زهير يحذر خصمه قائلاً:

---

(١) ديوانه، ص٩٧.

(٢) ديوانه، ص٢١٤.

(٣) شرح ديوانه، تحقيق حسن حمد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ص٧٦.

(٤) شرح ديوان امرئ القيس ومعه أخبار المراقسة وأشعارهم في الجاهلية وصدر الإسلام ويليه أخبار النوابغ وآثارهم في الجاهلية وصدر الإسلام، ص٢٣٤.

(٥) الحيوان في الأدب العربي، ١/ ٣٧٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فإن يك أوس حية، مستميتة فدعني وأوساً، إن رقيته معي[١]

امتد إيمان الشعراء بالرقية إلى العصر الإسلامي، وعكس ذلك الإيمان قولهم الشعر في ذلك.[٢] فقد روي عن عائشة رضي الله عنها: "رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم في الرقية من الحيّة والعقرب ويذكر عن ابن شهاب الزهري قال: لدغ بعض أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حية، فقال النبي صلى الله عليه وسلم: هل من راق؟ فقال: يا رسول إن آل حزم كانوا يرقون رقية الحية، فلما نهيت عن الرقى تركوها، فقال: ادعوا عمارة بن حزم، فدعوه فعرض عليه رقاه، فقال لا بأس بها، فأذن له فيها، فرقاه)[٣].

(١) ابن قتيبة، محمد عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، ٢/ ٥٤١.

(٢) الحيوان، ٤/ ١٨٦.

(٣) الحية في التراث العربي، ص ٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحية والماء

قال الله تعالى: "وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاء كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ"[1]، فإذا ما عدنا إلى التحليل اللغوي وجدنا العلاقة واضحة بين الحي والحية، التي من معانيها الحياة. وأما تاريخياً فهناك بعض الشعراء من يرجع علاقة الحية بالماء إلى أيام الطوفان، فقال النابغة الذبياني:

طويلة الإطراقِ من غير خَفَرْ   كَأَنَّمَا قد ذهبت بها الفِكر

جَاء بها الطوفان أَيَّامَ زَخَرْ.[2]

ويرجح أن يكون أصل الحيات مائياً فهي إما (أن تكون برية أو جبلية، فاكتسحتها السيول، واحتملتها في كثير من أصناف الحشرات والدواب والسباع، فتوالدت تلك الحيات، وتلاقحت هناك. وإما أن تكون أمهاتها وآباؤها في حيات الماء. وكيف دارت الأمور فإن الحيات في أصل الطبع مائية).[3] وما يدلل على أن (الحيات في أصل الطبع مائية، تعيش في البحر بعد أن كانت برية، وفي البر بعد أن كانت بحرية)[4].

(والأساطير الدائرة حول الأفاعي تَظْهَرُ في جنوب شبه الجزيرة العربية في العصور القديمة. فقد اعتبر سكان تلك المناطق المياه مسكونة بأرواح الجنّ، واعتقد أن تلك الأرواح اتخذت هيئة الأفاعي)[5].

أكثر الشعراء من ذكر أماكن المياه البعيدة في معرض حديثهم عن شجاعتهم وقدرتهم على الوصول إلى تلك الأماكن بما عليها من سباع وهوام، وكانوا يصفون رحلتهم ليلاً للدلالة على رباطة جأشهم، فهذا امرؤ القيس يصف رحلته وقصته مع الحباب الذي أخرجه من البئر.

---

(١) الأنبياء، اية ٣٠.

(٢) الحيوان، ٤/ ١٢٠.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ١٢٨.

(٤) حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٣٩٤.

(٥) الأساطير وعلم الأجناس، ص١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فيقول:

أرسلتُ دَلْوي في حافاتٍ مظلمة جوفاءَ يقصرُ عن مرجوّها السببُ
ليلاً فجاءت بماءٍ من معوّرة مرّتٍ عليه حديدُ النابِ معتصبُ
أعمى أصم له رقشاءُ تألفُهُ ما إنْ له غير إزراء به نشب
رأي الخزاية أن تجتر مفعمةً دلوي فجاء على أعوادِهَا يثبُ
غضبانَ في نابِهِ الحوباءِ عاجلة كالحبلِ أسود يعلو لونَهُ شُهُبُ
أهويت سَوْطي له لما برزتُ به فخرَّ فوقه أُتيِّ الحوضِ يضطربُ(١)

ثم يصف أبو كبير الهذلي ذاك الماء وما عليه من أفاعٍ فيقول:

ولقد وردتَ الماءَ لم يَشْرَبْ به بين الرَّبيع إلى شهور الصَّيِّفِ
إلا عَواسلُ كالمِراط مَعِيـــــدةٌ بالليل مـــوْرِدَ أيِّم متغضِّـــفِ(٢)

فيدلل الشاعر على علاقة الحية بالماء لدرجة أنها تبقى حارسة موقعه ليل نهار، وهذا البقاء يثبت وجود هذه العلاقة، خاصة أن الماء عنصر الحياة والحية معنى من معانيه.

وفي الماء خصوبة للحية وخلود، فإذا (هرمت وكلّ بصرها، واسترخى جلدها، دخلت في صدع صفاة ضيق، أو جحر ضاغط يعسر عليها النفوذ فيه حتى ينسلخ عنها جلدها، فتأتي عين الماء وتنغمس فيها حتى يقوى لحمها وينعصب، فإذا هي فعلت ذلك عادت شابةً كما كانت)(٣).

وهذا يذكر القارئ بما واجه جلجامش في أثناء رحلته في البحث عن الخلود، فكان ضحية الحية بعد سرقتها نبتة الخلود، التي أطلق عليها (الرجل الكهل يعود شاباً). فتقول الملحمة في اللوح الحادي عشر:

"رأى جلجامش بئراً ذات ماء بارد
فنزلَ إليها واستحمَّ بمائها

---

(١) ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ص٣٠٢.

(٢) ديوان الهذليين، ٢/ ١٠٥.

(٣) الناصري، أديبة: حياة الحيوان بين التوحيدي والدميري والجاحظ، مجلة التراث الشعبي، العدد الثالث، ١٩٨٠ السنة الحادية عشرة، ص١٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وشمَّ الثعبان رائحةَ النبتةِ
وفي عودتهِ نزعَ عنه قشرتَهُ
وفي ذلكَ اليوم جَلَسَ جلجامش يبكي".[١]

فيمكن ملاحظة وجود الحية في البئر قبل وصول جلجامش إليها، وأنها صاحبة الحق في المكان، فحيث وجد الماء وجدت مرابطة، وكأنها حارسة له، وذلك حرصاً على استمرارية بقائها، فتدافع أشد الدفاع عنه لدرجة أنها مستعدة لأن تقتل كل من يحاول الاقتراب منه، كما حدث مع أبي خراش الهذلي الذي (أتاه نفر من أهل اليمن قدموا حجاجاً، فنزلوا بأبي خراش والماء منهم غير بعيد، فقال يا ابن عمي، ما أمسى عندنا ماء، ولكن هذه شاة وبُرمة وقربة، فردوا الماء، وكلوا شاتكم، ثم دعوا برمتنا وقربتنا على الماء، حتى نأخذها، قالوا: والله ما نحن بسائرين في ليلتنا هذه، وما نحن ببارحين حيث أمسينا، فلما رأى ذلك أبو خراش أخذ قربته، وسعى نحو الماء تحت الليل حتى استقى، ثم أقبل صادراً، فنهشته حية قبل أن يصل إليهم، فأقبل مسرعاً حتى أعطاهم الماء، وقال: اطبخوا، وأصبح أبو خراش في الموت، فلم يبرحوا حتى دفنوه).[٢] وقال وهو يعالج الموت:

لعَمرُكَ والمنايا غالبــاتٌ ... على الإنســان تَطلعُ كلَّ نَجْدِ
لقد أهلكتِ حيَّةَ بطنِ أَنْفٍ ... على الأصحاب ساقاً بعد فقدِ[٣]

وقال أيضاً:

لقد أهلكتِ حيــةَ بطــنِ أنفٍ ... على الأصحابِ ساقاً ذات فضلِ
فما تركت عدواً بين بصرى ... إلى صنعــاء يطلبُــهُ بــذحــلِ[٤]

وهكذا كان أبو خراش ضحية لاقترابه من عين الماء، فدفع حياته ثمناً لذلك.

ومما يؤيد وجود علاقة بين الحية والماء قول يونس: "داهية الدهر الحية كنيت بذلك لأنها ربما سكنت بقرب ماء إما غدير أو عين، فتحمي ذلك الموضع، وربما غير ذلك الماء في ذلك المنقع حيناً وقد حمته، وقالوا: داهية صماء الغبر، تشبيهاً لها بالحية، وقالوا: صمام أيضاً تشبيهاً

---

(١) ملحمة جلجامش، سامي الأحمد، ص٥٣٢.
(٢) الأغاني، ٢١/ ٢٣٣. وينظر، معجم البلدان، ١/ ٤٤٨.
(٣) ديوان الهذليين، ٢/ ١٧١، وينظر، الأغاني، ٢١/ ٢٣٣، الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ١/ ٤٤٨.
(٤) معجم البلدان، ١/ ٤٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لها بالأفعى الصماء، وإنما قيل لها صماء لأنها لا تجيب الراقي فشبهت بالأصم).[1]

قال الكذاب الحرمازي:

يا ابن المعلّى نَزَلت إِحدَى الكُبَرْ   دَاهيةُ الدَّهرِ وصَمَّاءُ الغَبَر[2]

وإذا عدنا إلى واقعة مالك بن أدهم حين خرج للصيد، وعزّ عليه وجود الماء، فما كان من الهاتف إلا أن أخبرهم بمكان وجوده، وهذا ما يؤكد الصلة القوية بين الشجاع الذي أنقذه مالك من رجاله وبين الماء[3].

وفعلاً قصدوا الجهة التي وصفها الهاتف لهم، فوجدوا عيناً غزيرة، وسقوا إبلهم، وتزودوا، ولم يروا أثراً للعين بعد قضاء حاجتهم. وهذا ما يتطابق مع حادثة عبيد بن الأبرص حين عرض له شجاع يلهث عطشاً، فسقاه حتى رواه، وضل بعيره في الطريق، لكن هاتفاً هاتفه، ووفر له بعيراً أوصله إلى بيته، وذلك تقديراً ومكافأة له على صنيعه[4].

كما أسلفنا سابقاً، فحيث وجدت بئر، وجدت الحية، فقد (كان في بطن الكعبة عن يمين من دخلها جب يكون فيه ما يهدى إلى الكعبة، من مال وحلية كهيئة الخزانة، وكان يكون على ذلك الجب حية تحرسه، بعثها الله منذ زمن جرهم، وذلك أنه عدا على ذلك الجب قومٌ من جرهم فسرقوا مالها وحليتها مرة بعد مرة. فبعث الله تلك الحية فحرست الكعبة وما فيها خمسمائة سنة، فلم تزل كذلك حتى بنت قريش الكعبة)[5].

وحيات الماء متفاوتة من حيث ضررها، فإما (أن تكون لا تضر كبير ضرر، وإما أن تكون أقتل من الحيات والأفاعي)[6].

قال الشمّاخ:

---

(١) المعاني الكبير، المجلد الثاني، ص٦٧١-٦٧٢.

(٢) الحيوان ٤: ١٤٦.

(٣) آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان، ص١٤٤- ١٤٥.

(٤) بلوغ الأرب، ٢/ ٣٥٥.

(٥) تاريخ مكة، ١/ ١٥٩. وينظر السيرة النبوية، ١/ ٢٧٦ – ٢٧٧. موسوعة الأساطير، ١/ ٣٢١-٣٢٢.

(٦) الحيوان، ٤/ ٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا تحسبنّي وإنْ كُنْتَ امرأً غَمِراً كحَيَّةِ الماءِ بَيْن الطيِّ والشِّيدِ(١)

فيهدد الشاعر مهجوه بألا يتجاهله، وأن يحسب له أكبر الحساب، فهو أخطر مما يتوقع ولا ينظر إليه كحية الماء التي لا سم لها ولا تضر، فهو شجاع يسدد الضربات القاضية لعدوه.

ويضرب المثل بالسرعة الكبيرة التي تتميز بها حية الماء، فهذا الشمّاخ يقول واصفاً الإبل:

خُوصُ العيونِ تَبَارَى في أزِمَّتها إذا تفَصَّدْنَ من حرِّ الصَّياخيدِ
وكُلُّهــن يُبــاري ثِنْــي مُطَّــردِ كحيَّةِ الماءِ ولَّى غيْرَ مَطْرُودِ(٢)

أما العوم، فجميع الحيات تعوم إلا الأفاعي، إلا إذا كانت جبلية(٣)، وأحياناً يكون ماء السيل عدواً للحية، قاتلاً لها، لأنها لا تحتمل برودة مياهه في فصل الشتاء(٤)، إلا أن حب الحية للماء يزداد بوجود غذاء لها مثل الضفادع والفئران بالقرب منه(٥).

ومن طباع الحية في الماء كما عرف العرب قلة شربها له، لكنها تشتاق إلى الشراب إذا شمته، لدرجة أنها تشرب حتى السكر(٦).

قال شاعر:

لا تَرِدُ المــاءَ أفاعِي النِّقــا لكنّــها يُعْجِبُها الخَمْرُ
وفي ذُرَى الحَرْمَلِ ظِلٌّ لها إذا علا واحْتَدَمْ الهَجْرُ(٧)

ومما يدعم ذلك المثل القائل: "أروى من حية"(٨)، لأنها تعيش في الصحراء التي يقل فيها

---

(١) ديوانه، ص٤٥.
(٢) ديوانه، ص٤٣، وينظر، الحيوان، ٤/ ٢٤٠.
(٣) الحيوان، ٥/ ٣٥١.
(٤) المصدر نفسه، ٦/ ٥٥.
(٥) المصدر نفسه، ٥/ ٥٣١.
(٦) المستطرف، ١/ ١١٢، وينظر حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٣٩٣، المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧٥.
(٧) الحيوان، ٦/ ٣٩٨-٣٩٩.
(٨) العسكري، أبو هلال: جمهرة الأمثال، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٦٤، ١/ ٤٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الماء، فلا تراه، ولا تشربه[1].

وطالما أن الأحلام تعكس واقعا معينا، فقد قال أحد سكان البادية: (رأيت في المنام كأني أتخطى حيات، فأمطرت السماء، فجعلت أتخطى سيولاً)[2]. وفي هذا ربط بين الحية والماء، التي تمثل خصوبة وحياة.

وحذر الرسول (ص) من وجود الحية في أواني الشرب، فقال أبو إسحاق: (بلغني وأنا حدث، أن النبي صلى الله عليه وسلم " نهى عن اختناث فم القربة، والشرب منه)[3]. وشأن الحديث أن (رجلاً شرب من فم قربة، فوكعته حية فمات، وإن الحيات تدخل في أفواه القرب)[4].

وفيما يتعلق بالتنانين، فقد ظهر اختلاف بين الناس حولها، ففريق رأى (أنها دواب تتكون في قعر البحر، فتعظم وتؤذي دواب البحر، فيبعث الله عليها السحاب والملائكة فيخرجونها من بيتها، وأنها على صورة الحية السوداء لها بصيص وبريق)[5]. وفريق آخر رأى أن (التنين أول أمره يكون حية متمردة تأكل من دواب البر ما ترى، فإذا عظم فسادها يبعث الله ملكاً يحتملها، ويلقيها في البحر، فتفعل بدواب البحر ما كانت تفعله بدواب البر، ويعظم جسمها، فيبعث الله تعالى ملكاً فيحملها ويلقيها إلى يأجوج ومأجوج)[6].

---

(١) جمهرة الأمثال، ١/ ٣٧٤.

(٢) الحيوان، ٤/ ٢٦٨.

(٣) المصدر نفسه، ٤/ ٢٦٧.

(٤) المصدر نفسه، ٤/ ٢٦٧.

(٥) مروج الذهب، ١/ ١٢٢-١٢٣.

(٦) القزويني، زكريا: عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، تحقيق فاروق سعد، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١، ص١٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الحية والأرض

عندما أهبط الله الحية من الجنة، أنزلها بأرض سجستان، لذلك تعد أكثر أرض الله حيات[1]، فيقال: (أرض محواة ومَحْياة من الحيات)[2]، ومن الأمثال على ذلك (حية الأرض)[3]، ويضرب هذا المثل للرجل المنيع الجانب[4]، قال ذو الإصبع العدواني:

عَذِيرَ الحيِّ مِنْ عَدْوا نَ كانوا حَيَّةَ الأرض[5]

وصار يقترن سوء الحية وشرها ببعض الأماكن، كقولهم: "أفاعي سجستان"[6].

وعدت الصحراء العربية موطناً ملائماً لحياة الحيات، لأنها مثل هذه الطبيعة تناسب هذا النوع من الزواحف[7]. (والمكان الذي تعيش فيه الحية يسمى موطنها، ولبعض الحيات موطن واحد. وللبعض الآخر عدة مواطن، وهناك أمكنة لا تعيش فيها الحيات وهي المناطق الباردة جداً)[8].

وتتوارث الحيات المكان الواحد فقد (يوجد عدد كبير من الحيات المختلفة في المكان الواحد، وإذا سكنت حيات في مكان فإنها تعود إليه وتحافظ عليه الأجيال التي تأتي بعدها)[9]. ويقصد بالمكان الواحد المنطقة الجغرافية، وذلك لأن الحية لا تتخذ بيتاً واحداً لنفسها، بل تقصد بيوت غيرها من الزواحف والحشرات، فتهرب إلى حيوان الورل، لأنه لا يستطيع المقاومة، بل يأكلها[10].

لذلك خرجت الأمثال إلى حيز الوجود، فقالوا: (أضل من حية)[11]. وذلك لعدم عودتها إلى

---

(١) حياة الحيوان الكبرى، ١/ ٣٩١.

(٢) الحيوان، ٤/ ١٦٥.

(٣) ثمار القلوب، ص ٥١٧، وينظر، الحية في حياتنا وتراثنا، ص ٥١.

(٤) المصدر نفسه، ص٥٩٧.

(٥) الأصمعيات، ص٧٢، وينظر، الحيوان، ٤/ ٢٣٣.

(٦) ثمار القلوب، ص٤٢٤، وينظر، المستطرف، ١/ ١١١.

(٧) أحمد، أحمد موسى، الصحراء في الشعر الجاهلي، رسالة دكتوراة، الجامعة الأردنية، حزيران، ١٩٩٦، ص١٥٩.

(٨) الحية في حياتنا وتراثنا، ص١٦-١٧.

(٩) المرجع نفسه، ص ١٧.

(١٠) المعاني الكبير، المجلد الثاني، ص٦٧١.

(١١) المصدر نفسه، المجلد الثاني، ص٦٧١، وينظر الحيوان، ١/ ٢٢١، ٤/ ١٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جحرها فيما إذا وجدت غيره[١]. ومن الأمثال كذلك: (أدخل من حية)[٢]، وذلك لقدرتها على الدخول في كل شق.

وبما أن الكائن الحي ابن بيئته من حيث التكيّف والتلاؤم، فقد عرفت الحية كيف تحافظ على البقاء في مثل هذه البيئة الصحراوية القاسية، وذلك باصطيادها فريستها، فإذا ما (انتصف النهار واشتد الحر، وامتنعت الأرض على الحافي والمنتعل، ورمض الجندب، غمست هذه الحية ذنبها في الرمل، ثم انتصبت كأنها رمح مركوز، أو عود ثابت، فيجيء الطائر الصغير أو الجرادة، فإذا رأى عوداً قائماً وكره الوقوع على الرمل لشدة حره، وقع على رأس الحية، على أنها عود، فإذا وقع على رأسها قبضت عليه)[٣].

هذا وتستطيع الحيات تحمل حرارة الرمل القاسية، خاصة أن الصحراء تخلو من الأشجار، أو غيرها من الصخور، فهي لا تعير اهتماماً لمثل هذه الحرارة، بل على العكس من ذلك ترى فيها اكتساباً لقوتها، خاصة عندما نعلم أن الرمل يشتمل على ثلث الحية طوال ساعات النهار[٤].

وإذا (دخلت الأفعى الرمل ثم رققته فوقها ثم أخرجت عيناها قيل طحنت وهي الطحون)[٥]، وبهذا يكون خطر الحية أكثر وأكثر عندما لا تظهر للعيان بشكل واضح، فسلوكها هذا بحد ذاته خطر، وكأنه مكمن، فطبيعة الرمل التركيبية عنصر مساعد، وبيئة تتكيف فيها الحيات لعدوها، وفي هذا يقول الأعشى:

فلا تلْمس الأفعى يداكَ تُريدها ... ودَعْها إذا ما غَيَّبَتْها سَفاتُها[٦]

ويعد التراب مأوى لها، لأنها تتدفن فيه مدة أربعة أشهر في البرد[٧]، فبطن الأرض سكن لها[٨].

---

(١) المعاني الكبير، المجلد الثاني، ص ٦٧١

(٢) الثعالبي، عبد الملك محمد: التمثيل والمحاضرة، تحقيق، عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١، ص ٣٧٧.

(٣) الحيوان، ٤/ ١٠٧-١٠٨.

(٤) الحيوان، ٤: ١٠٨.

(٥) المخصص، السفر الثامن/ ١٠٨

(٦) ديوانه، ص٢١٢.

(٧) المستطرف في كل فن مستظرف، ١: ١١١.

(٨) الحيوان، ٤: ١٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويحتاج (كثير من الثعابين إلى درجة معينة من الرطوبة، حتى يتمكن من تبديل الجلد، فالثعابين التي تقطن الصحاري وغيرها مما اعتادت المواطن الجافة قادرة على تغيير جلدها بسهولة)[١]. ويلاحظ أثر الصحراء على جلد الحية، فيتمدد (في المناخ الرطب بدرجة أطول من الجلد الذي ينسلخ في مناخ جاف، فنجد الجلد المتساقط من ثعبان الصحاري قد يكون أطول بدرجة طفيفة من طول الثعبان نفسه، على حين يكون الجلد المتساقط من ثعبان الماء في موطنه الطبيعي أطول من الثعبان نفسه بنسبة واحد إلى خمسة)[٢].

وللأفاعي في الصحراء العربية خصوصية معينة، فهي (حسب الاعتقادات السائدة في العصور القديمة كانت مصدر مساعدة أو تهديد اعتماداً على طبيعة الأرواح التي كانت تحملها، والنوايا التي تعامل بها من قبل الناس)[٣].

فحية الصحراء مصدر رعب وخطر لطبيعة الصحراء القاسية، ولقدرة الحية على الاختفاء فيها، وسيطرتها في الموقع، فهذا معقل بن خويلد يرى في جحور الحيات الرملية كل الخطر، الأمر الذي حمله على تشبيه قوته بقوة هذه الحيات على عكس ما صور به الشنفرى نفسه، فيهدد عدوه قائلاً:

أبا مَعْقِلٍ لا توطِئَنْكَ بَغَاضتي ... رُؤوسَ الأفاعِي في مَرَاصِدِهَا العُرْمِ[٤]

ولكل أرض خصوصية تنعكس على كائناتها الحية، فقوة الحية وشراستها، وسمها، تختلف حسب المنطقة التي تنتمي إليها[٥]، يشارك عنترة الطائي معقل بن خويلد الرأي ويحذر خصمه قائلاً:

عَسَاكَ تمنى مِنْ أراقِمِ أرْضِنَا ... بِأرْقَمَ يُسْقى السمَّ مِنْ كُلِّ مَنْطِفِ[٦]

وبما أن الإنسان ابن بيئته، فإن الجاهلي يستدل على البعير ببعره، لذا تظهر آثار الحية

---

(١) بدوي، حسني محمد: الثعابين، مجلة الكويت، العدد٣٩، ١٩٨٥، الكويت، ص٦٤-٦٥.

(٢) المرجع نفسه، ص ٦٥.

(٣) الأساطير وعلم الأجناس، ص١٤٩.

(٤) ديوان الهذليين، ٣/ ٦٥، وينظر، المعاني الكبير، المجلد الثاني، ص٦٧٤، الحيوان، ٤/ ٢١٣.

(٥) الحيوان، ٤: ٢٢٦.

(٦) المصدر نفسه، ٤/ ٣٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(إذا انسابت في الكثبان والرمل يبين مواضع زحفها، وعرفت آثارها)[1]. فذكر الشاعر حركة الحية من خلال رمال الصحراء التي تظهر لوحة فنية، فيشكل الرمل خلفية الصورة المتمثلة بآثار زحف الحيات فيها، وما تتركه في نفس السامع والمشاهد، فهذا المتنخل الهذلي يقول:

كأنّ مزاحِفَ الحيّاتِ فيها قُبيلَ الصبْحِ آثارُ السِّيَاطِ[2]

فاستهل الشاعر البيت بأداة تشبيه حرصاً منه على الإسراع في بيان صورة زحف الحيات التي تثير القلق والريبة، بآثار السياط التي تظهر على أجساد المغلوبين على أمرهم، فآثار زحف الحيات هدف منه الشاعر إثارة الانفعال والقلق لدى المشاهد، وكذلك اختار زمناً يعكس عدم الوضوح وهي حالة وسطى بين الليل والنهار، فتتشابه مع الآثار النفسية التي تتركها آثار الحيات على الرمال، فكان الشاعر موفقاً في توظيف حاسة البصر، لأنها صورة توحي بالقلق، والاضطراب وبالتالي الإحجام، فكان انعكاس الصور المحسوسة واضحاً في الجانب النفسي للمشاهد أو السامع، لأن السامع يتبادر إلى ذهنه هذه الصورة المادية التي توحي بالاشمئزاز والريبة.

وتتكرر الصورة عند أكثر من شاعر، مما يدل على تكرارها في رمال الصحراء وتركها أثراً نفسياً، فهذا ثمامة الكلبي يشاطر الشاعر السابق في وصفه، فيعقد مقارنة توحي بالقوة المادية، مما يؤكد قوة الحية وشراستها إذا قورنت بحمالة السيف، وفعله إذا أعمل.

كأنّ مَزَاحِفَ الهَزْلى صباحاً خدُودُ رَصَائع جُدِلَتْ تُؤَامَا[3]

إلا أن الصورة تنقلب رأساً على عقب، حين يلجأ الشاعر إلى استيحاء عناصر جديدة في رمل الصحراء، هذه الصورة تبدي للناظر راحة نفسية، ومنظراً جمالياً من الطبيعة الخلابة، ويتخذ من الحية والرمل مادة تشبيهية لعناصر أخرى من الطبيعة الحيوانية، فيصف كعب بن زهير ذئباً وغراباً قائلاً:

كأنّ شُجاعيْ رملةٍ درَجا معاً فمرّا بنا لولا وقوفٌ ومنزلُ[1]

---

(١) الحيوان، ٤/ ١٧٥.

(٢) ديوان الهذليين، ٢/ ٢٥، وينظر، الحيوان، ٤/ ١٧٥.

(٣) الحيوان، ٤: ١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ويتكرر الموقف بصورة أكثر جمالية، فيصور تأبط شراً مشي المرأة بسير الحية في رمل الصحراء باستوائه وكثبانه، فيقول:

وإذا تجيء تجيء شَحْبٌ خَلْفَها كالأيمِ أصْعَدَ في كثيبٍ يرتقي(٢)

ويركز الشعراء الجاهليون على حرارة الصحراء اللاهبة، فيذكرون الحية في معرض حديثهم عن رمضاء الرمال، ويصورون حركتها التي تعكس شدة الحرارة، فيقول الشنفرى:

ويَوْمٍ من الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُه أفاعِيهِ في رَمْضائِهِ تَتَمَلْمَلُ(٣)

وفي وصف الليلة الحارة والأفعى يقول مرة بن حليف في رثاء تأبط شراً:

وليلةِ رأسُ أفعاها إلى جحرِ ويومٍ أورٍّ من الجوزاء رنان(٤)

أما في الليلة الباردة، فإن الأفعى لا تسري؛ وذلك لشدة برودتها، وبهذا تختلف ريطة بنت عاصية مع تأبط شراً في قولها:

وليلة يصطلي بالفرث جازرها حيرى جمادية قد بت تسريها

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة من القريس ولا تسري أفاعيها(٥)

وأشد ما تعاني منه حية الصحراء قلة الماء، والعطش الشديد، فقد قال الهاتف -الذي مثل الحية- لعبيد بن الأبرص حين أنقذه بالماء:

أنا الشجاعُ الذي ألفيتَهُ رمضاً في رملةٍ ذات دِكْدَاكٍ وأعقادِ(٦)

ومن أجزاء الأرض التي تتواجد فيها الحيات الأودية، التي تشكل في طبيعتها الجغرافية رهبة للإنسان الجاهلي، ويزداد ذلك الشعور بوجود الحيات فيها، وبخاصة الحية الذكر، وكأن

---

(١) ديوانه، ص٤١.
(٢) شعره، ص١١٤.
(٣) ديوانه، ص٧١.
(٤) ديوانه، ١٢٧.
(٥) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص١٣٣، ١٥١.
(٦) ديوان عبيد بن البرص، ص٦٨، وينظر، جمهرة أشعار العرب، ١/ ١٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

طبيعة الوادي المنخفضة المغلقة تزيد الحية قوة وعنفاً، فهذا عبيد بن الأبرص يهـدد خصـمه – مفتخراً بقوته وحكمته وحنكته– قائلاً:

يا عَمْرو ما رَاحَ مِنْ قَوْمٍ ولا ابتكرُوا إلا وللمَوْتِ في آثارِهِمْ حادِي

فإنْ رَأيْتَ بِوادٍ حَيَّةً ذَكَراً، فامضِ ودَعْنِي أُمارِسْ حَيَّةَ الوَادِي[1]

إن خلا البيت من تشبيهات ظاهرية، فانه لا يخلو من صورة واضحة قائمة على العناصر الحسية التي ليست هدفا بذاتها، بل وسيلة لغاية أخرى. فالشاعر ضمن كلمة أمارس معنى المعاناة، وضمنها كذلك قوته التي تتناسب مع قوة حية الوادي، والتي جعلها ذكراً، فيضرب به المثل في الصعوبة والقوة، ففعل نفس الأمر ليبين طبيعة العلاقة مع المخاطَب وهي علاقة الدونية، واعتمد كذلك الفعل المضارع الذي يعني استمرارية الصراع، ليجعل نفس السامع تتوق لمعرفة النهاية ومصير المواجهة والصراع مع الحية الذكر، التي قصدها الشاعر أن تكون ذكراً لما في ذلك من أهمية وخطورة، بحيث يضمن الشاعر السيادة وإثبات الوجود في حالة التفوق عليها، وبالتالي إثبات الوجود أمام مخاطبه الذي لا يريد نصرته.

فلحية الوادي صفة القوة والشكيمة، وهذا ما ينسجم مع المثل القائل: (فلانٌ حية الوادي)[2]، لذلك عد الشاعر حية الوادي بلاءً شديداً خاصة أن الأودية عدت مأوى الجن التي لها صلة بالحية، لذا قال العباس بن مرداس في خفاف، وقد بلغه أنه عابه:

فأورِدْ يا خُفَافُ فقد بُليتمْ بَنِي عَوْفٍ بحَيَّةِ بَطْنِ وادِ[3]

ويشاطر لبيد بن ربيعة الشاعرين السابقين في تكرار المشهد في قوله:

أبا مالكٍ إني لِحُكْمِكَ فاركٌ وزبّانَ قد أمسى لحكمك فاركا

هم حيةُ الوادي فإن كنت راقياً فدونكَ أدركْ ما ازْدَهَوْا من فنائكاِ[4]

لكن الصورة السابقة تختلف اختلافاً كلياً مع الشنفرى، الذي رأى في حيات الوادي

---

(١) ديوانه، ص٦٣.

(٢) جمهرة الأمثال، ٢/ ٢٧، وينظر، الحيوان، ٤/ ٢٣٤، ثمار القلوب، ص٤٢٢.

(٣) ديوانه، تحقيق يحيى الجبوري، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١، ص٥٥، وينظر، بسبح، أحمد حسن: العباس بن مرداس السلمي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤، ص٤٨.

(٤) ديوانه، ص١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الهدوء والخوف والذل في قوله:

وَوادٍ بَعيدِ العُمْقِ ضَنْكٍ جُمَاعُهُ مَرَاصِدُ أَيْمٍ قَانِتِ الرأسِ أَخْوَفُ[1]

وبهذا تختلف حية الوادي –بفضل طبيعة المكان– عن حياة الرمل المكشوفة لحرارة الشمس، وللمارة من الناس. فهي أشد فتكاً وقوةً ودهاءً، وكأن طبيعة الوادي تشكل عالماً غريب الطباع مجهول الهوية، لقلة السير فيه، ورهبة الجاهلي منه.

ولا يكاد يخلو جزءٌ من الأرض من وجود الحية فيه، فالجبال مأوى الحيات، الأمر الذي يدلل على انتشارها في كل مكان، وهذا يبين بوضوح قدرة الحية على التكيف مع تضاريس الأرض، من رمل وواد وجبل، فهي تحاول الاستفادة قدر إمكانها من موجودات الأرض. لذا تسكن في صدوع الصخر[2]. فسميت الحية ابنة الجبل نسبة إليه، وهي (الحية الصماء التي لا يقرب أحد جبلها من خوفها)[3]، ونسبت إليه وصارت تعرف باسمه، ويربط بين الحية والجبل، وذلك بالعودة إلى قول الهاتف الذي هاتف مالك بن حريم المنقذ للشجاع، وقد أوصاه الهاتف – الممثل بالشجاع– بالتوجه إلى أصل الجبل، وذلك لانقاذ أنفسهم من الموت لشدة عطشهم. لذا حكم عليها بأنها أصبر الحيوانات على الجوع، فإذا دخلت شق صخرة، وتم تتبعها وجدت منطوية فيه[4]، ومن الأقوال ما يؤكد ذلك (يلزق بالصخر لزوق الأرقم)[5]، ويؤكد لزوقها بالصخر قول النابغة: (كما لقيت ذات الصفا من حلفها[6])، وتعد الحية التي تلزم الصخر قاتلة، وكأنها تكتسب قوتها من قوة الصخر، فهذا الأعشى يؤكد ذلك بقوله:

كحيةِ سلعٍ من القاتلات تقدُّ الصرامةُ عنك القميصا[7]

وكما تتواجد الحية في الصخور وسلوعها، فإنها تتواجد في الهضاب، خاصة الحية السوداء الشرسة، فهذا حريز بن نشبة يحذر بني جعفر بن كلاب في قوله:

---

(١) ديوانه، ص٥٥.
(٢) الحيوان، ٤: ١٥٤.
(٣) ثمار القلوب، ص٤٢٣.
(٤) الحيوان، ٤: ١١٨.
(٥) الحية في التراث العربي، ص٨٩.
(٦) ديوانه، ٤٧.
(٧) ديوانه، ١١٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولو أخاصِمُ أفعى نابُهَا لثِقٌ   أو الأساوِدَ من صُمِّ الأهاضيب
لكنتمُ معها إلْباً، وكان لها   ناب بأسفل ساقٍ أو بِعُرقُوبِ(١)

وللحية قدرة فائقة على صعود المرتفعات الجبلية، فلا يثنيها عن ذلك شيء ما، يقول أوس ابن حجر في ذلك:

وأحقّ أن يُرْمَى بداهيةٍ   إن الدواهيَ تطلعُ الحَدَبا(٢)

ويرسم الشاعر الجاهلي مشهداً يجعل عناصره من موجودات الطبيعية الجبلية، فكون الحية جبلية فإنها تكتسب القوة من علوه ووعورته، فتتميز بالسرعة الكبيرة، فيصور الشماخ سرعة إبله بسرعة حية الجبل في قوله:

وكُلُّهُنَّ يُباري ثِنْي مُطَّرِدٍ   كحيَّةِ الطَّوْدِ ولَّى غيرَ مطرودِ(٣)

ويكرر الشاعر نفسه المشهد حين وصف طريق الناقة المسرعة بالتواءات ظهر الحية المنطلقة عبر المرتفعات:

دارتْ من الدَّورِ فالموشومِ فاغترفتْ   بقاعِ فَيْحانَ إجْلاً بعدَ آجالِ
على طريقٍ كظهرِ الأيْمِ مُطَّرِدٍ   يهوي إلى قُنَّةٍ في مَنْهلٍ عالِ(٤)

ويشارك تأبط شراً الشاعر السابق في المشهد مع اختلاف المشبه، فيصور تلوي المرأة في حركتها بحركة الحية في صعودها كثيباً رملياً:

وإذا تجيءُ تجيءُ شحبٌ خَلْفَها   كالأيْمِ أصْعَدَ في كثيبٍ يرتقي(٥)

ولمكانة الحية في الحياة الجاهلية عرفت أماكن معينة بأسمائها، واكتسبت شهرة، لوجود الحيات فيها، فقال النابغة الذبياني يذكر ذات الأساود:

---

(١) الحيوان، ٤: ١٥٢.

(٢) ديوانه، ص٤.

(٣) ديوانه، ٤٣.

(٤) ديوانه، ١٠٢.

(٥) شعره، ص١١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أهاجكَ من سُعداكَ مغنى المعاهدِ   بروضةِ نُعميٌّ فذاتِ الأساودِ(١)

وقال زيد الخيل يذكر برقة "أفعى":

فَبُرقَةُ أفعى قد تقادَمَ عهدُها   فما إنْ بها إلا النِّعاجُ المَطافِلُ(٢)

وقال مزرد بن ضرار الذبياني:

تأوهُ شيخٍ قاعدٍ وعجوزِهِ   حريبينِ بالصَّلْعاءِ ذاتِ الأساودِ(٣)

ويتخذ الشاعر الجاهلي من شجاع الذرى مثلاً أعلى في القوة، فهذا معمر بن لقيط يقول:

أبيتُ كما باتَ الشُّجاعُ إلى الذُّرَى   وأغدو على همِّي وإن بِتُّ طَاوِيَا(٤)

رسم الشاعر مشهداً رائعاً باتخاذه صورة لنفسه من الطبيعة، فلم يجد إلى ذلك سبيلاً إلا الأفعى التي رأى فيها شدة الصبر والقوة والغلبة، حيث ربط بينها – لما لها من صفات القوة والإهلاك – وبين الجبل رمز الشموخ والقوة المادية، متخذاً من هذين العنصرين، عنصر الحيوان وعنصر الجبل صورة لنفسه، فهو يتحمل المصاعب ويتحمل الجوع كما تتحمل الأفعى هذه الظروف في تلك القمة، وبهذا ركز الشاعر على الجانب النفسي متخذاً منه سلاحاً لبث الخوف والرهبة في نفوس أعدائه، خاصة عندما قصد لفظة الشجاع التي تبث الخوف والرهبة بفضل صوت الشين، الذي يعني التفشي والانتشار، وما يقابله نفسياً في نشر الرعب في نفوس أعدائه، كذلك هناك المد الصوتي المتمثل في الألف التي تتناسب مع ارتفاع الذرى، ومن ناحية أخرى فإن الشاعر ركز على أحرف المد التي تساعد على تصوير حالته النفسية بما فيها من التعالي والتحدي. فالمد الصوتي المتمثل في جميع كلمات البيت يصور طبيعة العلاقة بين الشاعر وأعدائه، فهو يعكس طول المدة الزمنية في مكوث الشجاع على الذرى، التي تبعد عن المنخفضات، واستمرارية الشاعر في قوله "أبيت"، ويصور المد الصوتي البعد المكاني والاجتماعي والطبقي بينه وبين عدوه، وبذلك يكون قد رسم صورة تعكس منحنى طبيعياً بجعله العظمة والقوة في رؤوس الذرى، وجعله عدوه في أسفل المنحنى لينظر من الأدنى إلى الأعلى، وبهذا لا يتحقق التوازن في الصراع بين الطرفين، ويكون النصر للشاعر في النهاية.

---

(١) ديوانه، ص٢٥.

(٢) شعره، ص١٦١.

(٣) المفضليات، ص٧٦.

(٤) الحيوان، ٤/ ٢٦٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولقد جمع الجبل بين الحية والوعل، فضرب بينهما المثل في العداوة فقيل علـــى لســان بعض الأعراب:

عاديْتنا يا خُنفسا كام جُعَلْ عداوةَ الأوعالِ حياتِ الجبلْ[1]

والأوعال هي الوحيدة من بين جميع ما يسكن الجبل من الوحش يأكــل الحيــات، قــال شاعر:

علَّ زيداً أن يُلاقى مرَّةْ في التماسِ بعضَ حياتِ الجبلْ
غاير العينين مفطوح القفا ليس من حيات حجرٍ والقلل
وترى السُّمَّ على أشْداقِهِ كشعاعِ الشَّمسِ لاحتْ في طَفَلْ
طردَ الأرْوى فما تقربهُ ونفى الحَيَّاتِ عن بيضِ الحجلْ[2]

وقد سميت بعض الجبال العربية، باسم الحية، فهذا حميد بن ثور الهلالي يقول:

أظلَّ بأطلالِ المليحةِ بعدَنـــا دَروجُ السفا تأتابـــه وتُباكـــرُهْ
فلو أنها كانَتْ بَدَتْ يَومَ حَيَّةٍ لِمُنْعَطفِ القَرنين وعرٍ مطامِرُهْ[3]

ويوم حية مخلاف من مخاليف اليمن، أو هو جبل من جبال طــي[4]. ولطبيعــة الحيــة الخاصة معرفة بأن الجبل هو المأوى والملاذ من الخطر، حيث يشكل صعوده صعوبة لعــدوها، قال الحطيئة:

مِنْ كُلِّ شَهْباءَ قَدْ شابَتْ مَشافِرُها تَنْحَازُ من حسها الأفعى إلى الوَزَرِ[5]

فإذا سمعت الحية وقع الناقة على الأرض لجأت إلى الجبــل، قــال الرســول (ص): "إن الإيمان ليأزر إلى المدينة كما تأزر الحية إلى جحرها"[6].

---

(١) الحيوان، ٣: ٤٩٧.
(٢) المصدر نفسه، ٣: ٤٩٧.
(٣) ديوانه، ص٤١.
(٤) الحيوان، ٦/ ٣٤٣.
(٥) ديوانه، ص٩٩.
(٦) ضعيف الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"، ص٢٠٨، وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١: ٤٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وتطرقوا لذكر الحية من خلال أحاديثهم عن الديار والأطلال، فها هو بشر بن أبي خازم الأسدي حينما أراد أن يصور الأثر النفسي لأطلال الأحبة عليه، ربط بين خواء الديار والأرقم، فقال:

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيَّتُها بِالأَنْعُمِ   تَبْدُو مَعَالِمُها كَلَوْنِ الأَرْقَمِ(١)

يرسم الشاعر مشهداً صامتاً يوحي بالقلق والموت عند هذه الأطلال، مبتدئاً بالسؤال الذي يوحي بالاستغراب والقلق الشديدين، مصوراً حالته النفسية القلقة التي كانت انعكاساً لآثار أطلال الراحلين حين صور هذه الأطلال وما توحيه من رهبة وقلق تجاه الحياة وأقدارها، فرأى في الطلل جانباً واحداً هو جانب الفناء والدمار فأوحت هذه المعالم إلى ذهن الشاعر صورة نوع من الحيات وهو الأرقم، الذي يعد أخبث أنواع الحيات، فلونه المركب من الأسود والأبيض يوحي بازدواجية الحالة النفسية، والصراع القائم بين الحياة والموت في هذه الأطلال التي رحل أهلوها وبقيت في وجه الزمن الذي غيرها. فكان الشاعر موفقاً في اختيار هذا النوع من الحيات لما يعكس لونه المركب من تضاد وصراع بين الهدوء والسلام المتمثل ببقاء الأهل في الديار، وبين الدمار والفناء اللذين حلاّ بالديار، وذلك بتناسب اللون الأسود مع الأرقم، فقد ساد بين العرب "أن الحية لا تتخذ لنفسها بيتاً، وكل بيت قصدت نحوه هرب أهله منه وأخلوه لها"(٢)، وفي هذا كان الشاعر موفقاً في اختيار العناصر والمواءمة بينها، فأفسح المجال للعين كعضو بصري أن تأخذ مجالها في التأمل.

وعندما أراد أن يصور بشر نفسه خلاء الديار وبعد أهلها عنها، وجد في ثواء الحية بها دليلاً على هجران أهلها فقال:

وإذا نظرْتَ إلى الثَّرى بِعِرَاصِهِمْ   قلتَ: الشجاعُ ثوى بها والأرقمُ(٣)

وحيثما يقف الحطيئة على الديار، وينتابه الحزن والأسى والخوف، يجد في صورة الحية الرقشاء التي يقشعر لها البدن صورة معبرة عن هذا الشعور، فيقول:

كأنني ساوَرَتْني يوم أسْألُها   عَوْدٌ من الرُّقْشِ ما تُصْغي لِرَاقِيها(١)

---

(١) ديوانه، ص١٨٩.

(٢) الحيوان ٤/ ٥٧، ١٤٩.

(٣) الحيوان، ٤/ ١٧٦، والبيت ليس موجوداً في ديوانه.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فالحيات مخلوقات صحراوية تمثل قوى الخراب[٢]، وما يدعم ذلك القول تفسير الأحلام، فمن (رأى أن الحية خرجت من دار خربت الدار ووقع الفناء بأهلها)[٣].

---

(١) ديوانه، ص٢٢٣.

(٢) الأحمد، سامي سعيد: رموز من عالم الحيوان، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، بغداد، ١٩٨٩، ص٦٤.

(٣) المرجع نفسه، ص٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الفصل الرابع

رموز الحية ودلالاتها في الشعر الجاهلي

المبحث الأول: المعصية والخطيئة

المبحث الثاني: الخلود والحياة

المبحث الثالث: الحية والخصب

المبحث الرابع: الحية والشر

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المعصية والخطيئة

خلق الله آدم في الجنة وحيداً، ثم أتبعت حواء من جسده، وكانا يعيشان عيشة هانئة. بفضل ماهية الجنة، المليئة بالمياه والأشجار والحيوانات، هذه الحياة الكريمة لم تدم لآدم وزوجه، وذلك بسبب معيارٍ ربانيٍّ تمثّل في شجرةٍ من أشجار الجنة، حيث طلب الله منهما ألا يمساها، لكن ذلك الطلب لم يتحقق فيما بعد، وذلك بفعل تدخل الحية.

تمثل الحية الشخصية الرئيسة على مسرح الأحداث في الجنة، وتتمثل أهميتها بأنها سيدة دواب الجنة على الإطلاق، وكانت هيئتها على هيئة الجمل، وقوائمها كقوائمه، وذنبها مثل العبقري ما بين أحمر وأصفر وأخضر وأبيض وأسود، وعرفها من اللؤلؤ، وذوائبها من الياقوتة، وعيناها كالزهرة والمشتري، ورائحتها من المسك[١].

لما كانت الحية حارسة الجنة، ذهب إبليس إلى سيد طيور الجنة الطاووس، من أجل خداعه ليدخله الجنة، فما كان من الطاووس إلا أن دلّه على الحية التي تمتعت بصداقة إبليس، خاصة أنها كانت من خزنة الجنة، فتمكنت من إدخاله بفمها، والمرور إلى الجنة دون علم أحد[٢]. (وكان الله عز وجل أخدم آدم في الجنة الحية، وكانت أحسن خلق الله تعالى، لها قوائم كقوائم البعير، فعرض إبليس نفسه على دواب الأرض كلها أن تدخله الجنة، فكلها أبى عليه ذلك إلا الحية، فإنها حملته بين نابين من أنيابها ثم أدخلته الجنة)[٣]. فهذه الحية قديمة العهد بالجنة، فهي موجودة قبل آدم، فكان (الله تعالى خلقها من قبل أن يخلق آدم بألفي عام، ....، وكانت تخبر آدم وحواء على كل شجرة في الجنة، وكل شيء فيها)[٤].

فآدم وحواء في جنة ينعمون، لكن الحية لما كانت (أحيل جميع الحيوانات البرية التي عملها الرب الإله، فقالت للمرأة أحقا قال الرب، لا تأكلا من كل شجر الجنة، فقالت المرأة للحية من ثمر شجر الجنة نأكل، وأما ثمر الشجرة في وسط الجنة فقال الرب لا تأكلا منه، ولا تمساه لئلا تموتا، فقالت الحية للمرأة لن تموتا، بل الرب عالم أنه يوم تأكلان منه تتفتح أعينكما وتكونان كالرب عارفين الخير والشر)[٥].

---

(١) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها، ١: ٣١٧- ٣١٨.

(٢) تاريخ الطبري، ١: ٧٢، وينظر، الأسطورة والتراث، ص٥٩.

(٣) المعارف، ابن قتيبة، ص١٥.

(٤) قصص الأنبياء، ص٣٧.

(٥) العهد القديم، سفر التكوين، ٣/٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد تمثل الشاعر الجاهلي هذه المرحلة من بداية الخلق والتكوين وعـرض غوايـة آدم وحواء ورحيلهما من الفردوس المفقود، قال عدي بن زيد العبادي:

قَضَى لِستَّةِ أيَّـامٍ خَلِيقَتَـهُ ... وكانَ آخرَها أنْ صَوَّرَ الرَّجُـلا

دَعَاهُ آدَمَ صَوتاً فاستَجابَ لَـهُ ... بِنَفْخَةِ الرُّوحِ فِي الجِسْمِ الَّذي جبلا

ثُمَّتَ أوْرَثَهُ الفِرْدَوْسَ يَعْمُرُها ... وزَوْجُهُ صُنْعَةٌ مِنْ ضِلْعِهِ جَعَـلا

لَمْ يَنْهَهُ رَبُّهُ عَنْ غَيْرِ وَاحِـدَةٍ ... مِنْ شَجَرٍ طَيِّبٍ: أنْ شمَّ أوْ أكَـلا

فكانَتِ الحَيَّةُ الرَّقْشَاءُ إذْ خُلِقَتْ ... كما ترى ناقة في الخلق أو جملا

فَعَمَدَا للتي عَنْ أكلها نُهِيـا ... بأمْرِ حواءَ لم تأخذ له الدَّغَـلا

كِلاهُما خاطَ إذْ بـزَّا لَبُوسَهُما ... مِنْ وَرَقِ التِّينِ ثَوْباً لَمْ يَكُنْ غَـزِلا

فَلاطَها اللهُ إذْ أغْوَتْ خَلِيفَتَـه ... طُولَ اللَّيالي ولَمْ يَجْعَلْ لَهـا أجَلا

تَمْشي على بَطْنِهـا في الدَّهْـرِ ما عَمَـرَتْ ... والتُّرْبُ تَأْكُلُهُ حَزْنا وإنْ سَهُـلا

فَأتْعَبـا أبَوانـا في حَياتِهمـا ... وأوْجَدا الجُوْعَ والأوْصابَ والعِلَلا

وأوتِيا المُلْكَ والإنجيلَ نَقْـرَؤهُ ... نَشْفـي بِحِكْمَتِـهِ أحْلامَنـا عِلَلا

مِنْ غَيْرِ ما حاجَةٍ إلا لِيَجْعَلَنا ... فَوْقَ البَرِيَّةِ أرْباباً كمـا فَعَـلا(١)

فيجيء قول الشاعر: (إذْ أغْوَتْ خَلِيفَتَـه) جازماً في نفيه أن الشيطان هو الذي أغـوى حواء وآدم، فلم (يكن الشيطان هو الذي أغوى حواء بالأكل من الشجرة المحرمة بل كانت الحية هي صاحبة الغواية هنا جرياً على سنن الأقدمين الذين كانوا يوحدون بين الضرر الحسي وبـين الخطيئة الأخلاقية، وقبل أن تصبح الحية مجرد رمز إلى الشيطان نلاحظ فيه المشابهة بين نفـث السم ونفث الشر على أسلوب المجاز(٢)). وبهذا يكون الشيطان خارج دائرة الاتهام حسب قـول الشاعر الجاهلي، بل كانت الحية هي الفاعل المباشر لعملية الإغواء، وكأن آدم استهدف بطريقـة غير مباشرة عبر زوجته التي أصغت للحية.

عملية الإغواء عملية خطرة جداً بالنسبة لآدم وزوجه، فهي عملية تحـول أبـدي، لـذا (اختارت الديانات السابقة والمعتقدات والتاريخ والأساطير الحية بطلاً لهذا التحـول، أي تحـول

---

(١) ديوانه، ص١٥٩-١٦٠.

(٢) إبليس، ص٩٧-٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

بنية الإنسان من اللازمن (أو زمن الأبدية) إلى الزمن الأرضي (الكرنولوجي التعاقبي)، وأن هذا التحول قد أبقى على الكثير من الأسرار والأشياء في الأرض وفي السماء غامضة يتخيلها حتى الفلاسفة، وبذلك بقي الماضي البعيد مستمرا ولم يمت).[١]

فإذا قارنا حياة آدم قبل الإغواء وبعده، نجد الفرق شاسعاً، فالسيادة في الجنة كانت له، وكان المسؤول عنها من دون سائر المخلوقات، فعدي بن زيد يقول:

ثُمَّتَ أَوْرَثَهُ الفِرْدَوْسَ يَعْمُرُها وَزَوْجُهُ صَنْعَةٌ مِنْ ضِلْعِهِ جَعَلا

فهو الأول، وزوجه التابع في الخَلْق والسلوك، فكان وحيداً ثم خلق الله حواء من ضلعه، وكانت حياته هانئة لقوله تعالى: (وَقُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ وَكُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الْظَّالِمِينَ)[٢]. فتكون الحية قد وجدت في المرأة سبيلاً للإغراء وبذلك كان آدم هدفاً، لأن حواء جزء من آدم، فهو الأصل، وصاحب السيادة، فلا تستطيع الحية إغراءه. من هنا تلتقي جميع الأساطير والديانات في تحميل المرأة مسؤولية السقوط، المتمثلة بعصيان الأمر الإلهي حين خدعتها الحية، فتشترك أساطير شعوب عديدة في القول بمسؤولية المرأة عن فقدان الإنسان الحياة الأبدية، وابتلائه بالأوبئة والأمراض[٣]. فلم تفلت الحية من عقاب ربها، لأنها كانت مصدر الشر لآدم الذي أورثه الله جنته، فهي لا تموت، وكأن في هذا الحكم شقاء وتعاسة لها، فلو كان في الخلود راحة لما خلدها الله ، فيقول عدي: (ولم يجعل لها أجلا)، (وعاقب الله الحية بخمسة أشياء فقطع قوائمها، وأمشاها على بطنها، ومسخ صورتها بعد أن كانت أحسن الدواب، وجعل غذاءها التراب، وجعلها تموت كل سنة بالشتاء)[٤].

وبذلك كانت الحية أول من نال عقاب الله، كما في قول عدي بن زيد:

تَمْشي على بَطْنِها في الدَّهْرِ ما عَمِرَتْ والتُّرْبُ تَأْكُلُهُ حُزْنا وإنْ سَهُلا

وبذلك يعيدنا البيت الشعري إلى أصل الحية حين كانت حسنة المنظر، على هيئة الجمل، ولها قوائم وذنب جميل. وبهذا مسخها الله إلى يوم الدين، وكأن مدة مسخها مرهونة بوجود آدم

---

(١) راوبنية، حفيظة: التجليات الموضوعية والرمزية في نماذج الشعر القديم، مجلة التواصل، العدد الرابع، حزيران، ١٩٩٩، ص٩٤.

(٢) البقرة، آية ٣٥.

(٣) مغامرة العقل الأولى، ص٢٤٩.

(٤) تاريخ الطبري ٧٢/١-٧٣، وينظر، الأسطورة والتراث، ص٥١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

على ظهر البسيطة، وما يؤكد أن الحية لم تكن كما هي عليه الحال قول الرسول صلى الله عليه وسلم: (إن الحيات مسخت كما مسخت القردة من بني إسرائيل)[1]. ومن العقوبات التي نزلت بالحية أن الله (جعلها عدوة لبني آدم وهم أعداؤها، حيثما يرونها يقتلونها)[2]. وبالفعل تتجسد العلاقة بين الفريقين بالعداء المتواصل إلى يوم الدين، فمثلاً عندما عصى آدم ربه، وعرف ذلك، لم يكن منه إلا أن دخل في جوف شجرة، (فنادى الرب الإله آدم وقال له: "أين أنت"؟، فقال: "سمعت صوتك في الجنة فخشيت، لأني عريان فاختبأت"، فقال: "من أعلمك أنك عريان؟ هل أكلت من الشجرة التي أوصيتك أن لا تأكل منها؟ فقال آدم: "المرأة التي جعلتها معي هي أعطتني من الشجرة فأكلت)[3].

وفعلاً تحقق ما أوعد به الرب آدم والحية من عداوة وبغضاء، فمن القصص والأمثال التي تدلل على ذلك (أن أخوين في الجاهلية خرجا مسافرين فنزلا في ظل شجرة بجنب صفاة، فلما دنا الرواح خرجت لهما من تحت الصفاة حية تحمل ديناراً فألقته إليهما، فقالا: إن هذا لمن كنز هنا فأقاما ثلاثة أيام وهي في كل يوم تخرج لهما ديناراً فقال أحدهما للآخر: إلى متى ننتظر هذه الحية؟ ألا نقتلها ونحفر عن هذا الكنز فنأخذه؟ فنهاه أخوه، وقال له: ما تدري لعلك تعطب ولا تدرك المال، فأبى عليه، وأخذ فأساً ورصد الحية حين خرجت فضربها ضربة جرح رأسها ولم يقتلها، فبادرت إليه الحية فقتلته ورجعت إلى جحرها، فدفنه أخوه، وأقام حتى إذا كان الغد خرجت الحية معصوبة رأسها وليس معها شيء فقال: يا هذه والله إني ما رضيت ما أصابك، ولقد نهيت أخي عن ذلك فلم يقبل، فهل لك أن تجعلي الله بيننا على أن لا تضريني ولا أضرك وترجعين إلى ما كنت عليه أولاً؟ فقالت الحية: لا، قال ولم؟ قالت لأن نفسك لا تطيب لي أبداً، وأنت ترى قبر أخيك، ونفسي لا تطيب لك أبداً، وأنا أذكر هذه الشجية)[4].

قال النابغة الذبياني:

وإني لألقى من ذوي الضغن منهمُ ... وما أصبحتْ تشكو من الوجدِ ساهره

كما لَقِيَتْ ذاتُ الصفا من حليفها ... وما انفكّتِ الأمثالُ في الناسِ سائره

فقالتْ له: أدعوكَ للعقل وافراً ... ولا تَغشيَنّي منكَ بالظلم بادره

(١) صحيح الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"، ١: ٦١٠، وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ٢٨٢/١.

(٢) تاريخ الطبري ٧٢/١-٧٣، وينظر، الأسطورة والتراث، ص٦٠.

(٣) سفر لتكوين، ٣/ ٩-١٣.

(٤) حياة الحيوان الكبرى، ٣٩٨:١، وينظر، المعري، أبو العلاء: رسالة الغفران، تحقيق عائشة عبد الرحمن، ط٣، دار المعارف، ١٩٦٣، ص٣٦٤-٣٦٥، الحيوان في الأدب العربي، ٣٧٨/١-٣٧٩، الحية في التراث العربي، ص١٠١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فواثقهـا باللــهِ حينَ تراضيـــا فكانت تَريــهِ المــالَ غِبَّـاً وظــاهره
فلمّـا توفــى العقــل إلاَّ أقلَّـــهُ وجارتْ بــه نَفْسٌ عن الخيرِ جائـــره
تذكَّرَ أنَّي يجعــلُ اللــهُ جُنَّـــةً فيُصْبِــحَ ذا مــالٍ ويقتل واتــــره
فلمّا رأى أن ثمَّرَ اللــهُ مالـــهُ وأثَّــلَ موجـــوداً وسـدَّ مفاقـــره
أكَبَّ علــى فأسٍ يُحِـدُّ غرابَهـا مــذكَّــرةٍ مــن المعــاولِ باتـــره
فقامَ لها من فوقِ جُحــر مشيَّـدٍ ليقتلهــا أو يخطئ الكــفُّ بــــادره
فلما وقاها اللــهُ ضربــةَ فأســهِ وللبرِّ عيــنٌ لا تغمّـِضُ ناظــــره
فقال تعالي نجعــلِ اللــهَ بيننــا على مالنــا أو تُنْجــزي ليَ آخـــره
فقالت يميــنَ اللــهِ أفعلُ إننـــي رأيتُــكَ غَــدَّاراً يمينــكَ فاجــــره
أبى لِيَ قبرٌ لا يزالُ مقابلـــــي وضربةُ فأسٍ فوق رأسي فاقــــره[1].

فهذه القصة تمثل الصراع الأبدي بين الحية وابن آدم، فهي مهما حاولت الظهور بمظهر فاعل الخير في إعطائها الشخص ديناراً كل يوم، إلا أن الصراع لا يخفي شـعور كـل منهمـا، فحاول الشخص أن يقتلها ويأخذ الكنز. فالشعور بالعداء هو أساس بعد الصراع، فهـي عدوتـه الأولى التي أفقدته الفردوس، وهو عدوها الذي سيأخذ بثأره منها. فالصراع بينهما يبقى مسـتمراً لبقاء شواهد هذا الصراع، قبر الأخ الميت من جهة، وضربة الأفعى من جهة أخرى.

وتظهر قصة المثل تأثر العرب بمن سبقهم من الأمم وأن هناك الأسطورة نفسـها عنـد غيره من الشعوب، وقد وردت كاملة في خرافات أيسوب اليونانية، ولكن مـع اخـتلاف نسـبة القرابة بين الشخصين، الأمر الذي يؤكد تأثر العرب بأساطير غيرهم كأساطير اليونان[2].

وبما أن الشاعر الجاهلي لم يعش بمنأى عن ثقافة الأمم ومعارفها، فقد اسـتثمر رمـوز القصة السابقة ودلالاتها في العقلية الجاهلية (كحقائق أو معارف أو أفكار في شـكل إسـقاطات شعرية، يتم استرجاعها أو استعارتها والإيحاء بها كدوال أو مدلولات يتعانق من خلالها الماضي بالحاضر. وتتداخل الأحداث، سعياً –من الشاعر– إلى بلوغ هدفه، المتمثل في رفـض المرتبـة

(١) ديوانه، ص٤٧– ٤٨.
(٢) ملامح يونانية في الأدب العربي، ص٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الثانية أو الثالثة لقومه بين القبائل العربية من جهة، ولنفسه في قومه من جهة أخرى)[1].

وقد ورد عقاب الله للحية في موضع شعري آخر، الأمر الذي يظهر شيوع الصراع والعداء بين الحية والناس واستمراريته، فهذا أمية بن أبي الصلت:

كذى الأفعى يربيها لديه ... وذي الجّنيّ أرسلها تُساب

فلا رب البرية يأمنها ... ولا الجنّي أصبح يُستتاب[2]

هذا العداء المستمر يظهر في قوله تعالى: " اهْبِطُواْ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ "[3]. فرأى ابن عباس أن المقصود في الخطاب هو آدم وحواء وإبليس والحية. وبهذا تقرر الرؤية الإسلامية أن إبليس عنصر من عناصر الحادثة التاريخية، وهذا لم يذكره الشاعر الجاهلي. وفي حديث للرسول (ص): (اقتلوا الحيات، فإنا لم نسالمهن منذ حاربناهن)[4]. تحدد الكلمة (منذ) البعد التاريخي للصراع بين الحية وابن آدم، منذ طرده من الجنة، وذلك لكون الآية الكريمة التي تناولت وسوسة الشيطان لآدم للأكل من الشجرة لا تبين الحالة التي تنكر بها الشيطان، خاصة أن من صور الجن الحية. فلم يفلت المتآمرون الذين كانوا السبب في وقوع المعصية، فقد أنزل الله تعالى (إبليس بالأيلة من أرض العراق وهي البصرة، وقيل ميشان، والحية بأصبهان، والطاووس بأرض بابل، ومسخ صورة إبليس فصيره شيطاناً، بعد أن كان ملاكاً)[5].

ويضيف الشاعر عدي بن زيد عن العقاب الذي حل بآدم وحواء إثر معصيتهما في قوله:

فَأَتْعَبَا أَبَوانا في حَيَاتِهِما ... وأَوْجَدا الجُوْعَ والأَوْصابَ والعِلَلا

فعقاب الله لآدم وحواء وذريتهما سرمدي لا ينتهي ما دامت الشمس تشرق، بل حتى بعد انتهاء الشروق، هناك المصير الأبدي، الجنة والنار، والنار قمة العذاب الذي ينتهي إليه الطالحون. ففي الدنيا جوع ومرض، هذا عقاب ذرية آدم وحواء بعد أن كان والداهما في جنة النعيم، فقد لعبت الحية دوراً أساسياً في التحول على المستوى الواقعي، وعلى المستوى الشعري

---

(١) التجليات الموضوعية والرمزية للحية في نماذج الشعر القديم، ص٨٤-٨٥.

(٢) المصدر نفسه، ص٢٥.

(٣) البقرة، آية٣٦.

(٤) صحيح الجامع الصغير وزيادته، الفتح الكبير، ١/ ٢٥٥، وينظر، حياة الحيوان الكبرى، ١/٢٨٢.

(٥) تاريخ الطبري ١/٧٢-٧٣، وينظر، الأسطورة والتراث، ص٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لدى الشاعر عدي بن زيد، حيث أصبح الثابت متحولاً، فبعد أن كان النعيم الدائم في العالم السماوي، صار المقر في العالم السفلي ذي الأحداث والصراعات والأمراض والأوبئة، واستقر الحال بالمتحول إلى الثبات، ثبات العلل والشقاء والمرض، والموت الذي يلاحق الإنسان، (وتصبح المعصية مجرد دال يضغط على ملفوظات النص لتكوين رؤية الشاعر، أو المدلول المنبثق عن البنية الاجتماعية المؤسسة على التحول والتغير، ذلك أن التحول عند الجاهلي لم يكن موضوعاً فحسب، بل بنية عميقة تحكم حياته وتوجه تفكيره، لهذا نجد الشاعر يمارس التحول في الواقع ويجيره – أحياناً– على الصراع والمواجهة والمعاناة على مختلف الجبهات والمستويات، الممكن منها والمستحيل).[١]

ومن العقوبة التي نالت حواء إدماؤها في كل هلال كما أدمت شجرة الجنة[٢]. (وقد قال للمرأة: تكثيراً أكثر أتعاب حبلك، بالوجع تلدين أولاداً).[٣]

إن قصة خلق آدم وحواء وما حصل من معصية وانتقال من حالة الثبات إلى حالة المتحول، ثم إلى الثابت لم تنته على المستويات الأسطورية والعقائدية، بل كانت ملحمة جلجامش تكراراً لأحداث مشابهة، فانكيدو (صورة عن الإنسان الذي تم خلقه من طين، وعاش في الطبيعة حياة حرة طليقة قبل أن يلتقي بالمرأة التي نقلته بعد الفعل الجنسي من حياة البداوة والحرية الحيوانية المفرغة من المضمون، إلى حياة الجماعة والحرية ذات المضمون. ووجدنا في آدم الأول تكراراً لأنكيدو، فآدم قد خلق من طين وعاش في الطبيعة يأكل من حيث شاء رغداً إلى أن جاءت حواء وأطعمته من ثمرة الجنة المحرمة، وخرجت به من عالم حرية الطبيعة إلى الحرية الإنسانية ذات الهدف والمضمون فشكّلا وأولادهما الجماعة البشرية الأولى التي تعمل وتكد وتلاقي الموت من أجل استمرار الحضارة التي ابتدأت معهما، وتشكل العلاقة مع المرأة في كلا القصتين نوعاً من طقس العبور، أو الطقس الإدخالي، الذي نقلهما من السذاجة الأولى إلى المعرفة. ففي سفر التكوين يغدو آدم وحواء عارفين بالخير والشر "وتتفتح أعينهما عقب المباشرة الجنسية، ثم يخرجان من جنة عدن، عالم الطبيعة الحيوانية، إلى الأرض عالم الطبيعة الإنسانية، ليعملا ويكدا)[٤].

وكذلك أنكيدو:

---

(١) التجليات الموضوعية والرمزية في نماذج الشعر القديم، ص٩٥.

(٢) تاريخ الطبري، ١/ ٧٢- ٧٣.

(٣) سفر التكوين، ٢/ ١٦.

(٤) السواح، فراس: جلجامش ملحمة الرافدين، ط١، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦، ص٢٧٢- ص٢٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

(تعثر أنكيدو في جريه، صار غير الذي كان

لكنه غدا عارفا، واسع الفهم) [١].

وبعد ذلك ينتقل أنكيدو إلى حياة المدنية، حيث الحياة البشرية المليئة بالمتاعب والصعاب، ولما كانت الحية مسئولة عن خسارة جلجامش نبتة الخلود التي تعيد الشيخ شابا، كانت كذلك نفسها المسئولة عن خسارة آدم الخلود في الجنة، وكانت النتيجة لكل منهما الشقاء والمتاعب والآلام والموت.

وكانت نتيجة عصيان آدم وحواء لوصية ربهما أن بدأت الحرية الإنسانية، حيث عاش آدم في انسجام مع الطبيعة، ولكن بعد العصيان أصبح يعرف الخير ويعرف الشر، ويعرف نفسه، وتمثلت لعنة الله للإنسان بإيجاد صراع بينه وبين الحية.[٢]

كما عوقب آدم، لأنه سمع لزوجته، وأكل من الشجرة، فلعنت الأرض التي سيجد فيها التعب والكد من أجل الحصول على لقمة العيش بمرارة، (ملعونة الأرض بسببك، بالتعب تأكل منها أيام حياتك، وشوكاً وحسكاً تنبت لك ، وتأكل عشب الحقل، بعرق وجهك تأكل خبزاً حتى تعود إلى الأرض التي أخذت منها، لأنك تراب، وإلى تراب تعود)[٣].

هذا ما وضحه الشاعر من انتقال آدم من حياة النعيم، إلى حياة الأرض حيث الشقاء والآلام والتعب، وكذلك خسارة ابن آدم الخلود، فيقول الشاعر: (يعمرها) والعمارة تعني الخلود، ولكن حياة الأرض ليست خالدة، فالتراب مآل الإنسان، وهذا أكبر خسارة، وأعظم عقوبة تفوق قضية الأكل والشرب، فحياة الأرض لها بداية ونهاية، وفيها الاختيار، وفي الآخرة المصير.

ومن تبعات العصيان الذي كان سببه الحية الشقاق والعداء بين الرجل والمرأة (ومع هذا تشتاقين إلى الرجل، على أنه سوف يسود عليك)[٤] وذلك بعد أن كانت صاحبة المبادرة، وكانت صاحبة السيادة، (ففي شخص حواء نرى المرأة المتفوقة على الرجل، فهي تمسك بزمام

(١) جلجامش ملحمة الرافدين، ص٢٧٢- ص٢٧٣.

(٢) فروم، إريش: الحكايات والأساطير والأحلام مدخل إلى فهم لغة منسيه، ترجمة صلاح حاتم، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٠، ص١٨٣.

(٣) سفر التكوين، ٣/ ٦.

(٤) المصدر نفسه، الإصحاح الثالث، ص١٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المبادرة، وتأكل من الثمرة المحرمة، ولا تستشير آدم قبل ذلك، بل تعطيه الثمرة ببساطة ليأكلها، وحين ينكشف أمرهما لا يستطيع أن يقدم إلا أعذاراً غير مناسبة شبه خرقاء، ولا يكون لمكانته المرموقة رسوخها وأسبابها إلا بعد الخطيئة) [1]. وكأن الحية كانت صاحبة فضل بالنسبة لآدم الذي تحول من حالة إلى حالة.

ومن الروايات نرى أن أصل الحية إبليس، وأنه (دخل الجنة في صورة دابة ذات قوائم، فكان يرى أنه البعير، ...، فلعن، فسقطت قوائمه فصار حية)[2].

ومن الأخبار كذلك نرى أن الحية توحدت صراحة بالشيطان حين تسلل إبليس إلى الجنة داخل جوف الحية، والحية هي التي أغرت حواء بالأكل من شجرة المعرفة، فكان قد استجاب آدم بإغراء من حواء، وعلى هذا فإن الثلاثة: الحية والشيطان والمرأة، ما هم إلا وجهاً واحداً لنفس البطل)[3]. وما يؤكد علاقة الحية بالشيطان ما ورد عن سيدنا عيسى عليه السلام حين دعا (ربه أن يريه موضع الشيطان من ابن آدم، قال فخلا له، فإذا برأسه مثل الحية واضع رأسه على ثمرة القلب، فإذا ذكر العبد الله حنش برأسه، وإذا ترك الذكر مناه وحدثه)[4]. فقال تعالى: (مِن شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ، الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ)[5]. وبهذا تكون الحية مطية الشيطان الذي مثل شخصية رئيسة على مسرح الأحداث، وهذا التمثيل يتناسب مع الأخبار الإسلامية التي رأت أن الشيطان هو الذي وسوس لآدم وزوجته، ففي قوله تعالى: " فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ "[6]. وما جاء في قصيدة الشاعر الجاهلي التي اعتمد فيها على التوراة، يتفق جزئياً مع الروايات والأخبار الإسلامية من حيث الخلق المتمثل في ستة أيام، وخلق آدم وحواء.

ومن الأشعار التي تظهر الدور الرئيس للشيطان في قصة الخطيئة والمعصية، ولا تظهر دوراً للحية على الإطلاق، وإن كنا نشك في مثل هذه الأشعار، إلا أنها تمثل فكراً كان معتقداً قول آدم حين قتل ابنه قابيل هابيل:

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليها   فَوَجْهُ الأرضِ مُغْبَرٌّ قَبيحُ

(١) الحكايات والأساطير والأحلام، مدخل إلى لغة منسيه، ص١٧٥.
(٢) تاريخ الطبري، ١/٧٣.
(٣) عبد الحكيم، شوقي: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ط١، دار العودة، ١٩٨٢، ص١٨٧.
(٤) أحكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان، ص١٩٩.
(٥) الناس، الآيتان ٤، ٥.
(٦) الأعراف، آية ٢٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تَغَيَّرَ كلُّ ذي لَوْنٍ وطَعْمٍ وقَلَّ بشَاشَةَ الوجـــهُ الصَّبيحُ
وجاوَرَنا عدوٌّ ليسَ يَفْنَـــى لَعينٌ لا يمـــوتُ فنســـتريحُ

أهابلُ إن قُتِلْتَ فإنَّ قلبي عليكَ اليومَ مُكتئبٌ قـــريحُ!![1]

فما كان من عدوه اللدود إبليس إلا أن أجابه:-

تَنَحَّ عن البلادِ وساكنيهـــا فقدْ في الخُلْدِ ضاقَ بك الفسيحُ
وكنتَ بها وزوجُكَ في رَخاءٍ وقلبُكَ من أذى الدنيـــا مُريـــحُ
فما بَرِحَتْ مكايَدتي ومَكْـــري إلى أنْ فاتَكَ الثمـــنُ الرَّبيـــحُ
ولولا رحمةُ الرحمـــنِ أمْسَى بِكَفِّكَ مِنْ جِنانِ الخُلْدِ ريحُ!![2].

فالأشعار تمثل صدى مرحلة التحول الأولى بعد المعصية الســـماوية، فـــالأرض تغيـــر وجهها، وتغيرت أحوال كل ما عليها من حالات القبول إلى حالة السوء، وعـــدو آدم لا يمـــوت وهو ملعون كما لعنت الحية، حتى أن الشيطان يسرد الأحداث التي تعرض لها آدم وزوجه فـــي الجنة، وبهذا يمكن القول إن قول إبليس يعكس معرفةً مغرقةً في القدم الزمني، الأمر الذي يـــدلل على ضلوعه في الأحداث سواء بالتوحد مع الحية أو بدونها.

وبهذا يمكن القول إن بداية علاقة الشيطان بالحية تمثلت بالجنة يوم سعيا إلى طـــرد آدم منها، فمن الشعراء الذين أفصحوا عن هذه العلاقة أمية بن أبي الصلت الذي قال:

كـــذى الأفعى يربيهـــا لديـــه وذي الجِنّيّ أرسلهـــا تُســـابُ
فـــلا رب البريـــة يأمننهـــا ولا الجنّـــي أصبح يُستتـــابُ[3]

وإذا عقدنا مقارنة بين ما جاء في قول الشاعر عدي بن زيد الذي اعتمد فيه كلياً علـــى التوراة، وما جاء في القرآن الكريم المصدر الأول في التشريعات الإسلامية، تبـــين لنـــا أنـــه لا

---

(١) جمهرة أشعار العرب، ١/ ١٤٠، وينظر، ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: قصص الأنبياء، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص٤٦، وينظر، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣: ٣٣.

(٢) المصدر نفسه، ١/ ١٤١.

(٣) ديوانه، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

حضور للحية في قصة الخطيئة والمعصية، لكن هناك اتفاقاً على أن حواء جـزءٌ مـن آدم فـي قوله: "يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُواْ رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا (1).

ثم أسكن الله آدم وزوجه الجنة ليعيشا عيشة هانئة، في قوله تعالى: " وَيَا آدَمُ اسْكُنْ أَنـتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ فَكُلاَ مِنْ حَيْثُ شِئْتُمَا وَلاَ تَقْرَبَا هَـذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ "(2). إذاً هذه هي حياة الجنة التي تمثل السعادة والراحة لهما، شرط أن لا يأكلا من الشجرة التي لم يفصح الله عن ماهيتها، وكأن الهدف هو اختبار آدم، وصبره وقوة تحمله. لكن الشيطان كان بالمرصـاد لهمـا، ولم تكن الحية كما ورد في النص الشعري الجاهلي، ونصوص التوراة، (فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّـيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْءَاتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَـذِهِ الشَّجَرَةِ إِلاَّ أَن تَكُونَـا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ)(3). أغراهما الشيطان بتحولهما من بشرٍ إلى ملك، أو نيل الخلـود، وهذا عكس ما هو متوقع، فقد خسر آدم النعيم والراحة والخلود. خاصة أن الله كان قد حذره من الشيطان في قوله تعالى: " فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْـقَى، إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَى، وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَى"(4). وقد حذر الله آدم من معصيته ومن عاقبتها حيث الشقاء الذي ورد في نص عدي بن زيد المتعلق بالجوع والمـرض والتعـب، فالنتيجة واحدة وهي خسارة الخلود، وحياة النعيم، والشقاء الأبدي على وجه الأرض.

وهناك تشابه واضح وهو اللجوء إلى ورق الشجرة التي كانت في النص الشعري شجرة تين، وفي النص القرآني لم تحدد هويتها، حيث عمدا إلى ورق الجنة لإخفاء السـوأتين، (فَأَكَلَـا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ)(5)، وفي هذا قال عدي بن زيد:

فَعَمَدَا للتي عَنْ أكلهـا نُهِيـا ... بأمْرِ حواءَ لم تأخذ له الدَّغَـلا

كِلاهُما خاطَ إذْ بـزَّا لُبُوسَهُما ... مِنْ وَرَقِ التِّينِ ثَوْباً لَمْ يَكُنْ غزِلا(6)

وتمثلت عقوبة الله لآدم وزوجه في قوله تعالى: "قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِـبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى، وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَـهُ

---

(٤) النساء، آية ١.

(١) الأعراف، اية ١٩، وينظر، البقرة، آية ٣٥.

(٣) المصدر نفسه، آية ٢٠.

(٤) طه، الآيتان ١١٧-١١٩.

(٥) المصدر نفسه، آية ١٢١.

(٦) ديوانه، ١٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى "[١]، فكان الهبوط عقاب الله لهما، لأن فيه التحول من الثبات وهو النعيم، إلى مرحلة جديدة ستصبح هي الثبات مؤقتاً، وهي الأرض حيث الشقاء الدنيوي، وما يتبعه في الآخرة للذين يبقون ضالين وراء الشيطان. وكأن المقصود بكلمته تعالى (جميعاً) الفريق الثلاثي المتمثل بإبليس وآدم وحواء، وتبقى عبارة (معيشة ضنكى) مفتوحة على مصراعيها، أمام كل المتاعب والمصاعب سواءً أكانت نفسية، أم جسمية، أم مادية، أم روحيةً إلى يوم الدين.

وكما عوقبت الحية في النص التوراتي والنص الشعري الجاهلي، عوقب إبليس في قوله تعالى: " قَالَ فَاهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَاخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ الصَّاغِرِينَ "[٢]، وكما تعهدت الحية باستمرارية عدائها لابن آدم، كذلك تعهد إبليس، فجاء على لسانه في قوله تعالى: "فَبِمَا أَغْوَيْتَنِي لأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَاطَكَ الْمُسْتَقِيمَ "[٣].

فإذا خلصنا إلى القول يتبين لنا أن عناصر القصة جميعها موجودة باختلاف بعض الشخصيات كالحية، وإبليس، كلٌ حسب رؤية المصدر، فالمعصية وقعت، والعقاب تم، والعداء مستمر بين أطراف الصراع إلى يوم الدين، خاصة أن من صور الشيطان الحية، وبذلك يبقى التوحد قائماً من حيث الماهية والكيفية والغائية لكل طرف.

فما قاله الشاعر عدي بن زيد حول إغراء الحية حواء وآدم، كان قد ورد في الأساطير السومرية التي جمعت بين عناصر القصة، فهناك شجرة الحياة التي يجلس على يمينها رجل، يمثل آدم، وعلى يسارها امرأةٌ تمثل حواء، وقد أخذت الحية تهمس في أذن المرأة، فهذه الشجرة الموجودة على ختم سومري، ينظر شكل (٤)، تمثل السقوط الإنساني حسب الرواية التوراتية - التي تظهر عملية إغواء الحية التي تظهر خلف المرأة منتصبةً على صورة من يهمس في أذنها[٤]-، والقصيدة الجاهلية.

فالطبيعة الشعرية للعصر الجاهلي (جعلت من لغة الشعر لغة رمزية وثيقة الصلة بلغة الأسطورة، بحيث ترتد أكثر الصور الشعرية إلى أصول "ميثولوجية"، مغرقة في القدم، وتتشكل

---

(١) طه، الآيتان١٢٣-١٢٤.

(٢) الأعراف، آية ١٣.

(٣) المصدر نفسه، آية ١٦.

(٤) بخور الآلهة، ص١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الصور والتعبيرات تشكيلا جديدا تخفى معه الينابيع الدينية التي صدرت عنها هذه الصور وهذه التعبيرات)[1].

وقد تكفل النص الشعري لعدي بن زيد (باستعادة مواضيع قديمة خرافية أو أساطيرية، تستند إلى مرجعيات ثقافية أصبحت هي بدورها غائبة، ولكنها ما تزال تشكل نوعا من التغذية الإرتجاعية، وقابلة لأن يتفاعل المتلقي معها وأن يستجيب لها، من أجل بناء تجربة جمالية متميزة يتأمل من خلالها ذاته وما بناه من رؤى وتصورات وأفكار تستمد جاذبيتها وسحرها من نزعتها إلى تجاوز كل ما هو جاهز أو ثابت، محبذا استقراء الذاكرة والتاريخ واللاوعي وتأويلها)[2]. (وتقدم الأسطورة مثلما يقدم الحلم تماماً قصة تجري حوادثها في المكان والزمان وتعبر بلغة رمزية عن أفكار فلسفية ودينية وعن تجارب روحية ينطوي فيها المعنى الحقيقي للأسطورة)[3].

فالمعارف الموجودة في النص الشعري السابق (موجودة في ذاكرة الجماعة بشكل عشوائي، انطلاقا من مدة الخلق (ستة أيام)، مع اختلاف في تقسيم هذه الأيام، ثم تسمية الله لآدم ونفخ الروح فيه، وإسكانه الجنة هو وزوجه، وخروج زوجه من ضلعه، ونهيه أن يأكلا من الشجرة ووجود الحية التي أغرت حواء بالأكل من الشجرة، ثم الأكل منها وعقاب الله (آدم وحواء والحية). تلعب الحية هنا وجودا شبه مؤكد لا ينفصل عن قصة الخلق إلا فيما جاء بعد الإسلام)[4].

وتتكرر معصية حواء وآدم، ولكن بصورة مغايرة من حيث الزمان والمكان والسبب في الإغراء. فقد أنزل الله من السماء ملكين من الملائكة إلى الأرض بعد أن ركّب فيهما شهوات الإنسان، وذلك لامتحانهما، فما كان من (الزهرة) إلا أن فتنتهما بجمالها الساحر، وأبت أن تمنح نفسها لهما، إلا أن يكونا على أمرها ودينها، وأخرجت لهما صنما يعبدانه ويسجدان له، فامتنعا وصبرا ردحا ثم أتياها وراوداها عن نفسها فأبت ثانيه، واشترطت عليها إحدى ثلاث: إما عبادة الصنم، أو قتل النفس، أو شرب الخمر، فقالا: كل ذلك لا ينبغي، ثم احتدمت بهما الشهوة فآثرا أهون المطالب، وهو شرب الخمر فسقتهما حتى إذا أخذت الخمر منها وقعا بالزهرة، وهنا يمر بهما إنسان فيخشيان الفضيحة فيقتلانه! ويشاءان الصعود إلى السماء، بعد أن عرف وقوعهما في

---

(١) بخور الآلهة، ص١٣٥-١٣٦.

(٢) التجليات الموضوعية والرمزية في نماذج الشعر القديم، ص٩٨.

(٣) الحكايات والأساطير والأحلام، مدخل إلى فهم لغة منسية، ص١٤٥.

(٤) المرجع نفسه، ص٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخطيئة فلا يستطيعان، ويكشف الغطاء بينهما وبين أهل السماء، فتنظر الملائكة إلى ما وقعا فيه من الذنب فيعجبون كل العجب، ويأخذونه في الاستغفار لمن في الأرض من البشر(١). وقد كان هذان الملكان هاروت وماروت، وكان حسابهما نتيجة المعصية أن أصبحا في بابل يعذبان في بئر إلى يوم الدين(٢).

نلاحظ مدى الاتفاق في طبيعة المعصية، وأن الجاهليين قد اعتقدوا بالمعصية، وأن المرأة في الخطيئة الأولى هي المسؤولة، وأن الزهرة كأنثى كذلك هي المسؤولة في معصية الملكين، وكان آدم والملكان هم ضحية العصيان الذي كان سببه الأنثى.

وقد صارت العداوة بين الحية وآدم مكتوبة على الناس والحيات منذ أن أخفت الحية إبليس، ومكنته من الوصول إلى حواء.(٣) لهذا امتدت العداوة منذ ذلك الزمن الفردوسي حتى الزمن الأرضي المتصف بالشقاء، بما يتبعها من متاعب ومشاق للجميع، امتدت العداوة إلى العصور الإسلامية، وكأن هذا الصراع لا ينتهي إلا بانتهاء الحياة الدنيا، إذا تذكرنا أن عقاب المشركين يوم القيامة الحيات.

بقي الشاعر الجاهلي حذراً من حواء التي رأى فيها سبب عملية الإغواء الأولى التي كانت في الجنة، لذا يبقى الخوف منها ملازماً له ، ولا يجد فيها مأمناً، فهذا جران العود يحذر بشدةٍ من المرأة النوفلية التي لم يجد فيها ثقة مطلقةً، خاصة أنها تستعمل مغريات عدة غير لسانها المعسول التي أغرت به يوماً أباه في الجنة فيقول:

ألا لا يغرنَّ امرأً نوفليةٌ   على الرأسِ منها، والترائبُ وُضَّحُ(٤)

وينبه عبيد بن الأبرص إلى إرث تاريخيٍ قديم جداً، حيث يبقى القلب حزيناً سقيماً على ما فاته من نعيم الجنة، وكأنه يستحضر الزمن القديم، والمعصية الأولى في قوله: (فقد أورثت في القلب سقماً)(٥).

(١) عبد الرحمن، إبراهيم، التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، إبريل، ١٩٨١، ص١٣٠.

(٢) التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي، ص١٣٠.

(٣) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٨.

(٤) الحيوان، ٢٤٦/٤.

(٥) ديوانه، ص٦٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ولا ينسى الشاعر الجاهلي لسان الحية التي أغرت حواء وآدم في الفردوس فكان لسان المرأة معسولاً في تبليغ رسالة الحية، وذلك لإقناع آدم، وبهذا صور لسان الحية بحركته الخفيفة المرنة المحنكة المقنعة بمكحال عين المرأة الذي يزينها لتغري بها الآخرين، فلغة العيون الجميلة لا تقل أهمية عن لغة اللسان الذي يفتن الآخرين ويوقع بهم.

الخلود والحياة

اعتقد الإنسان الجاهلي أن الحية لا تموت إلا بعارض (لأنها تذبح، وربما قطع الثلث منها فتبقى أياماً تتحرك، وقد تعيش إن سلمت من الذر)(١) فمن الأمثال (أضل من الحية)(٢) وذلك لأنها إن دخلت بيت غيرها وخربته، ذهبت إلى غيره. ونظراً لأهمية الحيوان في حياة الإنسان القديم، سمّى العربي نفسه ببعض أسماء الحيوانات.

ومن معتقدات العرب التي تظهر رمزية الحية في الخلود أن هناك نوعاً يسمى الأصلة يعمر كثيراً، فهو (عظيم جداً له وجه كوجه الإنسان، ويقال إنه يسير كذلك إذا مرت عليه ألوف من السنين)(٣). الأمر الذي يدلل على مدى اعتقادهم بخلود الحية، وأنها لا تموت إلا بعارض. وعن زمان وجودها السماوي، فهي موجودة قبل آدم، فكان (الله تعالى خلقها من قبل أن يخلق آدم بألفي عام)(٤). وكانت حارسة الجنة، وهذه الحراسة تثبت قدمها وسبقها لغيرها من أهل الجنة، ودليل ذلك أن الطاووس استأذنها دخول انجنة، وللحصول على الخلود.

بذلك رأى الإنسان الجاهلي نفسه عاجزاً أمام قوة الحية التي تعمر آلاف السنين، فقالت العرب: (رماه الله بأفعى حارية)(٥). وهي الحية التي تتحرى، وكلما كبرت في السنين صغرت في الجسم(٦). يجدد الشاعر الجاهلي نظرته حول الحية، حتى أنه كلما صغر حجمها زاد رهبة وحساباً لها، وهذا دليل على القوة المعنوية التي تكتسبها الحية بفعل الزمن الأمر الذي قد (يدفع الإنسان للتفكير في فلسفة القوة والضعف في الوجود كله، فليست القوة أو الضعف دائماً في المظهر، إذ ربما أدت القوة الظاهرة إلى أن يعرف الضعف حجمه الحقيقي وأن يتلمس إلى القوة

(١) إبن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد: العقد الفريد، شرح أحمد أمين، إبراهيم الأبياري، عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٩، ٦/٢٤٣، وينظر، الحيوان، ٤/١١١، ٦/٥٤.

(٢) الحيوان، ١/٢١٢، ٤/ ١٦٩.

(٣) حياة الحيوان الكبرى، ١: ٣٩٣، وينظر، حياة الحيوان بين التوحيدي والدميري والجاحظ، ص١٥٤.

(٤) قصص الأنبياء، آية ٣٧.

(٥) الحيوان، ٤/٢٤٤.

(٦) المصدر نفسه، ٤/٢٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

في صراعه من أجل البقاء، وسائل أخرى ليست جسدية كوسائل الخداع الذكي والخبث الواعي، قد يلجأ في استنزال القوة إلى أسلوب المبالغة في الضعف فهو أسلوب قادر في أحيان كثيرة على إيصال الضعيف غاية لا يستطيعها أقوى الأقوياء، وعلى العكس من ذلك ربما أدت قوة الجسد بصاحبها إلى الغرور أو الثقة المطلقة التي تعطل عنده تجربة الوسائل الأخرى، والتفكير في درئها حتى يؤخذ على حين غِرَّة ويقع في حبائل ذكاء الضعيف، فالقوة هي قوة المخبر لا المظهر)[١].

وبالتالي فإن نظرة العربي إلى الحيوان في الجاهلية لا تلتزم بمقياس قوة الحيوان، فقد يهابون الغراب والجراد، ولا يهابون الأسد والذئب من حيواناتهم، ولعل السبب اعتدادهم بالقوة المادية وخورهم وضعفهم من القوة الميثولوجية، فقد يفزعهم نعيب الغراب ولا يفزعهم زئير الأسد)[٢].

ومن أمثال العرب التي توضح خلود الحية وطول الزمن الذي تشغله (أطول من ذماء الحية)[٣].

إن نظرة الجاهليين إلى الحية تتعدى كونها حيواناً عادياً يلدغ ويميت، فهم ينظرون إليها على أساس من الطوطمية، لذلك (يتقربون إلى طوطمهم، محاولة منهم في كسب رضاه، فيقلدونه في شكله ومظهره، وقد يلبسون جلده أو جزءاً من جلده، أو يعلقون جزءاً منه في أعناقهم أو أذرعهم على نحو من التعاويذ. لأنه يحميهم بذلك ويمنع عنهم كل سوء)[٤].

لجلد الحية أهمية عظيمة وبعد رمزي في الفكر السومري، فهو يدل على الصحة والتجدد والحيوية والشباب لدى السومريين[٥]، وأن لبس الجلد ظاهرة قديمة قدم عشتار البابلية، التي كانت تغطي جسمها بحراشف الحية، لأن في ذلك تجديداً للنشاط والحياة، خاصة أن القدامى

---

(١) الصورة الفنية في النقد الشعري، ص ١٢٤.

(٢) كبه، نجاح هادي: آثار من طوطمية الحيوان عند العرب، التراث الشعبي، العدد الثالث عشر، السنة الثانية، ١٩٧٧، دار الحرية للطباعة – بغداد، ص ١١٤.

(٣) جمهرة الأمثال، ٢/٢٠، وينظر، مجمع الأمثال، ١/٥٣٨.

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/٥١٩.

(٥) بخور الآلهة، ص ١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رأوا في ذلك تجديداً من الدورة الشهرية للقمر(١)، فيبقى التلاحم بين الحية وتجديدها لحياتها مع التجديد القمري.

يدرك المتأمل للأساطير القديمة والشعر الجاهلي أن هناك اهتماماً قوياً بجلد الحية، فهذا جابر التغلبي يقول في معرض الحديث عن قوة قومه:

يرى النَّاسُ مِنَّا جِلدَ أسْوَدَ سَالِخٍ ... وَفَرْوَةَ ضِرْغَامٍ مِنَ الأُسْدِ ضَيْغَمِ(٢)

فبيت الشاعر لا تخفي دلالاته، فهو يستحضر فكر الشعوب السابقة كالسومريين والبابليين، فسلخ الحية جلدها يدل على مواصلة الحياة ونشاطها وقوتها، واستمراريتها، لأنه كلما سلخت جلدها ظهرت نقطة على قفاها، وهذا مؤشر على طول عمرها، فعادة السلخ تكون بعد فترة زمنية من حياتها ويعني ذلك تجديد صحتها، فهو سلخ للتعب والإرهاق والضعف الجسمي، وتجديده يعني استقبال مرحلة زمنية جديدة، تحمل في جزئياتها القوة والصحة والشباب، فهو حياة جديدة بالنسبة لها خاصة أنه لا (ينسلخ إلا بعد سنين كثيرة)(٣). الأمر الذي يدل على طول عمرها غير المحدد في الأساطير والروايات وعند العلماء، فهي (تضعف في أيام السلخ ثم تشتد بعده)(٤). فاختار الشاعر الحية السوداء، وركز على جزء مهم منها، لأن عنده يقيناً بأن هذا الجلد يعكس قوة وصلابة في تحمل المشاق والظروف القاسية، وقد قرنه مع فروة الأسد، واختار أن يكون الجلد سالخاً لأنه يمثل فترة نضوج كاملة للحية، ومرحلة استقبال لمرحلة أكثر قوة، فعملية السلخ فاصلة بين مرحلتين، وتجديد العهد على مواصلة القوة، لذا حرص الشاعر على تبليغ رسالة طويلة الأمد، وهي القوة السرمدية، التي لا تنتهي بجيل من القبيلة بل تستمر من زمن إلى آخر، ومن جيل إلى جيل، فرأى في الجلد السالخ جيلاً منصرماً من قومه، لكن مع بزوغ جيل جديد. فالتجديد يعني القوة ومواكبة الزمن، فهذا دليل على علاقة الفكر الجاهلي بالفكر الإنساني، فتغطية عشتار جسمها بحراشف الحية دليل على إيمانها بقوتها وخلودها، الأمر الذي انعكس على سلوكها وشكلها. خاصة أن هناك ربطاً بين تغيير الحية جلدها والدورة الشهرية للقمر،

---

(١) لغز عشتار، ص١٣٦.
(٢) المفضليات، ٢١٢.
(٣) الحيوان، ٤/ ٢٦٨.
(٤) المصدر نفسه، ٤/ ٢٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الأمر الذي يضمن استمرار الزمن والخلود. وذكر الشعراء سلخ الحية كثير التكرار لديهم مما يؤكد أنها ظاهرة عامة وليست خاصة، الأمر الذي يصور لاشعوراً جمعياً لديهم(١).

اكتسبت الحية رمزية الخلود والحياة في الفكر الإنساني منذ العصور الزمنية القديمة، تحديداً في عهد جلجامش البابلي، الذي سعى جاهداً للحصول على الخلود من الآلهة التي لم تدخر جهداً في ذلك، وكان ما كان من رحلته الطويلة الشاقة، فحصل على نبتة الخلود التي أطلق عليها "الشيخ يعود شاباً"، لكن الحية سرقت النبتة من الماء خلال عودته، ومنذ ذلك اليوم صارت تجدد جلدها الذي يعني انتهاء مرحلة زمنية، واستقبال مرحلة جديدة ذات شباب وقوة وحيوية.

إن هذه الحادثة كانت المرحلة الثانية في حياة ابن آدم التي خسر فيها الخلود، فكانت الأولى يوم أغرته الحية للأكل من شجرة الفردوس، والثانية يوم اكتسبت الخلود وأفقدته لجلجامش، يومها بكى جلجامش بكاء الندم والخسارة الأبدية.

كل هذا مؤشر على خلود الحية، وبقائها، فهي تمتلك آلية البقاء دون غيرها من الكائنات وهي الجلد، فهذا عدي بن زيد يقول: (ولم يجعل لها أجلا)(٢)، فهي خالدة قوية، وخلودها نابع من جلدها. وعبر عن طول عمرها وخلودها بقوله: "تمشي على بطنها في الدهر ما عمرت"(٣). فجاء اختيار الشاعر الفعلين "يجعل، وتمشي" ليدل بهما على الاستمرارية الزمنية غير المحددة، وهذا يعكس خلوداً وحياة قوية، فهي تمشي، ولن تتوقف، وقال: "في الدهر" ليمثل به طول الحياة كلها.

من مصادر قوتها ومظاهر خلودها أنها تعيش بالنسيم وتقتات به الزمن الطويل، إذا لم تجد طعاماً تأكله، وإذا كبرت صغر جسمها(٤). وشاع في الفكر الجاهلي أن الحية (تعيش ألف سنة وهي في كل سنة تسلخ جلدها وتبيض ثلاثين بيضة على عدد أضلاعها)(٥). ومما يزيد في أسطورة الحية لدى الجاهليين أن ابن طبق (ينام ستة أيام ثم يستيقظ في السابع) (٦). وقال شاعر

---

(١) ينظر، ديوان قيس بن الخطيم، ص١٨٣، ديوان أوس بن حجر، ص١٢٤.

(٢) ديوانه، ص١٦٠.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٠.

(٤) الحيوان ، ٤/١١٩.

(٥) المستطرف من كل فن مستظرف، ١/١١١.

(٦) فقه اللغة وسر العربية، ص١٨٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

جاهلي: (قد عاش حتى وهو لا يمشي بدم)[1]، وقال: (فكلما اقصد منه الجوع شم)[2]. لذا لا تواجه الحية مشكلة في حياتها، ولا صراعاً من أجل بقائها، فهي صامدة مهما قست الظروف، فديمومتها مرهونة بالنسيم، والحياة هواء، ولا حياة دون هواء، فهو الحياة، والحية تمثل هذه الحياة، التي هي من معانيها، لذا رأى الشاعر الجاهلي فيها رمزية الخلود والبقاء والحياة، فالشنفرى يتخذها في قوله:

فإما تَرَيْني كابْنَةِ الرَّمْلِ ضاحياً   على رِقَّةٍ أحفَى ولا أتَنَعّلُ[3]

فيؤكد على عظمة الحية وقوتها وصلابتها التي تقاوم قساوة الظروف، وكأن الشاعر يستلهم قوته منها، أو متخذاً منها قدوة التحدي والمقاومة من أجل استمرار حياته، خاصة أنه يتوق إلى الحياة رغم قساوتها، وكأن الشاعر يطمح إلى الخلود واستمرار المقاومة حباً في الحياة. خاصة أن الإنسان بحث منذ القدم (عن البقاء والخلود، وبقيت روحه حائرة قلقة، تتلقى الواقع بتحد مستمر، وتحولت حياته قلقاً وأرقاً وسهاداً، وهو يعيش حياة قصيرة متغيرة فيها الشيخوخة والمرض والضعف، والنهاية المحتومة، الموت الذي لا مفر منه، ووصل إلى الحقيقة المرعبة، وهي أن البقاء ممتنع على بني البشر، ما لبثت حركة الشمس في شروقها وغروبها، تصنع ماضي الإنسان وحاضره ومستقبله، فكل حي مصيره الفناء والزمان لا يبقى ولا يذر)[4].

ومن مظاهر ارتباط الحية بالخلود والحياة في الفكر الجاهلي، تسميتهم بأسماء الحية على اختلافها، وذلك انعكاساً لظاهرة التقدير. وهذه الرمزية قديمة جداً ترجع في أصولها إلى العهد الآشوري، حين سمي ملكهم "شلمنصر" بالأفعوان الكبير[5]، الأمر الذي يؤكد وجود بقايا طوطمية، فأسماء أشخاصهم وأماكنهم خير دليل على ذلك، يقول ثعلبة بن صعير في تشبيه الناقة:

تُضحِي إذا دَقَّ المطيُّ كأنها   فَدن ابن حية شادَهُ بالآجر[6]

---

(١) الحيوان، ٤/ ٢٨٣.

(٢) المصدر نفسه، ٤/ ٢٨٣.

(٣) ديوانه، ص ٦٨.

(٤) دراسات في الشعر الجاهلي، ص ٥٩.

(٥) تاريخ العراق-ايران-آسيا الصغرى، ص ٢٦٩.

(٦) المفضليات، ص ١٢٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتسمية العربي القديم بأسماء الحية دليل على رغبة لديه في امتلاك القوة والحيوية.

ومن مظاهر ارتباط الحية بالخلود والحياة نقش الجاهليين الحية على السيف، وذلك ليس لمنظر جمالي، بل لرؤية عميقة الفكر، بعيدة النظر، فهذا الحرث بن ظالم يقول:

علَوْتُ بِذِي الحَيَّاتِ مَفْرِقَ رأسِهِ   وَهل يَرْكَبُ المكْرُوهَ إلاَّ الأكارِمُ[١]

فقد كنى الشاعر عن ذكر السيف بذي الحيات لما يحمله من رسالتي الحياة والموت، فهذه صورة الفارس العربي الذي يجمع بين الحية رمز القوة والحياة والتجدد، والسيف ذي الوجهين: الحياة والموت، وهذه خير رسالة إلى عدوه حيث عمد إلى تبليغه رسالته التي تتضمن القوة والديمومة والتحدي، وكأن عناصر الحياة هذه مستمدة من الحية. فلهذا يؤكد ديرلاين ارتباط الحكايات الخرافية بالطوطمية، فيقول: (في الحضارات الطوطمية يتخذ المحاربون المنتمون إلى طوطم اسم الحيوان الطوطم شعاراً في أغلب الأحيان، وقد تركت هذه العقيدة أثرها في الحكايات الشعبية).[٢]

فكون الشاعر الجاهلي إنساناً بدائياً، جعله ذلك (يتصرف لحل قضاياه الوجودية بدوافعه الروحية أكثر من وعيه العقلي المجرد)[٣]. خاصة (أن الكتب التي تحدثت عن ديانة الجاهليين والنقوش المكتشفة التي سجلت هذه الديانة ووثقتها لتؤكد كلها على أنهم عبدوا الحيوان والطير والشجر والحجر بعد أن اعتقدوا حقاً بوجود أرواح خيرة أو شريرة فيها، بعد أن أحسوا بضرورة أن يتقربوا منها، وأن يتقوا الشر الذي يخشونه عندها)[٤].

وبذلك يحمل نقش الحية رسالتين: إحداهما ايجابية لصاحبه الذي يرى فيه الخير ، والأخرى سلبية لعدوه الذي يرى فيه الشر. فرسم الحية على السيف يماثله في الفكر القديم رسم حية توضع على أحجار الحدود، فكان إله لدى السومريين يتخذ لنفسه شكل الحية من أجل حماية الإنسان[٥]. وفي الفكر البابلي اتخذت بعض الآلهة لنفسها شكل عصا، وذلك تعبيراً عن القوة

---

(١) المفضليات، ص٣١٢.

(٢) عالم الأدب الشعبي العجيب، ص ١١١.

(٣) الرباعي، عبد القادر: الصورة الفنية في النقد الشعري، ط٢، دار مكتبة الكتاني، إربد، ١٩٩٥، ص١٢٤.

(٤) المرجع نفسه، ص ١٢٤.

(٥) إنجيل سومر، ص٦٢، وينظر قاموس الآلهة والأساطير، ص٣٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والعظمة والحياة القديمة[١]. ولأهمية الحية ودورها في الفكر الكنعاني رسمها فنانوهم على الأواني وأدوات العبادة[٢].

ويشارك معقل بن خويلد الهذلي الحرث بن ظالم في قوله:

وما عَرَّيْتُ ذا الحيَّاتِ إلا　　　لأقْطَعَ دَابِرَ العيشِ الحُبَابِ[٣]

فظاهرة رسم الحية أو نقشها ظاهرة قديمة الجذور تعود إلى العهد الفرعوني، فكان الملك يجعلها على تاجه، وذلك رمزا لقوتها ودورها في الحياة، وحاميا له، وتهديدا لأعدائه[٤]. كذلك وجدت الحية منقوشة على الأواني الفارسية[٥].

ومن المعتقدات المتعلقة بنقش الحية على الأشياء المتعلقة بالفرد أو الجماعة أن (الرجل البدائي كان يظن أنه إذا نقش رسماً لحيوان أصبح سيداً عليه، ونجح في اقتناصه)[٦]. فالحيوان في الحكايات الخرافية، (يقدم عوناً للبطل يفوق طاقة الإنسان. وهكذا نجد أن الكثير من حكايات الحيوان التعليلية ليس مجرد شروح صرفة للصفات الحيوانية، وإنما كثيراً ما ترتبط بالتفسير معرفة أسطورية، أي تغلغل في العالم الآخر)[٧].

إن للعرب نظرة طوطمية، لذلك (يرمز الطوطم إلى قوة غيبية دينية، وهو صورة لموجود مقدس، إذ أن الطوطم كرمز هو الصورة المرئية، يسميه "دوركايم "بالمبدأ الذي تعلق بموجود أسمى هو الموجود الطوطمي، كما أن صورة الموجود الطوطمي، التي ينقشها البدائي على الأخشاب أو الأحجار قد تكون أقدس من الطوطمي نفسه)[٨].

فالشاعر الجاهلي رأى أنه يموت ولكن الرمز لا يموت، فهو خالد يتمتع بقوة، لذلك (يموت الأفراد وتتعاقب الأجيال، وهذه القوة باقية حاضرة على الدوام في حيويتها وثباتها، تهب الحياة للأجيال القادمة)[٩].وبالنسبة للسيف ذي الحيات، فان (الجاهلي كان يهتم بذكر السيف كثيراً،

---

(١) معالم من حضارة وادي الرافدين، ص٦٠، وينظر، بخور الآلهة، ص٣٣٥.

(٢) تاريخ العراق-آسيا الصغرى، ص١٠٦، وينظر، تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين، ١٣٢/١.

(٣) تاج العروس من جواهر القاموس، مادة "حيي".

(٤) الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، ص٧١، وينظر، الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٤-٤٥.

(٥) لغز عشتار، ص١٣٦.

(٦) الأساطير: دراسة حضارية مقارنة، ص١٢٢.

(٧) الحكاية الخرافية، ص٨٨.

(٨) إسماعيل، قباري محمد: إميل دوركايم، منشأة معارف، الاسكندرية، ١٩٧٦، ص٢٢٤.

(٩) المرجع نفسه، ص٢٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فتصويره في الشعر أو ذكره لا يعني أنه من نسج الخيال معتمداً المادة التي يتحرك منها الرجل بسيفه، وإنما يعني أيضاً أن الشاعر يسترفد أعماقه المظلمة بما فيها من رواسب موغلة في القدم والعراقة)[١].

كان القمر معبوداً عند الجاهليين في صورة الصنم "ود" الذي كان على صورة رجل عظيم جدا، عليه حلتان، متزر بواحدة، ومرتد بالثانية، وكان يحمل سيفاً، ومعه قوس وحربة ونبل، وذلك دليل على عظمة الفارس[٢]. فالقمر في نظرهم رمز إلى تجديد الحياة وبالتالي يكمن خلودها بخلوده، وعبادتهم صنمه تجسيد لذلك، وتعكس مراحل دوراته دورات الفصول الأربعة التي تمثل الحياة. وكذلك الحية التي تجدد جلدها كل فترة زمنية، تبقى تتمتع بالقوة والحياة والخلود، وحمل الشاعر سيفاً عليه حيتان ما هو إلا تقليد ديني يجسد طقساً من العبادة والتقديس للحية.

"ود الهنا الحكم

رب الخلائق والأفاعي والمناجد والبهم

أن نملك ... فله الحياة"[٣].

تأثر العرب بمن سبقهم من الأمم، ومن جاورهم من الشعوب، وكانوا (يؤمنون بأن الطوطم لا يؤذي أتباعه، فلا يخافون منه، حتى وإن كان من الحيوانات المؤذية، التي تلحق الأذى بالإنسان، كالحية أو العقرب أو الذئب. وهم يعتقدون أيضاً أنه يدافع عنهم، وأنه ينذر أتباعه إن أحس بقرب نوع خطر على أتباعه، وذلك بعلامات وإشارات على نحو ما يقال له الزجر والطيرة والفأل) [٤].

ودليل تأثر العرب بالطوطمية تشابه الفكر الجاهلي مع الفكر الطوطمي، حيث (يؤكد عضو العشيرة على قرابته من الطوطم، وذلك بأن يتشبه ظاهرياً به، أو يلبس جلده، أو ينقش صورته على جسده)[٥].

---

(١) زكي، أحمد كمال: التفسير الأسطوري للشعر القديم، مجلة فصول، ص١١٩.

(٢) عبد الرحمن، إبراهيم: التفسير الأسطوري الجاهلي، مجلة فصول، ص١٣١.

(٣) زكي، أحمد كمال: الأساطير، دراسة حضارية مقارنة، ط٢، دار العودة، بيروت، ١٩٧٩، ص١٩٧.

(٤) المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام، ١/ ص ٥١٩.

(٥) فرويد، سيجموند: الطوطم والتابو، ترجمة بوعلي ياسين، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ص١٣٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومن مظاهر ارتباط الحية بالخلود أنها (تضع ثلاثين بيضة، ولها ثلاثون ضلعاً، وبيضها وأضلاعها عدد أيام الشهر)[١]. فهي علاقة قوية من حيث عدد بيضها، وعدد أضلاعها، وعدد أيام الشهر الذي يمثل القمر بعينه، وما البيض إلا استمرار الحياة، وخصوبة للحية، ولغيرها من كائنات الطبيعة، حيث تفنن الشعراء الجاهليون في تشبيه المرأة بالبيضة. وقد (تعبد العرب للكواكب والنجوم، ورمزوا إليها بالحيوانات والأشجار والأحجار، ليتمكنوا من تقديم القرابين والعبادات لها، ولآلهة السماء حياة كحياة البشر، فهي تحب وتغضب، وتكره وتنفر، وتتزوج وتتحارب، من أجل ذلك سموا كواكب السماء بحيوانات الأرض، ودارت حولها أساطير وخرافات كثيرة تفسر أشكالها وسيرها وخصائصها)[٢].

وما يشير إلى مكانة الحية عند الجاهليين عدم وجود شاعر جاهلي معين قام بقتل الحية، فجاء ذكرهم لها نوعا من الهيبة والرهبة والمكانة العالية القادرة على الحياة والموت. ومن أقدم (المحظورات التابوية المتعلقة بالطوطمية عدم قتل الحيوان الطوطمي إطلاقاً) [٣].

وما يدلل على ارتباط الحية بالحياة، رغم قسوة عناصرها، تحمل الحية حرارة الشمس اللاهبة الشديدة، لدرجة أن غيرها من الحيوانات لا يستطيع ذلك، فهي مستعدة أن تبقى تتحرك وتقاوم شدة حرارة الرمال، الأمرالذي يزيدها قوة وتحدياً من أجل ديمومتها، فهذا الشنفرى يقول:

وَيَومٍ من الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ   أفاعِيهِ في رَمْضائِهِ تَتَمَلْمَلُ[٤]

وقد ربط الشاعر بين قوة الحية وقابليتها للحياة والشمس المقدسة، والرقم سبعة مقدس، فالتنين (الحية ذو السبعة رؤوس) (تفسر بكون الرقم سبعة هو رمز الوفرة والجهات السبع، وعدد أيام الأسبوع، والكواكب السبعة المعروفة وقتذاك، والتي لها علاقة مع الكبائر السبع، أما الحية ذات الرؤوس الثلاثة فرمزت إلى النشاط والخمول والوسط بينهما، أما ذات الرأسين فإلى الحكمة، وفي الكيمياء القديمة رمزت الحية إلى مبدأ التقلب)[٥].

---

(١) الحيوان، ٤/١٧٠، ٦٨/٧.

(٢) دراسات في الشعر الجاهلي، ص١٠١.

(٣) الطوطم والتابو، ص٥٤.

(٤) ديوانه ص٧١.

(٥) رموز من عالم الحيوان، ص٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وكأن الشاعر ربط بين الشمس مانحة الخصب، وقوة الحية المتمثلة بالخلود والبقاء والتجدد والحياة، فالشمس مصدر قوة للحية، تمدها بالحياة وتكسبها القوة والبقاء وهذا ما يشير إلى تأكيد نظرة الشاعر إلى الحية باعتبارها رمزاً للبقاء، ومقاومة للقسوة.

إن نظرة البشرية إلى رمزية الحية إلى الحياة والخلود مستمرة، فكانت عند بني إسرائيل باعثة الحياة عندما صنع موسى عليه السلام الحية النحاسية. وهي عند العربي -في أحلامه- دليل على الحياة[١]. وقد بقي هذا الاعتقاد في فلسطين إلى يومنا (في الوسط الشعبي رمزاً للحياة، فالناس يتفاءلون برؤية الحية في المنام) [٢]. ذلك لأن (الحية حياة، وإذا رأى النائم في منامه حية فقتلها وأخطأها فذلك فأل حسن، لأن الحية سوف لن تثأر من النائم)[٣]، وبذلك تكون قد منحت له حياة جديدة. وبما أن الحية رمز الحياة في الفلكلور الفلسطيني، فإنها تنتج مادة لحياة الحيوانات، فمن أجل (حماية الحيوانات من لسع الأفاعي تجري الطريقة التالية: ترمى الأفاعي السامة في مزيج يغلي من الماء والزيت، وتترك مدة من الزمن ويمسح كل حيوان على أجزاء مختلفة من جسمه بهذا المحلول الذي يفترض أن يحتوي على مضاد السمّ، وتعرف هذه الطريقة باسم "حوي الحلال")[٤]. وهناك (بعض الجماعات البدائية تعتقد أن أكل قلب الحية أو كبدها يمنح القدرة على معرفة المستقبل من الطير)[٥]. ولا يزال هذا المعتقد موجوداً حتى يومنا فأكل (الثعبان يهب فاعله موهبة التفوق في فهم اللغات والتحدث بها)[٦]. ويعود هذا بالقارئ زمنياً إلى العهد اليوناني الذي رأى الشعب في الحية رمزاً للشفاء والحكمة والطب[٧].

---

(١) منهج ابن خلدون في تفسير التراث الشعبي، ص١٦٥ .

(٢) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، ص٢٧١.

(٣) المرجع نفسه، ص٢٧١.

(٤) كنعان، توفيق: الكتابات الفلكلورية، ترجمة موسى علوش، ط١، دار علوش للطباعة والنشر، ١٩٩٨، ٣٦/١.

(٥) يونس، عبد الحميد: الحكايات الشعبية، الهيئة المصرية العامة للكتّاب، القاهرة، ١٩٨٥، ص٣٢.

(٦) الكتابات الفلكلورية، ص٢٧٦.

(٧) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصب

ترتبط الحية بالخصب منذ العهد الأول الذي يعود إلى الفردوس، يوم كانت (... على شاطئ نهر الكوثر، وأكلها من الزعفران، وشربها من ذلك النهر)[1]. فوجودها على نهر الكوثر يدل على علاقتها المتينة بمعنى الماء والحياة، وهي تأكل الزعفران (والزعفران بلونه الأصفر، وما يدخل فيه من شتى الاستعمالات رمز متعدد الدلالات من معانيه الجنس والحياة)[2].

كما ارتبطت الحية بالشجرة، وفي ذلك دلالة على رمزية الخصب فيها، فإغواؤها آدم وحواء بالأكل من ثمر شجرة الجنة يكوّن دافعاً جنسياً لهما في جميع الثقافات[3]، وأما المرأة التي لم تكن تعرف معنى للحياة الجنسية، فبأكلها من الثمار عرفت خفايا هذه العلاقة مع آدم، حتى أن عقاب الله لهما منحهما قوة الإخصاب التي لم تكن قبل إغراء الحية. فلما (رأت المرأة أن الشجرة جيدة للأكل، وأنها بهجة للعيون، وأن الشجرة شهية للنظر، فأخذت من ثمرها وأكلت، وأعطت رجلها أيضاً معها فأكل فانفتحت أعينهما وعلما أنهما عريانان، فخاطا أوراق تين وصنعا لأنفسهما مآزر)[4].

وهناك علاقة ارتباط بين الشجرة والمرأة، ممثلة في الخصب ذاته، والحية هي الوسيلة المسببة للنتائج المتمثلة بأكل حواء من ثمار الجنة التي كانت سبب العلاقة الجنسية، فلولا الحية لما كان أكل، ولما كان اتصال جنسي لاحق وإخصاب، فمن هذا الاستعراض يتبين أن للحية صلة مباشرة بالخصب، فهي حارسة مياه الكوثر، والماء حياة (وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَيْءٍ حَيٍّ)[5]، والشجرة حياة، والمرأة حياة بنسلها وحفظ نوع البشرية، لذا كانت الحية بوصلة إخصاب الحياة لكل عناصر الحياة من ماء وشجر ونساء.

ومن اسم الحية تشتق الحياة، فهي خصب، ولا حياة دون خصب، ولا خصب دون حياة، لذا تؤكد كل الأدلة على رمزية الحية للخصب، فهي سبب انتقال آدم من مرحلة إلى أخرى، ويتكرر هذا التحول مع أنكيدو الذي انتقل من حياة الغابة الحيوانية، ومعاشرة الحيوانات، إلى حياة الحضارة البشرية يوم مارس الجنس مع المومس، فانتقل إلى الحضارة، وصار صديقاً

---

(١) قصص الأنبياء، ص٣٦.

(٢) موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية، ١/ ٣١٨.

(٣) المرجع نفسه، ١/ ٣١٩.

(٤) العهد القديم، سفر التكوين، ٣/ ٦.

(٥) الأنبياء، اية ٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لجلجامش الذي سعى إلى الخلود، وشغل الخصب فكر الإنسان الجاهلي، وذلك لما لها من أثر في استمرارية حياته، التي جهد في أن تكون ملائمة لطبيعة الحياة الصحراوية، وهذا ما تنبته الحروب والنزاعات التي كانت تقوم بين القبائل على مصادر العيش. فرأى الإنسان الجاهلي في المرأة البدينة رمزاً للخير والمكانة الاجتماعية والاقتصادية، والشجرة من بين تلك الأشياء المقدسة لدى الأمم، ومنهم العرب. وقد مثّل (اتحاد روح الآلهة بالأشجار الضخمة اعتقاداً ميثولوجياً وسحرياً واسع الانتشار في الجزيرة العربية، وعدّوا حياة الأشجار شرطاً لسلامة روح الآلهة التي ترتبط بها طقوسياً وسحرياً، لذلك كان لبعض الأشجار حراس من أبناء القبيلة ومن الكهنة والأتباع، وربما اعتقدوا بأن الأرواح الخفية تختار الأشجار الضخمة مسكناً لها، وتمنحها من روحها القوة والصلابة)[١].

فمن المظاهر المرتبطة بالخصب اجتماع المرأة والحية والشجرة في منظومة واحدة، فهذا مزرد بن ضرار الذبياني يقول:

وأسْحَمَ رَيَّان القُرُونِ كَأنَّهُ　　　أسَاوِدُ رَمَّانَ السَّبَاطُ الأطَاوِلُ[٢]

رأى الشاعر في شعر المرأة الطويل الأسود حيات شجر الرمان، انعكاس لنظرة جماعية رأت تلازمية بين المرأة والحية منذ العهد الفردوسي المرتكز على أبعاد ثلاثية: المرأة، والشجرة، والحية. وفي هذا دلالة على تلازم الحية بالشجرة التي كانت سبب طرد حواء وآدم من الجنة، فقد ذكر (أن الحية تتولد من شعر الإنسان إذا وقع في الماء، وأثرت الشمس فيه وأنها يكثر اختلاف أصنافها في الكبر والصغر ...)[٣].

فمن متطلبات خلق الحية شعر المرأة والماء والشمس، وبهذا يعكس العملية التي تؤلف عناصر الخلق، واستمرارية حياة أي كائن، ولما كانت الحية سبب طرد حواء وآدم من الجنة، فإن المرأة لم تفلت من عقاب الله، فعاقبها، الأمر الذي كان سبباً للخصب البشري، فعوقبت بوجع (الافتضاض، ثم الطلق، ثم النزع، ثم بقناع الرأس، وما يصيب الوحمى والنفساء من المكروه،

(١) دراسات في الشعر الجاهلي، ص٩٩.
(٢) المفضليات، ص٩٤.
(٣) عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات، ص٤٧٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

والقهر في البيوت، والحي، وأن الرجال هم القوامون عليهن، وأن تكون عند الجماع هي الأسفل).[1]

فالشاعر الجاهلي لم يكن بمنأى عن فكر قومه الذي مثل حلقة وصل مع الحضارات السابقة، فهذا الشماخ بن ضرار يمدح عرابة الأوسي قائلاً:

ماذا يَهيجُكَ من ذكْرِ ابنةِ الراقي إذْ لا تَزالُ على هَمٍّ وإشفـاقِ؟

قامتْ تُريكَ أثيثَ النَّبْتِ مُنْسَـدِلاً مثلَ الأساودِ قد مُسِّحْنَ بالفاقِ[2]

إن شعر المرأة الذي نطق به الشاعر، واعتبره نباتاً ظاهرةً تعود في جذورها إلى العهد البابلي الذي كانت فيه عشتار (تخرج من الشجرة في شكلها الإنساني الجميل، فحفرت على الجذع، وصارت تعبد شجرةً وشكلاً إنسانياً مصوراً)[3].

ارتباط شعر المرأة الأسود الطويل مع الحية السوداء رمز للخصب، وعندما تشتد خضرة النبات يميل لونه إلى السواد، لكثرة نموه ومائه الوفير، وبهذا يعكس شعر المرأة قوة خصوبتها، والحية السوداء أكثر الأنواع وروداً في الشعر الجاهلي لما لها من دلالات القوة والحياة.

وهذه العلاقة بين شعر المرأة والحية ظلت قائمة حتى عهد قريب في بلاد الرافدين، فعندما (يقتل أبناء الريف حية يشقون بطنها، ويضعون فيه شعيراً، ويدفنون الحية في الأرض فينبت الحب ويحمصونه على النار، ثم يسحقونه بالهاون كما يسحقون القهوة المحمصة، ويأخذون كمية منه يخلطونها بالزيت، وتدهن الفتيات بالخليط شعر رؤوسهن لكي ينمو ويطول، ويملس مرة في الأسبوع لبضعة أسابيع، كما تنمو الحية وتطول وتكون ملساء)[4]. وبذلك تكون الحية سبباً مباشراً لإخصاب جزء من جسد المرأة، الذي يمثل حية سوداء.

وعادة دهن الزيت تعود إلى الفكر السومري، حين كانت إنانا تقول لدموزي في طقوس الزواج: (في الحوض دهنت جسمي وكسوته برداء الملوكية، رداء ملكة السماء والأرض،

---

(١) الحيوان، ٤/١٩٩.

(٢) ديوانه، ص٩١.

(٣) لغز عشتار، ص١١٠.

(٤) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٦٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ووضعت الكحل على عيني، أما شعري فقد لمعته ومشطت خصله ووضعت شيكة دبوس الشعر الذي تحبه على رأسي، رطبت شعري المجعد وجملت جدائلي المجنونة)[١].

إن اهتمام الشاعر بالشعر والنبات ليس أمراً جاهلياً فحسب، بل يقودنا إلى إنانا السـومرية حين كانت تقول لدموزي: "يا كثيف الشعر مثل النخلة، أنت لي، يا كثيف الشـعر مثـل خرقـاء ملتفة، يا حبيبي ستة أضعاف شده على فخذي"[٢].

ومن معتقدات العرب القدامى أنه (إذا طرح شعر المرأة بطله في ماء البحـر، بحيـث لا يخرج منه صار حية ماء)[٣].

ومن الشعراء الذين ركزوا على المرأة البدينة وشعرها الأسود ذي الصلة بالحية السـوداء في الأبطح جران العود في قوله:

ألا لا تغرَّنَّ امرأً نَـوْفَلِيّـَةٌ	على الرَّأس منها، والترائِبُ وُضَّحُ
ولا فاحِمٌ يُسقَى الدِّهانَ كَأَنَّهُ	أسـاوِدُ يزهاها لعينيـك أبْطـحُ.[٤]

هذه المرأة الجميلة البدينة التي يتغذى شعرها فيزداد طولاً، الأمر الـذي يعكـس طـول خصوبتها للحياة البشرية، لم يجد الشاعر معادلاً موضوعياً لخصوبتها إلا الحيـة السـوداء فـي الأبطح الذي يفيض خصوبة لما حوله.

فظاهرة دهن الشعر بالدهون المختلفة ليست عربية فقط، بل تمتد إلى العهـد الإغريقـي الذي تجسد فيه الفكر حول الأم القمرية التي مثلت النساء اللواتي تنطلق حيات من رؤوسهن بدلاً من الشعر، وكان القمر مسانداً للحية بشكل دائم.[٥]

ويظهر (ارتباط الحية بالخلق والحياة الجديدة للإنسان واضحاً فـي قصـة حـواء وآدم، فحواء والحية كلاهما يشير إلى الحركة والتغير، الأولى نبع الخصوبة وأم المخلوقات، والثانيـة

(١) إنجيل سومر، ص٩١.
(٢) المرجع نفسه، ص٨٧.
(٣) الحيات في العالم، (بحث تاريخي فني علمي)، ص٢٠.
(٤) الحيوان، ٤/ ٢٤٦.
(٥) لغز عشتار، ص ١٣٨، وينظر، قصة الحضارة، ٢٩/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

سبب حرث الأرض والهبوط من الجنة، والانتقال إلى طور جديد)[١]. ومن العلاقات القائمة بين الحية والمرأة كما يرى أهل الرافدين أن الحية سببٌ في حمل المرأة المتزوجة التي لا تنجب، فالمرأة (المتزوجة العقيم يلقون عليها – دون علمها – حيّة ميتة أو ما يشبه الحيّة من الأشياء وألعاب الأطفال، فإذا شاهدتها خافت وجفلت وقفزت، وذلك لكي تحمل)[٢]. وتحدث فريزر ايضاً عن نساء أفريقيا اللواتي يحملن الإله الأفعوان[٣].

ويعتقد الهنود أن لرمز الحية المتمثل بأفعوانين متقابلين ملتفين على عصا قدرة على اعطاء الخصوبة للنساء العاقرات، لذا ينحتون الرمز على حجر، ويغمرونه مدة ستة اشهر في مياه بحيرة، لإكسابه قوة الحياة، ثم يخرجونه، وينصبونه تحت إحدى الأشجار[٤].

ومن عادات أهل الرافدين ما يدلل على علاقة الحيّة بالمرأة وخصوبتها، فهناك قضيب حيّة (وهو الحيوان الذي تقبض عليه الحية بفمها من طير أو ضفدع أو نار وتهم بابتلاعه ويستخرج منها بعد قتله، يجفف، تشده المرأة التي تجهض على بطنها لكي لا تجهض ثانية)[٥]. وهذا ما يرجع تاريخياً إلى العهد السومري الذي مثّل فكراً عمّر طويلاً، بحيث رأوا الحية (نمو) أصل العالم، فهي تضع ذيلها بفمها وتكوّن دائرة الحياة بدورتها الإخصابية[٦]. وهذا ما امتد إلى الفراعنة الذين اعتقدوا بقدرة الحية على الخصب والحياة والولادة، وذلك بسير الكائنات فيها بشكل معكوس خلال دائرتها المكتملة كدوران الشمس[٧]. فاجتمع (في الثعبان الثنائية الجنسية المتناقضة، فهو الرحم والقضيب، كما يتبين من رسوم ونقوش عالمية تمتد من العصر الحجري الجديد في آسيا حتى الحضارات الأمريكية الحديثة)[٨].

نظر العرب الجاهليون إلى المرأة على أنها سر الإخصاب، وقد كانت التماثيل الحجرية في العصور الوثنية تعكس اعتقادهم ذلك، فقد بولغ في تضخيم الأعضاء الأنثوية، ولذلك شبه الشاعر المرأة بالغزالة والمهاة والنخلة والظبية وبيض النعام والشمس، فجميع هذه العناصر

---

(١) زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص ١٧٨.
(٢) الحيّة في حياتنا وتراثنا، ص٦٥.
(٣) أدونيس، أو تموز، ص٦٧.
(٤) لغز عشتار، ص١٥٣.
(٥) المرجع نفسه، ص٦٥.
(٦) متون سومر، ص ٧٠، وينظر، انجيل سومر، ص ١٣.
(٧) وادي الملوك، ص ١١٠، وينظر، ديانة مصر القديمة (نشأتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة)، ص١٤٢.
(٨) الحية في التراث العربي، ص ١٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

رموز للشمس التي تسبب خصوبة الأرض وما عليها،[١] لقد جمع (الشعراء بين أشـعة الشـمس وشعر المرأة وقرون الغزالة عن طريق جمع دلالات الألفاظ بعضها إلى بعض).[٢]

وفي أفريقيا (يمثل الثعبان (دان) عند قبائل يوروباس الإفريقية (Yarubas) قوس قـزح الذي يجمع أعلى العالم وأسفله، ولا نراه إلا بعد هطول الأمطـار، وهـذا يـدل علـى الأمـان والطمأنينة، لأنه كما قيل جاء ظهوره بعد طوفان نوح عليه السلام ليدل على عـدم الغـرق)[٣]. ومن المعتقدات لدى قبائل الأبروز تخصيب الحية النساء، فمثلاً خصبت أم الأسـكندر المقـدوني من الحية[٤].

ومن الشعراء الذين ركزوا على خصوبة المرأة وجسمها، تأبط شراً، فقال:

وإذا تجيء تجيء شحبٌ خَلْفَهَا   كالأيمِ أصعَدَ في كثيبٍ يرتقي[٥]

لم يغب عن ذهن الشاعر الجاهلي صورة المرأة البدينة التي لم يجد لها معادلاً موضوعياً في الطبيعة إلا الحية أثناء سيرها، وكأن في هـذين العنصـرين تشـابهاً مـن حيـث الحيـاة واستمراريتها، وقوة قابليتها للاستمرار. فخصوبة المرأة مؤشر على قوة جسـدها الـذي يعنـي الإنجاب واستمرار الحياة، فدورة (القمر الشهرية وتحولاته ما بين الظهور والاختفاء، قـد فطـن القدماء إلى تناغم إيقاعها مع إيقاعات الدورة الشهرية للمرأة، وكأن دم الحيض في ظـنهم هـو مصدر تكوين الجنين لاختفائه مع الحمل، فهو مصدر الحياة)[٦].

وفي التراث الأسطوري العالمي، يرتبط الثعبان بالرمزية القمرية، كونـه زوج النسـاء، وسبب العادة الشهرية، خاصة أنه يجدد جلده كالقمر الذي يظهر فصلياً، فالقمر مصدر الخصوبة، وتشرف دورته على العادة الشهرية عند النساء[٧]. واقتران الحية بخصوبة المرأة ظـاهرة تكـاد توجد عند أمم العالم، تظهر في (الفلكلور الشرقي بوجه عام إذ إن النساء يمارسن عند سن بلوغ الرشد أول احتكاك جنسي مع ثعبان، ويعتقد أن هذا يعود إلى الخرافة العبرية (الرابينية الباطنية)

---

(١) التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي، إبراهيم عبد الرحمن، مجلة فصول، العدد الثالث، ص١٣٥.

(٢) المرجع نفسه، ص١٣٥.

(٣) الحية في التراث العربي، ص١٧٧.

(٤) المرجع نفسه، ص١٨٤.

(٥) شعر تأبط شراً، ص١١٤.

(٦) الأسطورة والتراث، سيد القمني، ص٣٠٣.

(٧) الحية في التراث العربي، ص١٨٦..

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

التي تقول بأن المرأة الأولى (حواء) قد حدث لها شيء من ذلك، بعد إغواء الثعبان لها)[١].

ومن المعتقدات العالمية أن العادة الشهرية حدثت (من جراء عضة الثعبان الشهوانية كما يقول كراب، ويظن إن هذا الاعتقاد عالمي. وهناك قبائل بابو في غينيا الجديدة لم تخل من هذا الاعتقاد، حتى مريم العذراء عليها السلام، لم تسلم من زيارة الثعبان المخصب)[٢]، وتضع بعض القبائل الإفريقية ثعباناً تحت سرير الزوجية، وذلك بقصد تأمين إخصاب المرأة[٣].

وعن علاقة المرأة بالحية، وعلاقة الحية بالشجر قال المنخل اليشكري:

يعكفنَ مِثلَ أساودِ الـــ تَّنُّومِ لم تُعْكَفْ لزورِ[٤]

اهتم الشاعر بربط صورة شعر النساء بالحيات السود لوناً وطولاً، وكأن في شعر المرأة رمزاً لخصوبتها، فقد كانت (العانس من النساء إذا عسر عليها خاطب النكاح نثرت جانباً من شعرها وكحلت إحدى عينيها، وظلت تحجل قبيل بروز العزى في الأفق، وهي تقول: أبغي النكاح قبل الصباح).[٥] وهذا ما يذكر بسلوك إنانا السومرية في زواجها المقدس من دموزي[٦]. ومن أسماء الصباح (الزهرة، ونعمة –والنخلة شجرتها المقدسة– وبعلتي، وأحياناً اللات، وفي الجنوب عثتر)[٧]. ونجمة الصباح هذه (كانت راعية الإخصاب والخمر –وهذه كانت مقدسة ثم أصبحت علامة من علامات الفروسية شبهت بدم الذبيح– كما كانت ربة النار).[٨] وكانت هذه النجمة (لدى عبادها في مختلف الديانات الوثنية رمزاً للعشق والشهوة والإغواء).[٩] وصفات هذه النجمة تماماً هي صفات عشتار البابلية التي اتصفت بصفات الحب والخصب والجنس والقتل وغيرها، التي كانت تلف جسدها بحراشف الحية.

---

(١) الحية في التراث العربي، ص١٨٤.
(٢) المرجع نفسه، ص١٨٤ – ١٨٥.
(٣) المرجع نفسه، ص ١٨٥.
(٤) الأصمعيات، ص ٦٠.
(٥) التفسير الأسطوري للشعر القديم، أحمد كمال زكي، ص ١٢٥.
(٦) إنجيل سومر، ص٧٩.
(٧) المرجع نفسه، ص١٢٥.
(٨) المرجع نفسه، ص١١٦.
(٩) التفسير الأسطوري للشعر القديم، إبراهيم عبد الرحمن، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، ١٩٨١، ص١٣٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

تشكل الشجرة (عنصراً هاماً من عناصر الحياة لدى كافة الشعوب، فمنذ أن دبت الحياة البشرية فوق الأرض، كانت بين الإنسان والشجرة علاقة حميمة متينة، وما تزال هذه العلاقة، محافظة على متانتها إلى حد كبير، ومن هذه العلاقة تولدت لدى الإنسان نظرة تحمل الكثير من الاحترام، والتقديس للأشجار، التي كان يلفها الغموض).(١)

قال حميد بن ثور الهلالي:

فلما أَتَتْهُ أَنْشَبَتْ في خِشاشه　　　زِماماً كثعبانِ الحَماطَةِ مُحْكَمَا(٢)

يرى الشاعر علاقة قوية بين الحية والشجرة، كيف لا؟ وقد كانت شجرة الجنة نقطة تحول في حياة آدم وحواء وانتقالهما من العالم السماوي إلى العالم الأرضي، وذلك بتدخل الحية، هذا واعتقد (الشرقيون أن القمح كان شجرة معرفة الخالق والشيطان، وقد كانت في وسط جنّة عدن، أخذت الحية منها وأعطت حواء، وفي ذلك الوقت كانت حبّة القمح كبيرة مثلها مثل ثمر الخيار، وعندما طرد آدم من الجنة أرسل الله له حبوب القمح ملفوفة بسبع مناديل من الحرير، وزرعها آدم فأثمرت بحجمها الحالي) (٣).وقال جاهلي:

خُلِقَتْ لَهَازِمُهُ عِزِينَ ورأسُهُ　　　كالقُرْصِ فُلْطحَ مِنْ دقيق شعيرِ

وَيُدِيرُ عَيْناً لِلوقـاع كَأَنَّها　　　سَمْراءُ طاحَتْ من نفيضِ بَريرِ(٤)

يقيم الشاعر علاقة بين الحية والنبات، فالشعير عنصر ضروري لحياة الحيوان الذي يمثل بدوره غذاءً رئيساً للإنسان، وكأن الشاعر عبر عن مضمون خفي بين الحية وسبب الخصب النباتي، فكلمات مثل الشعير، سمراء، نفيض برير تظهر علاقة بين الحية وبين خصوبة الأرض. فالشاعر الجاهلي ربط بين أجزاء الحية والشعير من النبات، الأمر الذي يعكس بعداً لا شعورياً تجاه الحية وقوة إخصابها النباتي. (وتبدو الحية محاطة بكل رموز الخصب وخصوصاً سنابل القمح، مما يدل على أنها كانت موضوع عبادة وتقديس باعتبارها تجلياً لقوى

(١) المعتقدات الشعبية في التراث العربي، حسن الباش، ص٣٢٧.
(٢) ديوانه، ص٩٣.
(٣) الكتابات الفلكلورية، توفيق كنعان، ص٩٩- ١٠٠.
(٤) الحيوان، ٤/١٨١ – ١٨٢، ٢/٢١٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخصوبة)(١)، ومما يدلل على علاقة قديمة جداً بين الحية والشجرة. والعلاقة بين الحية وشجرة الحماطة تذكر القارئ بأسطورة الحية وشجرة الخلود، حيث سعى جلجامش إلى قتلها عندما سكنت أسفلها، فهناك فرت الشيطانة ليليث إلى الأماكن المهجورة.(٢) ووجود الحية أسفل الشجرة يقربها من باطن الأرض الذي يعد مركز الخصب. فأغلب التصورات (عن الحية والعفاريت وأم الشعور والنداهات والهواتف والرؤى، منحدرة من أصول سومرية، منها سكنى العفاريت الخرائب التي كشف عنها النص السومري المعروف بـ "جلجامش وأنكيدو وشجرة الصفافة"، ومنها أغلب الطلاسم والرقى والتعاويذ والمنفرات التي تستعمل لطرد الأوبئة مثل الحمى، ولدغ العقارب والحيات).(٣)

لم يكن ارتباط الحية بالشجرة عبثاً، فشجرة النخيل مثلاً (شجرة الحياة ورمز النصر للبابليين والأشوريين، وقد نقشت على الأدوات الفخارية للكنعانيين، وعلى عملات العبرانيين)(٤). وكانت النخلة (إلهة عربية، وكانت تلقب بـ "عثتر" أو ربما "عثير"، وكانت رمزاً دينياً في الجزيرة العربية وشمال أفريقيا حتى قبل تدجينها، وكانت روحها تسمى عشيرة "أي صديقة")(٥).

وتظل الشجرة ركناً أساسياً في منظومة الحياة، هذه المنظومة التي ترتكز على أبعاد ثلاثية: الحية، الإنسان، الشجرة، ففكرة (شجرة الحياة ورمز الديمومة، وربما كانت أصل كل العادات والمعتقدات المعروفة، والممارسة في فلسطين، ويثبت ذلك الاعتقاد أن شجرة النخيل خلقت مما تبقى من طين بعد خلق آدم. فآدم كتب عليه الموت بعد سقوطه في الخطيئة. وإن أكل شجرة النخيل يبعث الحياة في امرأة عقيمة، وأغصان النخيل التي توضع على القبر تحفظه برهة من الزمان حتى ولو كان جسماً ميتاً. وفي المزارات نجد رمزين للحياة: شجرة النخيل والحية، فكلمة الحية مشتقة من الحياة).(٦) ويعني هذا استمرار أهمية الشجرة ومكانتها لدى بعض الشعوب التي رأت فيها لغز الحياة. قال تعالى: (فَأَجَاءَهَا الْمَخَاضُ إِلَى جِذْعِ

---

(١) لغز عشتار، ص١٣٩.

(٢) انجيل سومر، ص٢٢٣.

(٣) عبد الحكيم، شوقي: الحكايات الشعبية العربية، ط١، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٠ ، ص٦٥.

(٤) الكتابات الفلكلورية، توفيق كنعان، ص٩٩- ١٠٠.

(٥) إنجيل سومر، ص١٨٧.

(٦) الكتابات الفلكلورية، ص٩٩ – ١٠٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

النَّخْلَةِ قَالَتْ يَا لَيْتَنِي مِتُّ قَبْلَ هَذَا وَكُنتُ نَسْيًا مَّنسِيًّا، فَنَادَاهَا مِن تَحْتِهَا أَلَّا تَحْزَنِي قَدْ جَعَلَ رَبُّكِ تَحْتَكِ سَرِيًّا، وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا)[١].

يكاد يكون أصل الشجر هدف الحية في الفكر الإنساني، حيث كانت في قاعدة شجرة الحلبو، وها هي في فكر الإسلاميين تستقر في قاع الشجر، وكذلك اعتقد الجاهليون (أن الأحراش والبقع الكثيفة النباتات كانت مسكونة بالأرواح الموجودة في شكل ثعابين)[٢]. (وتعد الأفعى بصفة عامة حيواناً قريباً من العالم الأرضي، ولذلك فإن قوى هذا العالم تقع في حوزتها، وعلى هذا فهي تستطيع عن طريق عشب عجيب أن تهب الآخرين الحياة الأبدية)[٣]. وكان أهل نجران (يعبدون نخلة طويلة بين أظهرهم وكان لها عيد كل سنة، إذا كان ذلك العيد علقوا عليها كل ثوب حسن وجدوه وحلي النساء، ثم خرجوا إليها فعكفوا عليها يوماً).[٤] فالنساء أو ممتلكاتهن والشجر والحيّة ثلاثة عناصر تلتقي في العبادة والتقدير والتقديس لدى الأمم، وإن اختلفت النسبة بينها.

ومن معتقدات الجاهليين (أن الأرواح الشريرة تستقر في بعض أنواع الشجر، كالعُشَر التي تستوطنها،[٥] وروح العزى استقرت في ثلاث سمرات ببطن نخلة، واعتقدوا أن العزى شيطانة، وربما تعبد العرب عند السمرات وتقربوا لها بالنذور والقرابين، لذلك بعث الرسول (ص) "خالد بن الوليد" لاجتثاثها، فلما أتاها، فإذا بحبشية نافثة شعرها، وواضعة يديها على عاتقيها، تصرف بأنيابها، وخلفها سادنها، فضربها خالد، ففلق رأسها، فإذا هي حممة، ثم قطع الشجرة، وقتل السادن).[٦]

وما يدعم رمزية الحية وصلتها السرمدية لدى الجاهليين وغيرهم من الأمم حادثة إضرام حرب بن أمية ومرداس بن أبي عامر النار في بقعة أحراش، وهروب كائنات روحية على هيئة أفاع بيضاء، الأمر الذي أدى إلى موت الرجلين.[٧] فموت الرجلين دليل على تخريبهما للعلاقة بين الحية والشجرة.

---

(١) مريم، الآيات ٢٣-٢٥.

(٢) الأساطير وعلم الأجناس، ص١٤٩.

(٣) الحكايات الخرافية، ص٨٩.

(٤) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥، ٢٦٦/٥.

(٥) المفصل في تاريخ العرب، ٦٠/٦.

(٦) المصدر نفسه، ص١٠٠.

(٧) الأساطير وعلم الأجناس، ص١٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عرفت شجرة النخل (بشجرة الحياة في الزخارف الرمزية التي شاع استعمالها في العراق القديم، خاصة في عهد الإمبراطورية الأشورية واتخذت الرمز نفسه في الشعر الجاهلي، إذاً كثيراً ما يختار الشعراء لظعائنهم شبيهاً بالنخلة المحملة بالثمر الملون، ويشبهون أذنابها بقنو النخلة المتدلي، ويرمزون بذلك إلى الخصب واستمرار الحياة والتكاثر، لذلك كانت النخلة في الشعر الجاهلي متطاولة، سامقة، تأبّت على مريدها، وارتفعت عن أيدي جناتها، تبذل في حمايتها النفوس).[1] وفي هذا قال المثقب العبدي عن النساء:

وهُنَّ على الرَّجائزِ واكِناتٌ قَواتِلُ كُلَّ أَشْجَعَ مُسْتَكِينِ

وهُنَّ على الظِّلامِ مُطَلَّباتٌ طَويلاتُ الذَّوائِبِ والقُرونِ[2]

تجتمع صفات مشتركة للحية في طولها ولونها، وطول الذوائب والقرون للمرأة، وللشجرة، حيث الخصب والحياة واستمراريتها، وكلها صفات مادية تعكس خصباً في الحياة.

وفي تفسير الأحلام التي تعكس اللاشعور الفردي والجماعي يظهر دور الحية في الحياة، فإذا ما رأى إنسان (بستانه مملوءاً حيات فإن البستان ينمو).[3] وكأن الحيات مطر يخصب الأرض بما فيها. ومن يرى في المنام تخطيه حيات تمطر السماء.[4]

وقد ربط طرفة بن العبد بين الحية والشجر في قوله:

تَعَمُّجُ شيطانٍ بذي خِرْوعٍ قَفْرِ[5]

فمن معتقدات الجاهليين أن في الأشجار (قوىً روحية كامنة فيها، وأن لهذه القوى أثراً خطيراً في حياتهم).[6] وهذا يذكر القارئ بالحية التي استقرت أسفل شجرة (الحلبو) التي كانت لـ (إنانا)، وقد سكنت الشيطانة (ليليث) وسطها، التي فرت عندما قطع جلجامش الشجرة.[7]

---

(١) دراسات في الشعر الجاهلي، ص١٢٤.

(٢) ديوانه، ص٥٧-٥٨.

(٣) رموز من عالم الحيوان، ص٦٥.

(٤) الحيوان، ٤/٢٦٨.

(٥) شرح ديوانه، ص١٥٦، وينظر، الحيوان، ٤/١٣٢.

(٦) الطبيعة في الشعر الجاهلي، نوري القيسي، ص٦٩.

(٧) جلجامش ملحمة، الرافدين، ص٥٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

و(ليليث) هي حواء الأولى لدى الساميين، وقد عادت بدورها فتوحدت بالحية لدى القبائل العبرية، فأصل الإنسان من الحية، والحية من الجنّ في التوراة.(١) وكلمة (ليليث) تعني أنثى العفريت أو الريح، وصار اللفظ (ليل) وقد عرفت بالجنية ليل، وقد انتقلت حتى وصلت إلى الأغاني الشعبية يا ليل يا عين.(٢) وغالباً (ما تصور شجرة الحياة حائلاً يمنع الحيوان المفترس من الاقتراب من الحيوان الأليف الذي يستجير بالشجرة وينشد حماها)(٣)، لذا قال أبو كبير الهذلي:

أم من يُطالِعه يَقُلْ لصِحابِهِ　　　إِنَّ الغَرِيفَ تُجِنُّ ذاتَ القنْطرِ(٤)

ويؤلف الشاعر صورة تجمع بين المرأة والحية والخصب، وهذه العلاقة قائمة على الأركان الثلاثة منذ العهد الفردوسي، متقاطعاً معها الماء. وفي هذا قال المتنخل الهذلي واصفاً امرأة:

كالأيم ذي الطرَّةِ أو ناشئ الـ　　　بَرْديِّ تحت الخَفَاءِ المُغيلِ(٥)

(١) عبد الحكيم، شوقي: موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، دار العودة، بيروت، ص١٨٦.

(٢) موسوعة الفلكلور والأساطير العربية، ص٥٩٩.

(٣) إنجيل سومر، ص٨٩.

(٤) شرح ديوان الهذليين، ٢/١٠٤.

(٥) ديوان الهذليين، ٢/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الشر

لو بدأنا بلفظ كلمة أفعى لتبين لنا مدى التأفف والتقزز من خلال حركة شفاهنا وزفيرنا المتمثل في دفع الهواء خارجاً، الأمر الذي يماثله على أرض الواقع حين رؤية أفعى، ومحاولة قتلها، أو طردها، وهذا يعكس بعد الشر الذي تتصف به (وفي هذه الحالة يكون للرمز علاقة داخلية للإحساس الذي يرمز إليه) [١].

حاول الإنسان أن يجد لفكرة الشر منذ ظهورها رمزاً ومعادلاً طبيعياً، فلم (يكن أمامه في هذه الخطوة مثل على الشر الخبيث الذي يضمر السوء ويتوارى عن النظر – أقرب إلى الحس والخيال – من الحية التي تزحف على التراب وتندس في الجحور كيداً وخديعة، وتمكنا من الدس والأذى فيما توهمه، ولم يكن في وسعه أن يتوهم شيئاً سواه، ولهذا بقيت صورة الحية مقترنة بقوة الشر حقيقية أو رمزاً إلى أحدث العصور)[٢]. فقد وصف يحيى بن زكريا عليه السلام المكذبين من بني إسرائيل بقوله: (يا نسل الأفاعي)[٣]، وذلك لمكرهم وخبثهم.

فللحيوان (في الحكاية الخرافية وظيفة ذات صور متعددة، فمرة يظهر بوصفه حيواناً روحانياً، ومرة أخرى يكون عدواً للإنسان، كأن يكون أفعى شريرة أو دودة شجرة الزيزفون، أو تجسيدا للشر بصفة عامة)[٤].

ومن الشعراء الذين تناولوا الحية وغدرها وشرها أمية بن أبي الصامت في قوله:

والحية الذكر الرَّقشاءُ أَخْرَجَها ... مِنْ جُحْرِهَا أمناتُ اللهِ والقَسَمُ

إذا دعا باسمها الإنسانُ أو سَمِعَتْ ... ذاتَ الإلهِ بدا في مشيها رَزَمُ

من خَلْفِها حُمَّةٌ لولا الذي سَمِعَتْ ... قد كانَ ثبتها في جُحرها الحَمَمُ

نابٌ حديدٌ وكفٌّ غيرُ وادِعَةٍ ... والخلقُ مختلفٌ في القَوْلِ والشِّيَمِ

إذا دُعِيْنَ بأسماءِ أجَبْنَ لها ... لنَافِثٍ يعتريه اللهُ والكَلِمُ

لولا مخافة رَبٍّ كان عذَّبَها ... عرجاء تَظْلَعُ، في أنيابها عَسَمُ

---

(١) الحكايات والأساطير والأحلام مدخل إلى فهم لغة منسية، ص ١٩.

(٢) إبليس، ص٩٠.

(٣) الحية في التراث العربي، ص٩١.

(٤) الحكايات والخرافية، ص٨٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وقد بَلَتْهُ فذاقَتْ بَعْضَ مَصْدَقِــهِ   فليس في سَمْعِها، من رَهْبَةٍ صَمَمُ
فكيف يأمنهــا أم كيف تألَفُــــه   وليس بينهما قربى ولا رَحِــمُ![1]

يخبيء النص (ثقافة ميثية مختزلة غير مصرح بها تنبثق من خلال قــرائن تشــير إلــى زمن الخلق الأول من خلال ارتباط الحية بخروج آدم من الجنة)[2]، خاصة أنها كانــت المطيــة التي دخل بها الشيطان إلى الجنة، وأغرى حواء، وهذا بحد ذاتــه قمــة الشــر، وإلحــاق الأذى بالإنسان إلى ما لا نهاية من الزمن، فالحية (شديدة الفساد تحرق كل ما مرت عليــه ولا ينبــت حول جحرها شيء من الزرع أصلاً، وإذا حاذى مسكنها طائر سقط، ولا يمر حيوان بقربهــا إلا هلك، وتقتل بصفيرها على علوة سهم، وضربها برمحه فارس فمات هو وفرسه) [3].

فاطلاع الشعراء الجاهليين على ثقافة الآخرين مكنتهم من صياغة أفكارهم ورؤاهم ذات الدلالات الرمزية، فكما كانت الحية متعاونة مع إبليس لإغراء حواء كانت خير خادع للإنســان، خاصة أنها جميلة المنظر، ناعمة الملمس، لكنها تنذر بكارثة لمن يلمسها، هذه هي صفاتها لــدى اليونانيين، فهي التي كانت سبب إغراء الملائكة للتمرد على أبي الآلهة لديهم[4].

ومما جعل الحية حذرة حريصة ظالمة لا تعقد صلحاً مع الإنسان، ولا تجد الأنس معــه معصيتها لله، وهذا ما اضطر الإنسان أن يفكر في كيفية اتقاء شرها، من خلال الرقى والعــزائم والتعاويذ، وذلك ظناً منه، واعتقاداً بفاعلية مثل هذه الممارسات في رد الخطــر والشــر. فكــان الجاهلي (إذا خاف تأثيراً سيئاً من بعض القوى اللابشرية لجأ إلى التمائم، وهي أفضل وأنجع في نظره من وجود تماثيل في خبائه أو داره) [5].

والإشارات في النص الشعري السابق (حافلة بإيحاءات رمزية وأسطورية ...، تقود فــي الضرورة إلى اتجاه يتأكد فيه أن هذا الحوار لم يدُر بين الحاوي والحية، لأنه حــوار مســتحيل، ولكنه يشير إلى أن للحوار طرفاً ثالثاً مغيباً هو العامر الذي يسكن الحية) [6].

---

(١) ديوانه، ص١١٦-١١٧، وينظر، الحيوان، ٤/١٨٧-١٨٨.
(٢) التجليات الموضوعية والرمزية في نماذج من الشعر القديم، ص١٠٠.
(٣) حياة الحيوان الكبرى، ١/٣٩٨.
(٤) الحيات في العالم، ص٢٣.
(٥) في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص٤٢.
(٦) التجليات الموضوعية والرمزية للحية في نماذج من الشعر القديم، ص١٠٢- ١٠٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

ومما يثبت أن قراءة التعاويذ والرقى عادة قديمة جداً، أنه حينما أرادت (إنانا) السومرية قطع شجرة الحولبو التي سكنتها الحية قرأت التعاويذ والرقى في سبيل السيطرة عليها[١].

وكما للتعاويذ والرقي أثر في مواجهة شر الحية، فقد سبق العرب إلى ذلك الفراعنة حينما استعملت (إيزيس) السحر في تدمير (أبو فيس)[٢]. واستعمل الفراعنة كذلك الأناشيد السحرية توقياً من شر الحيات ذات القرون[٣].

ومن رموز الحية لدى الجاهليين الجوع، الذي هو أكبر أنواع الشر، خاصة أنه يهدد حياة الإنسان الجاهلي الذي كان يرحل من مكان لآخر طلباً للكلأ والماء، وتقوم المنازعات على الأرض الخصبة، لكن هذا الجوع يحدث ليس بسبب قلة الموارد أو الطعام، بل بسبب الحية التي تسمى الصفر التي تأخذ دورها في أمعاء الإنسان.

يقول أبو خراش الهذلي مخاطباً زوجته:

أرُدُّ شجاعَ البطن لو تعلمينه ... وأوثِرُ غيري من عيالِكِ بالطُّعْمِ[٤]

وقد عبر الشاعر الجاهلي عن شدة شر الحية وقسوتها وظلمها حين قال مضرس بن لقيط:

لَعَمْرُكَ إني لَوْ أُخاصِمُ حَيَّةً ... إلى فَقْعَسٍ ما أَنْصَفَتْنِي فَقْعَسُ[٥]

فالشاعر عد الحية أقصى درجات العداوة والشر، وذلك بناء على معتقدات لا شعورية تختزنها ذاكرة الجماعة، بأن الحية هي الأقوى في الطبيعة.

وقد أوضح عدي بن زيد أبعاد شرها حين قال :

فأَتْعَبَا أَبَوانا في حياتِهِمَا ... وأَوْجَدا الجُوعَ والأَوْصابَ والعِلَلا[٦].

---

(١) إنجيل سومر، ص٢٢٣.

(٢) وادي الملوك، ص١٤٣.

(٣) الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، ص٧٣.

(٤) ديوان الهذليين، ١٢٨/٢.

(٥) الحيوان، ١٥١/٤.

(٦) ديوانه، ص١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يعبر الشاعر عن تاريخية شر الحية منذ أن أغوت حواء، منذ تلك اللحظة والحيـــة تعـد رمزاً للشر والخديعة سواء كانت مطية الشيطان أم صاحبة المبادرة، فما كان مـــن عقـــاب لآدم وحواء تمثل في الجوع والأمراض والشقاء إلا أثرٌ من آثارها بسبب كون الحية الفاعل المركزي في الحدث. مما يؤكد أن الحية لم تكن حيواناً طبيعياً، بقدر ما هو حيوان يتمتع بديمومة الشر.

وقد عبر الشاعر الجاهلي عن قسوة الحية وظلمها وشرها، في قول الأعشى:

فلا تلمس الأفعى يداكَ تُريدها وَدَعْها إذا ما غَيَّبَتْها سفاتها(١)

فالتحذير من الأفعى، يرتد في ذاكرة الجماعة وفي مخزونهم اللاشعوري إلى قوة غيـــر طبيعية تتمتع بها الأفعى، فهي صاحبة السيادة والقوة والبقاء، وغيرها هـــدف لـــلأذى، وإلحـــاق الضرر به، وتهديد حياته وبقائه حياً.

ولم يختلف ذو الإصبع العدواني عن غيره من الشعراء حين قال:

عذير الحيِّ من عَدْوا نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ(٢)

فتهديد الشاعر عدوه بهذا السلاح الفتاك الذي لا يرحم إن أصاب، يرتد تاريخيا إلى العهد السومري، فكانت الحية لديهم سلاحا ضد الشر حينما ينوي شيطان دخول جسم إنســـان مســـيء للآلهة(٣).

وفي هذا المعنى قال شاعر جاهلي:

فابعث له في بعض أعراض اللَّمَمْ لميمةً مِنْ حَنَشٍ أعمى أصمْ(٤)

ومن الأخبار التي تدلل على خوف الإنسان الجاهلي من الحية، أو الاقتراب من أمـــاكن تواجدها أنه (لما تلاشى ملك الحبشة من اليمن، أقفر ما حول الكنيسة ولم يعمرها أحد، وكثـــرت حولها السباع والحيات، فكان العرب يتخوفون القرب منها، ويزعمون أن من أخـــذ شـــيئاً مـــن

---

(١) ديوانه، ص٢١٢.
(٢) الأصمعيات، ص٧٢، وينظر، الحيوان، ٢٣٣/٤.
(٣) الحضارات السامية القديمة، ص٧٧، وينظر، بخور الآلهة، ص٢٠٧.
(٤) الحيوان، ٢٨٣/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

أنقاضها استهوته الحية، وقد بقيت حتى زمن أبي العباس حيث أرسل لها عامله على اليمن. فاستخرج ما كان فيها، وخرّبها حتى عفا عن رسمها وانقطع خبرها)[١]. وقد تطرق أكثر من شاعر جاهلي إلى صفات الحية التي تنبئ بالشر والسوء[٢].

ومن الأمثال التي عاشت إلى جنب الأشعار الجاهلية (أظلم من أفعى)[٣]، وذلك لعدم استقرارها في جحر واحد، بل تعديها إلى جحور غيرها من الحيوانات وطردها منها، فيمتد شرها إلى جحور العصافير وأعشاشها لتأكل فراخها، أو لتبتلع بيضها، حينئذ يأتي الأبوان ويقوم الصراخ من أجل إنقاذ العش من هذا الشر[٤].

وعن استعمال التمائم وحلي النساء في سبيل التصدي لشر الحية، قال النابغة الذبياني:-

يسهدُ من لَيْلِ التِّمامِ سليمُها　　　لَحلي النساءِ في يديهِ قعاقعُ[٥]

فظاهرة تعليق حلي النساء في رقبة السليم ظاهره قديمة جداً، لأنها تعكس بعداً فكرياً لاشعورياً لدى الجماعة، فقد (قيل لبعض الأعراب: أتريدون سهرة؟ فقال: إن الحلي لا تسهر، ولكنها سنة ورثناها)[٦].

وعلى مستوى الأحلام التي تظهر اللاشعور الإنساني، كان الجاهلي إذا رأى في منامه الحية (خرجت من دار خربت الدار ووقع الفناء بأهلها) [٧]. وفي هذا التأويل لم يبتعد العرب كثيراً عن رمز الحية لدى البابليين الذين رأوا فيها شراً ودماراً، حين دمرت مدينتهم، وتناقصت أعداد البشرية لديهم[٨]، ومن (رأى حية ميتة فإنه عدو قد كفاه الله شره)[٩].

---

(١) في طريق الميثولوجيا عند العرب، ص١٣٤-١٣٥.

(٢) ديوان الهذليين، ١٦٣:١، الحيوان، ٣٠٥:٤، ديوان عنترة ، ٩٢.

(٣) جمهرة الأمثال، ٢٩/٢، وينظر، مجمع الأمثال، ٢/ ٥٥٠، حياة الحيوان الكبرى، ٤٤:١.

(٤) الحيوان في الأدب العربي، ٣٢٩:٢.

(٥) شرح ديوانه، ص٥٣.

(٦) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٠٤/٢.

(٧) رموز من عالم الحيوان، ص٦٦.

(٨) مغامرة العقل الأولى، ص٢٢٥.

(٩) حياة الحيوان الكبرى، ٤٠٥/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وضرب المثل بالحية في أقوال بعض الأنبياء عليهم السلام لشدة شرها، فقال المسيح عليه السلام لبني إسرائيل: (يا أولاد الأفاعي)[١]، تعبيراً عن شدة لؤمهم وشرهم ومكرهم وخداعهم، وفي العقيدة الفارسية القديمة تشكّل إله الشر (إهرمان) بهيئة الحية، فصار يملأ الوجود كله، ويرسل سمه في كل شيء، واستمر بذلك إلى أن هزمه إله الخير حين نزل من السماء إلى الأرض[٢]. وتشهد الطبيعة بشر الحية وخداعها لدرجة أن الثعلب خير صديق لها[٣]، الأمر الذي يعكس توافقاً بينهما رغم اختلاف الشكل والفصيلة.

وقد امتد التحذير من شر الحية إلى العلاقات الاجتماعية التي يفسدها النّمام، وصاحب السوء، فقال عبده بن الطبيب:-

واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم   متنصحاً ذاك السّمامُ المُنْقَعُ[٤]

وذلك بناءً على عداوة الحية للإنسان، وما تتصف به من صفات الخداع وملامسة الجلد وشر الفعل والمضمون.

ويتخذ الشاعر معقل بن خويلد تهديد الحية معادلاً موضوعياً لذاته المتفوقة على خصمه[٥]، الأمر الذي دعاه لأن يرى فيها مصدر القوة والحياة والموت، وهذا يؤكد أن (النظم الروحية في المجتمع الجاهلي تتألف من جانبين أساسيين هما: الجانب العقدي، والجانب الطقسي)[٦]، الأمر الذي أدى بالشعراء الجاهليين إلى إيمانهم (بكائنات أسطورية، وقوى روحية، وطقوس من التذلل والخضوع والاستعطاف، وممارسة السحر والشعوذة من أجل السيطرة على الطبيعة ودفع الأخطار المتوقعة، والسيطرة على القوى الخفية التي فيها، ومن ثم إخضاعها للإرادة الإنسانية)[٧]، قال عنترة:

---

(١) الحية في التراث العربي، ص ٨٩.
(٢) الأسطورة والتراث، ص٥٦.
(٣) الحيوان في الأدب العربي، ٢/ ٥٣.
(٤) عبدة بن الطبيب: شعره، جمع وتحقيق د. يحيى الجبوري، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧١، ص٤٦.
(٥) ديوان الهذليين، ٣/ ٦٥، وينظر، الحيوان، ٢١٣/٤.
(٦) دراسات في الشعر الجاهلي، ص٨٤.
(٧) المرجع نفسه، ص٨٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إن الأفاعي وإن لانَتْ ملامِسُها،   عِند التَّقَلُّبِ في أنيابها العطَبُ[1]

وهذا البيت يزخر برموز القوة والصلابة والتحدي، خاصة أن الحية قوية تحتمل الظروف القاسية والمواجهة الصعبة مع الخصم، فهي رمز القوة المعنوية للشاعر الذي وجد فيها مصدر الموت وسببه. فكما أن الحية مصدر تهديد حياة الأفراد في الدنيا، وسبب إماتتهم، فكذلك هي سبب التعذيب في العالم الآخر، حيث رأى الفراعنة ذلك للإنسان الشرير.[2] وكأن الإنسان الجاهلي استشرف دور الحية ما بعد الموت، خاصة أنه رأى فيها سبب الموت الذي هو نقيض الحياة، ورأى في الحية القوة التي تتغلب على الإنسان. ومن عادات العرب القدامى أنهم كانوا (يستعينون بأشخاص توارثوا امتلاك أجراس يحضر أحدهم ويقرع جرسه على مسمع من اللديغ ويوالي قرع الجرس، وما دام اللديغ يسمع قرع الجرس فلا خوف عليه، وإن لم يسمع صوت الجرس فهو ميؤوس منه)[3]. وبهذا تفشل كل الأسباب المتبعة في سبيل الشخص، وكأن كل هذه السنن تقف عاجزة أمام قوة الحية المتمثلة في الإماتة.

ومن رموز الحية لدى الشاعر الجاهلي الدمار والقتل والموت، فهذا عنترة الطائي يقول:

أترجُو حياةً يا ابن بشرِ بن مسهِرٍ   وقد عَلِقَتْ رجلاك في ناب أسودا[4]

فللحية سهام الموت التي لا ترد، ولا تصد، حتى لو كانت هناك الرقى والعزائم، فهي عاجزة أمام قوة الموت المتمثلة في الحية. خاصة أن الإنسان الجاهلي أدرك (أن نيل الخلود أمنية بعيدة، وأن التمائم والرقى لا تدفع الموت القادم، فعاش حالة من التوتر بين الذات والوجود)[5].

لكن رمزية الحية في قوة شرها ودمارها تقف عاجزة أمام قوة تدميرية أعظم منها، هي الموت، فثعلبة بن عمرو يدلل على مدى قوة الحية ونفوذها في الفكر الجاهلي حين يقول:

ولو كُنْتُ في غُمْدَانَ يَحْرُسُ بَابَهُ   أراجِيلُ أُحْبُوشٍ وَأَسْوَدُ آلِفُ

---

(١) ديوانه، ص١٠.

(٢) كتاب الطب والتحنيط في عهد الفراعنة، ص١١٧- ١١٨، وينظر كتاب الموتى الفرعوني، ص١٢٠.

(٣) الحية في حياتنا وتراثنا، ص٦٩-٧٠.

(٤) الحيوان، ٤/٣٠٨.

(٥) دراسات في الشعر الجاهلي، ص٦١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذاً لأَتَتنِـــي، حَيْثُ كُنْتُ مَنِيَّتِــي يَخُبُّ بها هَادٍ لإِثْرِيَ قائِفُ[١]

فرأى الشاعر في الحية الأسود تعويذة ضد الموت، ولكن التعاويذ لا تدفع قــوة المــوت المحتوم[٢]، لأن الموت أقوى من الحية وغيرها من مظاهر الطبيعة بل هي أدوات الموت.

المصير بالنسبة للإنسان الجاهلي (مجهول، وأن العالم عبث، وأنه عاجز عن الســيطرة على الموت، فخضع لسلطانه، وأمر بحكمه في بعض الأحيان، وأن الحجــارة الصــم والجبــال الثابتة تستعصي على الموت، فأحس الفجيعة والألم وهو يرى حياة أوليائه تتهدم وتفنى)[٣]. ومن معتقدات الجاهليين (أن في الحيات نوعاً يسمى الناظر، إذا وقع بصره على عين إنسان مات من ساعته)[٤]. ومن رموزها القيامة، وذلك لنزع جلدها كل سنة[٥].

ومن رموز الحية لدى الجاهليين الخراب والدمار والموت الذي حل بديار الأحبــة عنــد بشر بن خازم الأسدي:

وإذا نظرتَ إلى الثَّرى بِعِراصِهِم قلتَ: الشجاعُ ثوى فيها والأرقم[٦]

فالأطلال لدى الشاعر الجاهلي تمثل رمز انهزام مبدأ الحياة أمام قوى المــوت والــدمار والخراب المتمثلة بفعل الزمن، والذي رمز إليها الشاعر بالحية، فعمد إلى تلازمية الحية بــالزمن والموت، لذلك كان الشاعر قاصداً أن يجعل (من الأطلال نموذجاً أعلى للخراب والموات اللــذين يوديان بحياة الإنسان، ومن الحيوان على اختلافه حيواناً أسطورياً في جماله وحركته وقوته)[٧]. فالوقوف على الأطلال ووصفه، ووصف (ما يحوي يعبر عن أبعاد نفســية وزمنيــة ومكانيــة عميقة، تتعدى مسألة التقليد أو الصنعة)[٨]. وبذلك يمثل الطلل (تيار الزمن، الممثل فــي إظهــار

---

(١) المفضليات، ص٢٨٣.

(٢) شعرنا القديم والنقد الجديد، ص٢٨١.

(٣) دراسات في الشعر الجاهلي، ص٦١.

(٤) حياة الحيوان الكبرى، ١/٦٦٢.

(٥) رموز من عالم الحيوان، ص٦٤.

(٦) الحيوان، ٤/١٧٦، والبيت ليس موجوداً في ديوانه.

(٧) التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي، ص١٣٤.

(٨) عبد الحافظ، صلاح: الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، دراسة نقدية وفنية، دار المعارف، الإسكندرية، ٢/٤١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

آثاره وأفعاله وخلوده)[١]، فالحية عدوة قوية ومتجددة بما يجعل صفاتها قريبة من صفات الزمان[٢].

ويربط الشاعر بين وجود الحية في الأطلال ورحيل أهلها بما فيهم المرأة التي كانت هدفاً للحية في الجنة حين أغوتها، وكانت سبباً في طردها من النعيم إلى الشقاء وهذا ما دعا الشاعر إلى أن يربط بين الخراب ووجود آثار الحية في الديار التي كانت عامرة بوجود المرأة صاحبة الخصوبة والحياة، وصارت خربة.

قال ثمامة الكلبي:

كَأَنَّ مَزَاحِفَ الهَزْلَى صباحاً   خُدُودُ رَصَائع جُدِلتْ تؤاما[٣]

فتحمل المرأة الشاعر الجاهلي (على ملاحظة ما أصاب هذه الديار من موات وخراب لرحيلها عنها، ورحيل هذه المحبوبة هو الذي يحمل الشاعر على رصد ذكرياته الماضية معها، وهذه الذكريات هي التي تضطره، إذا ما تأزمت نفسيته وأطبقت عليه هموم الحياة، إلى الرحيل في أثرها واصفاً الظعائن وصفاً إنسانيا مؤثراً، على راحلة يبالغ عادة في تشخيص قوتها وشدتها وقدرتها على المضي بعيداً عن هذه الأطلال التي تثير في نفسه عناصر شتى من الخوف والقلق والحسرة، أو فلنقل من الصراعات التي يشخصها بديعاً في قصص الصيد المعروفة حيناً، ووصف مظاهر الطبيعة، من الأمطار والسيول والحيوانات في صورتها العنيفة)[٤].

وإذا انتقلنا إلى العهد الإسلامي الذي يعني تغيراً جذرياً في حياة المجتمع العربي، وعلاقتهم بمن حولهم في الطبيعة، فإننا نجد نظرة خاصة إلى الحية في الدنيا والآخرة، فقد حذر الرسول (ص) منها، لأنها تسبب الموت للأجنة في بطون أمهاتهم، فقال: "اقتلوا الحيات وذا الطفيتين والأبتر فإنهما يستطان الحبالى ويلتمسان البصر"[٥].

---

(١) الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره، ٤٢/٢.

(٢) أخبار الزمان، ص٧٤.

(٣) الحيوان، ١٧٥/٤.

(٤) التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي، ص١٣٤.

(٥) صحيح البخاري، ١٥٤/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"المقدمة"

تعود فكرة المعجم الشعري هذا إلى الدكتور إحسان الديك، الذي سلط الأضواء على طريقة إعداده. فعمدت إلى قراءة الأشعار من دواوين الشعراء، ومن المصادر الشعرية، والمصادر الأدبية، وذلك في حالة عدم وجود ديوان مطبوع لشاعر معين، وقمت بجمعها، معتمداً في ترتيب المعجم الترتيب الأبتثي للقوافي، ثم الترتيب حسب الحركات في القافية الواحدة، بدءاً بالقافية المضمومة، فالمفتوحة، فالمكسورة، فالساكنة، فالقافية المزيدة المرتبة كذلك.

وعمدت في توثيق الأشعار من مصدر واحد، وأحياناً من مصدرين أو أكثر، وذلك للتيسير على القارئ أو الباحث عملية الرجوع إليها. وتكمن أهمية هذا المعجم الشعري في أنه يحوي الأشعار التي تناولت الحية كلها، وبذلك يضاف إلى المكتبة العربية معجم شعري متخصص في الشعر الجاهلي، خاصة أن عملية البحث عن بعض الأشعار الجاهلية منفردة تشكل صعوبة، كونها غير مطبوعة في ديوان واحد متخصص، أو في معجم شعري متخصص.

وأرجو من الله أن يحقق هذا المعجم الفائدة الأدبية لدارسي اللغة العربية.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قافية الهمزة"

قال ضرار بن الخطاب الفهري:

إنهُ مُطْرِقٌ يريدُ لَنا الأمـــ ـــرَ سكوتاً كالحيةِ الصَّماءِ[1]

"قافية الباء"

قال الزبير بن عبد المطلب:

عجبتُ لِما تصوَّبت العُقَـــابُ إلى الثعبان وهي لها اضطرابُ
وقد كانت تكون لها كَشــيِشٌ وأحيــــانا يكـــون لهـــا وثابُ
إذا قُمـــنْا إلى التأسيـــسِ شَدَّت تهيبنـــا البنــــــاءَ وقـــد نهابُ
فلما أنْ خَشــيِنْا الزجرَ جاءت عُقَـــابٌ تتلـــئبُ لها انصبـــابُ
فضمَّتها إليــــها ثم خــــلَّت لنا البنيـــان ليس لها حجـــابُ
فقمنا حاشــدين إلى بنـــاءٍ لنـــا منه القواعـــد والتـــرابُ
غداةَ يُرفع التأسيس منــــه وليس علـــى مساوينـــا ثيـــابُ
أعزَّ به المليكُ بنــي لـــؤيٍّ فليس لأصله منهــــم ذهـــــابُ
وقد حشدت هناك بنو عديٍّ ومُرَّةَ قد تقدمـــها كـــــــلابُ
فبوَّأنا المليكُ بذاك عِـــزَّاً وعند اللهِ يُلْتمسُ الثـــــــوابُ[2]

قال أمية بن أبي الصلت:

كذى الأفْعَى تَربََّبَها لَدَيْهِ وذي الجِّنِّي أرْسَلَها تسَابُ
فلا رَبُّ البرية يأْمَنَنْــها ولا الجنيُّ أصبح يُستَتَابُ [3]

---

(١) ديوانه، ص٤٥.

(٢) السيرة النبوية، ١/٣٨٣.

(٣) ديوانه، ص٢٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال عبيد بن الأبرص:

وَلَقَدْ جَرَى لهمُ فلمْ يَتَعَيَّفُوا تَيْسٌ قَعيدٌ كالْوَلِيَّةِ أعْضَبُ

وأبو الفراخِ على خَشَاشٍ هَشيمةٍ مُتَنَكِّباً إبطَ الشَّمائِلِ يَنْعَبُ[1]

قال عنترة العبسي:

إن الأفاعي، وإن لانَتْ ملامسُهَا عِند التَّقَلُّبِ في أنيابِها العطَبُ[2]

قال شاعر:

أتذهَبُ سَلْمَى في اللِّمامِ ولا تُرَى وفي اللَّيْلِ أيْمٌ حيثُ شاءَ يسيبُ[3]

قال امرؤ القيس:

أرسلتُ دَلْوي في حافاتِ مظلمة جوفاءَ يقصرُ عن مرجوّها السببُ

ليلاً فجاءت بماءٍ من معوّرة مرّتِ عليه حديدُ النابِ معتصبُ

أعمى أصم له رقشاءُ تألفُهُ ما إنْ له غير إزراء به نشب

رأي الخزاية أن تجتر مفعمةً دلوي فجاء على أعوادِهَا يثبُ

غضبانَ في نابِهِ الحوباءِ عاجلة كالحبلِ أسود يعلو لونَهُ شُهُبُ

أهويت سَوْطي له لما برزتُ به فخرَّ فوقه أُتيِّ الحوضِ يضطربُ[4]

قال تأبط شراً:

سَلَبْتَ سلاحي بائساً وشَتَمتني فيا خيرَ مسلوبٍ ويا شرَّ سالبِ

فان أكُ لَمْ أخضبْكَ فيها فإنها نيوبُ أساويدَ وشولُ عقاربِ[5]

قال معقل بن خويلد الهذلي في سيفه:

وما عَرَّيْتُ ذا الحيَّاتِ إلا لأَقْطَعَ دَابِرَ العيشِ الحُبَابِ[1]

---

(١) ديوانه، ص٣١.

(٢) ديوانه، ص٩٢.

(٣) الحيوان ١٧٤/٤.

(٤) ديوانه، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤، ص٣٢٠.

(٥) شعره، ص٧٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال حريز بن نشبة:

كأنّني حينَ أحبُو جعفراً مدحي أسقيهِمُ طُرَقَ ماءٍ غير مَشْروبِ

ولو أخاصِمُ أفعى نابُهَا لَثِقٌ أو الأساوِدَ من صُمِّ الأهاضيب

لكنتمْ معها إلْباً، وكان لها نابٌ بأسفل ساقٍ أو بِعُرْقُوبِ [٢]

قال صخر الغي:

لعَمرُ أبي عَمرو لقد ساقَه المَنا إلى جَدَثٍ يُوزَى له بالأهاضب

لِحَيَّةِ جُحْرٍ في وِجارٍ مقيمةٍ تنمَّى بها سَوْقُ الْمَنَا والجَوالب

أخي لا أخا لي بعدَه سبقتْ به منيّتُــه جمــعَ الرُّقى والطَّبائب [٣]

قال علقمة بن عبدة:

وراح يباري في الجنابِ قَلُوصَنا عزيزاً علينا كالحُبابِ المُسيَّبِ [٤]

قال أبو قيس صيفي بن الأسلت:

بِكُلِّ سَلْهبَةٍ كالأيمِ ماضيةٌ وكلُّ أبيضَ ماضي الحدِّ مخشوبُ[٥]

قال المرار بن سعيد الفقعسي:

كأنَّ لدى ميسورِها مَتنَ حَيَّةٍ تحرَّكَ مشواها وماتَ ضريبُها[٦]

قال أوس بن حجر:

أبني لبينى لم أجد أحداً في الناسِ ألأمَ منكم حَسَبا

وأحقَّ أن يُرْمَى بداهيةٍ إن الدواهيَ تطلعُ الحَدَبا

وإذا تسوئلَ عن محايدِكُمْ لم توجدوا رأساً ولا ذَنَبَا[١]

---

(١) تاج العروس من جواهر القاموس، مادة "حيى".

(٢) الحيوان، ٤/١٥٢.

(٣) ديوان الهذليين، ٢/٥١-٥٢.

(٤) ديوانه، ص٢٠.

(٥) ديوانه، تحقيق د. حسن محمد باجورة، مكتبة دار التراث، القاهرة، ص ٧٠.

(٦) ابن قتيبة، كتاب المعاني الكبير، دار المكتبة العلمية، بيروت، ١٩٨٤، ٢/ ٦٦٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال مالك بن حريم على لسان الهاتف:

يا أيها القوم لا ماء أمامَكُـــــمُ حتى تسوموا المطايا يومها التَّعَبا

ثم اعدلوا شامةً فالماء عن كثَبٍ عين رواء وماء يذهب اللَّغبــا

حتى إذا ما أصبتم منه ريكُمُ فاسقوا المطايا ومنه فاملأوا القِرَبا(٢)

قال عبيد بن الأبرص على لسان الهاتف:

يا صاحبَ البَكْرِ المضلّ مذهبه دونك هذا البكر منا فاركبه

حتى إذا الليلُ تراءى غَيْهَبُــهُ وأقبلَ الصبحُ ولاحَ كَوكَبُه

فحط عنه رحلهُ وسيبه(٣)

"قافية التاء"

قال حاتم الطائي:

لمّا رأيتُ الناسَ هَرَّتْ كِلابُهُمْ، ضَرَبْتُ بسيفي ساقَ "أفعى" فخرَّتِ (٤)

قال صحير بن عمير:

"وكشة الأفعى ونفح الأصلة"(٥)

قال الأعشى:

فلا تلْمس الأفعى يداكَ تُريدها ودَعْها إذا ما غَيَّبَتْها سَفاتُها (٦)

قال خالد بن زهير بن محرث:

ولا تبعثِ الأفْعى تُداورُ رَأْسَها ودَعْهَا إذا ما غَيَّبَتْها سَفَاتُها(١)

---

(١) ديوانه، ص٤.

(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٦٢/٢.

(٣) المصدر نفسه، ٣٥٥/٢.

(٤) ديوانه، ص٦٧.

(٥) الأصمعيات، ٢٣٦.

(٦) ديوانه، ص٢١٢، وينظر، الحيوان، ١٨٩/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال أبو ذؤيب الهذلي:

فلا تتبعِ الأفعى يديكَ تَنُوشُها ودَعْهَا إذا ما غَيَّبَتْها سَفَاتُها

وأطفئ ولا توقِدْ ولا تَكُ مِحْضَأً لنارِ العُداةِ أنْ تطيرَ شَكَاتُها(٢)

"قافية الجيم"

قال الشماخ:

وكنتُ إذا لاقَيْتُها كان سِرُنا لنا بَيْننا مثل الشواء المُلَـــهْوَجِ

لكنتُ إذاً كالمُتَّقي رَأْسَ حيَّةٍ بحاجَتِها إن تُخطِئ النَّفْسَ تُعْرجِ (٣)

"قافية الحاء"

قال جران العود:

ألا لا تغرَّنَّ امرأً نَوْفَلِيَّـــةٌ على الرَّأس منها، والترائبُ وُضَّحُ

ولا فاحِمٌ يُسقَى الدِّهانَ كأنَّهُ أساوِدُ يزهاها لعينـــك أبْطَـــحُ(٤)

ومما نسب إلى آدم قوله حين قتل ابنه قابيل هابيل:

تغيرتِ البلادُ ومَنْ عليها فَوَجْهُ الأرضِ مُغْبرٌّ قَبيـحُ

تَغَيَّرَ كلُّ ذي لَوْنٍ وطَعْمٍ وقَلَّ بشَاشَةَ الوجــهُ الصَّبيحُ

وجاوَرَنا عدوٌّ ليسَ يَفْنَـــى لَعينٌ لا يمــوتُ فنســتريحُ

أهابل إن قُتِلْتَ فإنَّ قلبي عليكَ اليومَ مُكتئبٌ قَــريحُ!!(٥)

فما كان من عدوه اللدود إبليس إلا أن أجابه:-

تَنَحَّ عن البلادِ وساكنيهــا فقدْ في الخُلْدِ ضاقَ بك الفسيحُ

وكنتَ بها وزوجُكَ في رَخاءٍ وقلبُكَ من أذى الدنيــا مُريــحُ

---

(١) ديوان الهذليين، ١/١٦٢.

(٢) المصدر نفسه، ١/١٦٣.

(٣) ديوانه، ص٣٤.

(٤) الحيوان، ٤/٢٤٦.

(٥) جمهرة أشعار العرب، ١/ ١٤٠، وينظر، إبن كثير، أبو الفداء إسماعيل: قصص الأنبياء، المكتبة التوفيقية، القاهرة، ص٤٦، وينظر، نهاية الأرب في فنون الأدب، ٣/ ٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فما بَرِحَتْ مكايَدتي ومَكْــري إلى أنْ فاتَكَ الثمــنُ الرَّبيـــحُ
ولولا رحمةُ الرحمــنِ أمْسَى بِكَفِّكَ مِنْ جِنانِ الخُلْدِ ريحُ!!(١).

قال جدع بن سنان:

أتوا ناري فقلتُ: منونَ أنتم؟ فقالوا: الجنُّ قلت: عموا صباحاً
نزلت بِشِعْبِ وادي الجن لما رأيت الليل قد نشــر الجناحــا
أتيتــهمُ وللأقــدارِ حتـــم تلاقي المــرء صبحاً أو رواحا (٢)

"قافية الدال"

قال حسيل بن عرفطة:

منْ دونِ سَيْبِكَ لَوْنُ لَيْلٍ مُظْلِمٍ وَحَفيفُ نافِجَةٍ وكَلْبٌ موسَدُ
والضَّيْفُ عِنْدَك مِثْلُ أسودَ سالِخٍ لا بَلْ أحَبُّهُما إليكَ الأسْوَدُ (٣)

قال عمرو بن معد يكرب الزبيدي:

أرِقْتُ وأمْسَيْتُ لا أرْقُدُ وَسَاوَرَني الموجِعُ الأسْوَدُ(٤)

قالت حليمة الحضرية في رثاء زوجها:

يقَرُّ لِعيني أنْ أرى لِمَكانِهِ ذُرَى عقدات الأجْرَعِ المتفاوِدِ
وَأَنْ أرِدَ الماءَ الذي شَرِبَتْ بِهِ سُلَيْمَى وإنْ مَلَّ السُّرى كُلُّ واحدِ
وألصقُ أحْشائي ببردِ تُرابِهِ وإنْ كانَ مخلوطاً بِسُمِّ الأساود(٥)

قال أبو خراش الهذلي:

لعَمرُكَ والمنايا غالبــاتٌ على الإنســان تَطلعُ كلَّ نَجْدِ

---

(١) جمهرة أشعار العرب، ١/ ١٤١.
(٢) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٣٥٢/٢.
(٣) الحيوان، ٢٤٦/٤.
(٤) ديوانه، ص٦٨.
(٥) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لقد أهلكتِ حيَّةَ بطنِ أنْفٍ　　　على الأصحاب ساقاً بعد فقدِ [١]

قال الشماخ بن ضرار:

خُوصُ العيونِ تَبَارَى في أزِمَّتها　　　إذا تفَصَّدْنَ من حرِّ الصَّياخِيد
وكُلُّهُنَّ يُباري ثِنْي مُطَّرِدِ　　　كحيَّةِ الطَّوْدِ ولّى غيرَ مطرودِ [٢]

وقال:

لا تحسبنّي وإنْ كُنْتَ امرأً غَمِراً　　　كحَيَّةِ الماءِ بَيْن الطيِّ والشِّيدِ [٣]

قال الشنفرى:

أضعتُمْ أبي إذْ مالَ شِقُّ وِسادِهِ　　　على جَنَفٍ قَدْ ضاعَ مَنْ لم يُوَسَّدِ
فإن تَطْعنوا الشَّيْخَ الذي لم تُفَوِّقوا　　　مَنِيَّتَهُ وَغِبْتُ إذْ لَمْ أُشَهَّدِ
فَطَعْنَةُ خِلْسٍ منكم قَدْ تَركْتُها　　　تَمُجُّ على أقطارِها سُمَّ أسْوَدِ [٤]

قال العباس بن مرداس:

خُفَافٌ ما تزالُ تَجُرُّ ذَيْلاً　　　إلى الأمرِ المُفارِقِ للرَّشادِ
إذا ما عاتَبَتْكَ بنو سُلَيْمٍ　　　ثَنَيْتَ لهم بِداهيةٍ نآدِ
وقد عَلِمَ المَعَاشِرُ من سُلَيمٍ　　　بِأنّي فيهم حَسَنُ الأيادي
فأوردْ يا خُفَافُ فقد بُليتمْ　　　بَنِي عَوْفٍ بحَيَّةِ بَطْنِ وادِ [٥]

قال عبيد بن الأبرص على لسان هاتف:

أنا الشجاعُ الذي ألفيتَهُ رمضاً　　　في رملةٍ ذات كدكَادٍ وأعقادِ
فَجُدتَ بالماءِ لمّا ضنَّ حامِلُهُ　　　جوداً عَلَيَّ ولمْ تَبْخَلْ بإنكاد

---

(١) ديوان الهذليين، ١٧١/٢، وينظر، الأغاني، ٦٩/٢١.
(٢) ديوانه، ص٤٣.
(٣) المصدر نفسه، ص٤٥.
(٤) ديوانه، ص٤٥.
(٥) ديوانه، تحقيق يحيى الجبوري، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١، ص٥٧، وينظر، العباس بن مرداس السلمي شاعر الفخر والحماسة، ص٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

هذا جزاؤُكَ مني لا أَمُنُّ بِهِ   فارْجعَ حميداً رعاكَ اللهُ من غاد
الخيرُ يبقى وإن طالَ الزمانُ به   والشرُّ أخبثُ ما أوْعيتَ من زادِ(١)

وقال:

فقد أوْرَثَتْ في القَلبِ سُقماً يَعودُهُ   عِياداً كَسُمِّ الحيَّةِ المُتَرَدِّدِ (٢)

قال مزرد بن ضرار الذبياني:

تأوهُ شيخٍ قاعدٍ وعجوزِهِ   حريبينِ بالصَّلْعاءِ ذاتِ الأساودِ (٣)

قال الممزق العبدي:

تُلاقِي مِنْ تَذَكُرِ آلِ ليلى   كما يَلْقى السَّليمُ من العِدادِ(٤)

قال النابغة الذبياني:

أهاجكَ من سُعداكَ مغنى المعاهدِ   بروضةِ نُعميٍّ فذاتِ الأساودِ(٥)

قال أوس بن حجر:

فَمُنْدَفَعُ الغلاّنِ غلاّنِ مُنْشد   فَنَعْفُ الغرابِ خُطْبُهُ فأساوِدُه(٦)

قال عنترة الطائي:

أترجُو حياةً يا ابن بشْرِ بن مسهرٍ   وقد علِقَتْ رجلاك في ناب أسودا
أصَمَّ جِباليٍّ إذا عضَّ عضَّــةً   تزايـــلَ عنه جلــدُهُ فتبــدَّدا
بِسلْعٍ صَفاً لم يَبْدُ للشَّمس قَبْلَها   إذا ما رآه صاحب اليَمِّ أُرْعِدا
لهُ رِبْقَةٌ في عنقه مِنْ قميصِهِ   وسائِرُهُ عن مَتْنِهِ قد تَقَدَّدَا
رَقُودِ ضُحَيَّاتٍ، كَأَن لِسَانَهُ   إذا سمِع الأجراس مِكْحَالُ أَرْمَدَا

---

(١) جمهرة أشعار العرب، ١/ ١٨٠، وينظر، بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٥٥.
(٢) ديوانه، ص٦٦.
(٣) المفضليات، ص٧٦.
(٤) الأصمعيات، ص١٦٤، وينظر، الحيوان، ٢٤٩/٤.
(٥) ديوانه، ص٢٥.
(٦) ديوانه، ص٢٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

يفيتُ النفوسَ قبلَ أن يقعَ الرُقى   وإنْ أبْرَقَ الحاوي عَليهِ وَأرْعَدَا(١)

قال طرفة بن العبد:

أنا الرجلُ الضَربُ الذي تَعْرِفونَهُ   خَشاشٌ كرأسِ الحيةِ المُتَوَقِدِ(٢)

"قافية الراء"

قال أعشى باهلة:

لا يغمرُ الساقُ من أيْنٍ، ومن وَصَبٍ   ولا يعض على شرسوفه الصَّفرُ (٣)

وقال:

طاوي المصيرِ على العَزّاءِ مُنْجَرِدٌ   بالقومِ، ليلةَ لا ماءٌ ولا شجرُ
لا يتأرّى لما في القِدْرِ، يَرْقُبُهُ   ولا يعض على شرسوفه الصَّفرُ (٤)

قال عمرو بن شأس:

إياكَ، إياكَ أن تَمَنى بداهيةٍ   رقشاء ليس لها سَمْعٌ ولا بَصَرُ
لا ينبتُ العشبُ في وادٍ تكونُ به،   ولا يجـاورُها جِـنٌّ ولا بَشَـرُ
خشناء، شائكةُ الأنيابِ، ذابلة   ينبو من اليُبْسِ، عن يافوخها الحجر
لو سُرِّجت بالنَّدى ما مسَّها بَللٌ   ولو تكنَّفها الحاوون ما قَدروا
قد جاوروها، فما قام الرُقاةُ لها،   وخاتلوها، فما آبوا، ولاظفروا
يكبو لها الورلُ العاديُّ إذا نفختْ   جنباً ويهربُ منها الحيةُ الذَّكَرُ(٥)

قال ثعلبة بن صعير:

تُضْحِي إذا دَقَّ المطيُّ كأنها   فَدن ابن حية شادَهُ بالآجر (١)

(١) الحيوان، ٤/٣٠٨.

(٢) ديوانه، ص٥٣.

(٣) الأصمعيات، ص٩٠.

(٤) جمهرة لأشعار العرب، ٢/ ٧١٨.

(٥) الحيوان، ٤/٣٠٩، وينظر، الحيوان في الأدب العربي، ٣٨٧/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الحطيئة:

مِنْ كُلِّ شَهْباءَ قَدْ شابَتْ مَشافِرُها   تَنْحَازُ من حسها الأفعى إلى الوَزَرِ (٢)

قال خداش بن زهير:

وإنا لمن قوم كرام أعزة   إذا لحقت خيل بفرسانها تجري

ونَحنُ إذا ما الخيلُ أدركَ ركضها،   لبسنا لها جِلدَ الأساودِ والنمرِ(٣)

قال الحكم بن عمرو البهراني:

والوزغُ الرقطُ على ذُلِّها   تُطاعِمُ الحيَّاتِ في الجُحْرِ(٤)

قال طرفة بن العبد:

تلاعب مثنى حضرمي كأنه   تعمج شيطان بذي خروع قفر(٥)

قال قيس بن الخطيم:

متى تلقوا رجال الأوس تلقوا   لباس أساود وجلود نمر(٦)

قال أبو كبير الهذلي:

من يأتِهِ منهمْ يَؤبْ بِمُرِشةٍ   نَجْلاءَ تُزْغِلِ مثلَ عَطِّ المِسْتَرِ

أم مَنْ يُطالِعهُ يقُلْ لِصحابه   إن الغَريفَ تُجِنُّ ذاتَ القِنْطر (٧)

قال المنخل اليشكري:

يَعْكِفْنَ مِثْلَ أساودِ الـــ   تَّنومِ، لم تعكف لِزَوْرِ (١)

---

(١) المفضليات، ص١٢٩.

(٢) ديوانه، ص٩٩.

(٣) جمهرة أشعار العرب، ١/٥٢٦، وينظر، البغدادي، عبد القادر بن عمر، خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب، تحقيق محمد نبيل طريفي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨، المجلد العاشر: ٣٧٣.

(٤) الحيوان، ٦/ ٦٠.

(٥) شرح ديوانه، ص١٥٦، وينظر، الحيوان، ٤/١٣٣.

(٦) ديوانه، تحقيق ناصر الدين الأسد، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧، ص١٨٣.

(٧) ديوان الهذليين، ٢/١٠٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال ابن هند:

أودى بأم سُلَيمى لا طيء لبدِ   كحيةِ منطوِ من بين أحجارِ [٢]

قال جاهلي:

قد كاد يقتلني أصَمُ مُرَقَش   من حبكم والخطب غير كبير

خُلِقَتْ لَهَازِمُهُ عِزِينَ وَرأسُهُ   كالقرص فُلْطِحَ من طحينِ شَعِيرِ

ويديرُ عيناً للوِقاعِ كَأَنَّها   سَمْراءُ طاحت من نَفِيضِ بَرِير

وكأن ملقاه بكل تنوفةِ   ملقاكَ كفةَ مُنخلِ مأطورِ

وكأنَّ شِدقيه إذا استعرضتَه   شِدقا عَجُوزِ مَضْمَضَتْ لطهورِ [٣]

قال النابغة بن الجعدي:

فأرسل في دهمٍ، كأن حنينها   فحيحُ الأفاعي أعجلت أن تجحرا [٤]

قال النابغة الذبياني:

صل صفا لا تنطوي من القصر   طويلة الإطراق من غير خفر

داهية قد صغرت من الكبر   كأنما قد ذهبت بها الفكر

مهروتة الشدقين حولاء النظر   تفتر عن عوج حداد كالإبر [٥]

قال شاعر:

ولم أكن كقتيل العين وسطكم   ولا ذبيحة تشريق وتنحار [٦]

وقال النابغة الذبياني:

وإني لألقى من ذوي الضغن منهمُ   وما أصبحتْ تشكو من الوجدِ ساهره

---

(١) الأصمعيات، ص٦٠.

(٢) الزركلي، خير الدين: الأعلام، القاهرة، ١٩٧٧، ٥/٢٦١.

(٣) الحيوان، ٢/٢١٤، ٤/١٨١-١٨٢.

(٤) جمهرة أشعار العرب، ٢/ ٧٨٢.

(٥) ديوانه، ص٣٦.

(٦) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٥٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كما لَقِيَتْ ذاتُ الصفا من حليفها   وما انفكّتِ الأمثالُ في الناسِ سائره

فقالتْ له: أدعوكَ للعقل وافراً   ولا تَغشينّي منكَ بالظلم بادره

فواثقها باللهِ حينَ تراضيا   فكانت تَريهِ المالَ غِبّاً وظاهره

فلمّا توفى العقل إلاّ أقلّهُ   وجارتْ به نَفْسٌ عن الخيرِ جائره

تذكّرَ أنّى يجعلُ اللهُ جُنّةً   فَيُصبِحَ ذا مالٍ ويقتل واتره

فلمّا رأى أن ثمّرَ اللهُ مالهُ   وأثّلَ موجوداً وسدّ مفاقره

أكَبَّ على فأسٍ يُحِدُّ غرابَها   مذكّرةٍ من المعاولِ باتره

فقامَ لها من فوقِ جُحرٍ مشيّدٍ   ليقتلها أو يخطئ الكفُّ بادره

فلما وقاها اللهُ ضربةَ فأسهِ   وللبرّ عينٌ لا تغمّضُ ناظره

فقال تعالي نجعلِ اللهَ بيننا   على مالنا أو تُنْجزي ليَ آخره

فقالت يمينَ اللهِ أفعلُ إنني   رأيتُكَ غدّاراً يمينكَ فاجره

أبى ليَ قبرٌ لا يزالُ مقابلي   وضربةُ فأسٍ فوق رأسي فاقره (١)

قالت امرأة جاهلية:

أُعيذُهُ بالكعبةِ المستوره   ودعواتِ ابن أبي مخدوره،

وما تلاه محمد من سوره   إني إلى حياتِهِ فقيره

وإني بعيشهِ مسرورَه (٢)

"قافية السين"

قال مضرس بن لقيط:

لعمرك إني لو أخاصم حية   إلى فقعس ما أنصفتني فقعس

---

(١) ديوانه، ص٤٧.

(٢) أخبار مكة، ص١٠/١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

إذا قلت مات الداء بيني وبينهم   سعى حاطب منهم لآخر ينبس (١)

قال الأخنس بن شهاب التغلبي:

أبيت إذا نام الخلي كأنني   سليم أفاع لا يلاقي له أنسا (٢)

قال عبيد بن الأبرص:

ما حية ميتة أحييت بميتها   درداء ما أنبتت سناً وأضراسا

ما السود والبيض والأسماء واحدة   لا يستطيع لهن الناس تماسا (٣)

"قافية الصاد"

قال الأعشى:

يراكَ الأعادي على رغمِهم،   تحلُّ عليهم محلاً عويصا،

كحيةِ سلعٍ من القاتلات   تقدُّ الصرامةُ عنك القميصا (٤)

"قافية الضاد"

قال ذو الإصبع العدواني:

عذير الحيِّ من عَدْوا   نَ كانوا حَيَّةَ الأرضِ (٥)

"قافية الطاء"

قال المتلمس:

إنِّى كساني أبو قابوسَ مرْفَلَةً   كأنَّها سَلْخُ أبكارِ المَخاريطِ

محبوكةً حُبِكَتْ منها نَمانِمُها   من الدَّمَقْسِ أو من فاخِرِ الطُّوطِ

---

(١) الحيوان، ٤/١٥١.

(٢) الحماسة، البحتري، ص١٩.

(٣) ديوانه، ص٨١.

(٤) ديوانه، ص١١٩.

(٥) الأصمعيات، ص٧٢، وينظر، الحيوان، ٤/٢٣٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

كأنما لونها، والصبح منقشع   قبل الغزالة ألوان الحماطيط (١)

قال المتنخل الهذلي:

كأنَّ مزاحِفَ الحَيَّاتِ فيها   قُبيلَ الصُبْحِ آثارُ السِّيَاطِ (٢)

"قافية العين"

قال مالك بن حريم:

وأوصاني الحريمُ بعزِّ جاري   وأمْنَعُهُ وليس به امتناعُ

وأدفعُ ضَيْمَهَ وأذبُّ عَنْـــهُ   وأمنعهُ إذا مُنِعَ المَتَــاعُ (٣)

قال عبيد بن العزى السلمي:

يزجين بكراً نهز الرَّيْط مشْيها   كما مارَ ثعبانُ الفضا المتدافعُ(٤)

قال ربيعة بن مقروم:

فصبح من بني جلان صلا   عطيفته وأسهمه المتاع (٥)

قال عبده بن الطبيب:-

واعصوا الذي يزجي النمائم بينكم   متنصحاً ذاك السِّمامُ المُنْقَعُ (٦)

قال النابغة الذبياني:

فبتَ كأني ساورتني ضَئيلةٌ   من الرُّقْشِ في أنيابها السُّمُّ ناقع

يسهدُ من ليل التِّمامِ سليمُها   لِحَلْيِ النساءِ في يديهِ قعاقــــع

تناذَرها الراقونَ من سوءِ سمْعِها   تطلقهُ طَوْراً وطَوْراً تراجعُ(١)

---

(١) ديوانه، ص١١٦-١١٨.

(٢) ديوان الهذليين، ٢/٢٥، وينظر، الحيوان، ٤/١٧٥، وينظر، جمهرة أشعار العرب، ١/ ٦٠٣.

(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٦٢.

(٤) الجبوري، يحيى: قصائد جاهلية نادرة، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢، ص١٢٢.

(٥) المفضليات، ص١٨٩.

(٦) الجبوري، يحيى: شعر عبدة بن الطبيب، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧١، ص٤٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال السفاح بن بكير اليرعوبي:

قوالُ معروفٍ وفعاله عقارُ مثنى أمهاتِ الرباعِ

يَجْمَعُ حِلْماً وأناةً معاً ثُمَّتَ يَنْبَاعُ انبياعَ الشجاعِ[٢]

قال الشماخ بن ضرار:

ترى قِطَعاً من الأحناشِ فيهِ جَماجِمُهُنَّ كالخَشَلِ النَّزيعِ[٣]

قال المعطل الهذلي:

جواداً إذا ما الناسُ قلَّ جَوادُهمْ وسَقَّاً إذا ما صَرَّحَ الموتُ أقْرَعا[٤]

قال أسباط الهذلي:

أرِقْتُ فلم تَطْعَمْ لي العَيْنُ مَهْجَعَا وبِتُّ كما باتَ السليمُ مُقَرَّعَا

كأني سليمٌ نالَهُ كَلْمُ حَيَّةٍ تَرَى حَوْلَهُ حَلْيَ النِّسَاءِ مُرَصَّعَا[٥]

قال تأبط شراً:

قليل ادخار الزاد إلا تعلة وقد نشر الشرسوف والتصق المعا[٦]

"قافية الفاء"

قال ثعلبة بن عمرو:

ولو كُنْتُ في غُمْدَانَ يَحْرُسُ بَابَهُ أراجِيلُ أُحْبُوشٍ وَأَسْوَدُ آلِفُ

إذاً لأتَتْنِـــي، حَيْثُ كُنْتُ مَنِيَّتِـــي يَخُبُّ بها هَادٍ لإثْرِيَ قائِفُ[١]

---

(١) ديوانه، ص٥٣.

(٢) الشيباني، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد: شرح المفضليات للتبريزي، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٩٧، ٣/١١٢٥.

(٣) ديوانه، ص٨٠، وينظر، الحيوان، ٥/٢٨٢.

(٤) ديوان الهذليين، ٣/ ٤١.

(٥) الحيوان، ٤/ ٢٤٨.

(٦) شعره، ص٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الشنفرى:

فبتُّ على حدِّ الذراعينِ مُجْذِياً ... كما يَتَطَوَّى الأرْقمُ المُتعطِّفِ[2]

وقال:

وواد بعيدِ العُمْقِ ضَنْكٍ جُمَاعُهُ ... مَرَاصِدُ أيْمٍ قانتِ الرأسِ أخْوفُ [3]

قال عنترة الطائي:

عساكَ تَمْنى مِنْ أراقمِ أرْضِنا ... بأرْقَمَ يُسقي السمَّ من كلِّ مَنْطِفِ [4]

قال أبو كبير الهذلي:

ولقد وردتَ الماءَ لم يَشْرَبْ به ... بين الرَّبيع إلى شهور الصَّيِّفِ

إلا عَواسلُ كالمِراط مَعِيـــدةٌ ... بالليل مــوْردَ أيِّمٍ متغضِّــفِ [5]

"قافية القاف"

قال الحطيئة في رثاء قيس بن زهير:

إنَّ قيســاً كانَ مَيْتَتُــهُ ... أنفــا والحــر مُنْطَــلِقُ

شامَ ناراً بِاللِّوى اقتدحَتْ ... وشُجــاع البَطْنِ يَخْتَنِقُ

في دريــــسٍ لا يُغَيِّبُــهُ ... ربَّ حرٌّ ثوبــهُ خَلَــقُ [6]

قال كعب بن زهير:

لقد كنتم بالسهلِ والحزنِ حيَّةً ... إذا لدغت لم تشفِ لدغَتَهَا الرُّقى [7]

---

(١) المفضليات، ص٢٨٣.

(٢) ديوانه، ص٥٣.

(٣) المصدر نفسه، ص٥٥.

(٤) الحيوان، ٣٠٨/٤.

(٥) ديوان الهذليين، ١٠٤/٢.

(٦) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣١٤، ولم أجدها في ديوانه.

(٧) ديوانه، ص٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال تأبط شراً:

يسري على الأَيْنِ والحَيَّاتِ محتفياً نفسي فِداؤكَ مِنْ سارٍ على ساقِ(١)

قال الشماخ يمدح عرابة الأوسي:

ماذا يَهيجُكَ من ذكْرِ ابنةِ الراقي إذْ لا تَزالُ على هَمٍّ وإشفــاقِ؟

قامتْ تُريكَ أثيثَ النَّبتِ مُنْســدِلاً مثلَ الأساودِ قد مُسِّحْنَ بالفاقِ

ماذا يهيجكَ؟ لا تسلى تَذَكُّرَها ولا تجودُ بموعودٍ لمشتاقِ(٢)

قال المهلهل بن ربيعة التغلبي:

إن تحت الأحجار حَزْماً وعَزْماً وخصيماً ألد ذا معــلاق

حيــةً في الوجــار أربد لا ينــ ـــفع منه السليمَ نفثةُ راقِ (٣)

قال تأبط شراً يصف حبيبته:

وإذا تجيء تجيء شحبٌ خَلْفَها كالأيمِ أصعَدَ في كثيبٍ يرتقي (٤)

"قافية الكاف"

قال تأبط شراً:

كأنَّ به في البردِ أثناء حيةٍ بُعَيْدَ الخطى شتَّى النوى والمسالكِ(٥)

قال لبيد بن أبي ربيعة:

أبا مالكٍ إني لِحُكْمِكَ فاركٌ وزبّانَ قد أمسى لحكمك فاركا

هم حيةُ الوادي فإن كنت راقياً فدونكَ أدركْ ما ازْدَهَوْا من فنائكِا (٦)

---

(١) شعره، ص١٠٤، وينظر، الحيوان، ٢٣٤/٤.

(٢) ديوانه، ص١٠١.

(٣) شرح ديوان امرئ القيس، ص٢٣٤.

(٤) شعره، ص٢٤.

(٥) شعره، ص١١٦.

(٦) ديوانه، ص١٠٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قافية اللام"

قال تأبط شراً:

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ سُمّاً، كما أطـ ـــرَقَ أفعى ينفُثُ السمَّ صِلُّ (١)

قال الشنفرى:

مُطْرِقٌ يَرْشَحُ موتاً كما أطـــ ـــرقَ أفعى ينفُثُ السمَّ صِلُّ (٢)

قال زيد الخيل:

فإنَّ امرأً منكم، معاشرَ طيءٍ رجا فَلَجاً، بعدَ ابنِ حيةَ، جاهلُ(٣)

وقال:

فبرقةُ أفعى قد تقادمَ عهدُها فما إنْ بها إلا النِّعاجُ المَطافِلُ(٤)

قال الشنفرى:

فإما تَرَيْني كابْنَةِ الرَّمْلِ ضاحياً على رِقَّةٍ أَحْفَى ولا أَتَنَعَّلُ (٥)

وقال:

ويَومٍ من الشِّعْرَى يَذُوبُ لُعَابُهُ أفاعِيهِ في رَمْضائهِ تَتَمَلْمَلُ (٦)

قال كعب بن زهير:

كأنَّ شُجاعيْ رملةٍ درَجا معاً فمرَّا بنا لولا وقوفٌ ومنزلُ (٧)

قال مزرد بن ضرار الذبياني:

---

(١) شعره، ص١٦٣، وينظر، الحيوان، ٢٣٤/٤.
(٢) المصدر نفسه، ص٨٥.
(٣) المصدر نفسه، ص١٤٢.
(٤) المصدر نفسه، ص١٦١.
(٥) ديوانه، ص٦٨.
(٦) ديوانه، ص٧١.
(٧) المصدر نفسه، ص٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

وأسْحَمَ ريَّان القُرُونِ كَأَنَّهُ   أَسَاوِدُ رَمَّانَ السَّيَاطُ الأطَاوِلُ (١)

وقال:

أصمَّ إذا ما هزَّ مارَتْ سراتُهُ   كما مارَ ثُعْبانُ الرِّمالِ المَوائِلُ(٢)

قال زيد الخيل:

ثم يكونُ العقلُ منكم صَحيفَةً   كما عُلِّقَتْ على السَّليمِ الجلاجِلُ(٣)

قال النضر بن شميل:

فبتُّ مُعَنًّى بالهمومِ كأنني   سليمٌ نفى عنه الرُّقادَ الجَلاجِلُ(٤)

وقال أبو خراش الهذلي:

لقد أهلكتِ حيـــةَ بطـــنِ أنفٍ   على الأصحابِ ساقاً ذات فضلِ

فما تركت عدواً بين بصرى   إلى صنعـــاء يطلبُـــهُ بـــذحـــلِ (٥)

قال امرؤ القيس:

أيقتُلُني والمَشْرَفيُّ مضاجِعي   ومسنونةٌ زرقٌ كأنيابِ أغْوالِ(٦)

وقال:

بدلت من وائلَ وكندةَ عَدْ   وانَ وفهماً صَمِّي ابنةَ الجَبلِ(٧)

قال أبو ذؤيب الهذلي:

عفت غَيْرَ نُؤْيِ الدار ماء أُبينُهُ   وأَقطاعِ طُفْيٍ قد عَفَتْ في المعاقل (٨)

---

(١) المفضليات، ص٩٤.

(٢) المصدر نفسه، ص٩٩.

(٣) شعره، ص١٤٢.

(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٠٥.

(٥) معجم البلدان، ٤٤٨/١.

(٦) شرح ديوانه، ص١٦٢.

(٧) شرح ديوانه، ص١٨٢.

(٨) ديوان الهذليين، ١/١٤٠، وينظر، الحيوان، ٣٠٥/٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الشمّاخ:

دارتْ من الدَّورِ فالموشومِ فاغترفتْ بقاعِ فَيْحانَ إجْلاً بعدَ آجالِ

على طريقٍ كظهرِ الأيْمِ مُطَّرِدٍ يهوي إلى قُنَّةٍ في مَنْهَلٍ عالِ [1]

قال المتنخل الهذلي:

كالأيم ذي الطرَّةِ أو ناشئِ الـــ بَرْديِّ تحت الخَفَاءِ المُغيلِ [2]

قال المهلهل بن ربيعة:

وليس الرجلُ الما جدُ مثلَ الرَّجلِ النَّذلِ

فتى كأن كألفِ منْ ذوي الإنعامِ والفضلِ

لقد جئتم بها دَهْما ءَ كالحيةِ في الجَذلِ

وقد جئتم بها شعوا ءَ شابَتْ مَفْرِقَ الطِّفْلِ [3]

قال النابغة الذبياني:

ماذا رُزِئْنا به من حيةٍ ذَكَرٍ نَضْناضَةٍ بالرزايا صلٍّ أصلالِ [4]

قال الشاعر:

علَّ زيداً أن يُلاقى مرَّةً في التماسِ بعضَ حياتِ الجبلْ

غاير العينين مفطوح القفا ليس من حيات حجرٍ والقلل

وترى السُّمَّ على أشْداقِهِ كشعاعِ الشَّمسِ لاحتْ في طَفَلْ

طردَ الأرْوى فما تقربهُ ونفىْ الحَيَّاتِ عن بيضِ الحجلْ [5]

وقال شاعر:

عادَيْتنا يا خُنفسا كام جُعَلْ عداوةَ الأوعالِ حياتِ الجبلْ [1]

---

(١) ديوانه، ص١٠٢.

(٢) ديوان الهذليين، ٢/٤.

(٣) شرح ديوان امرئ القيس، ص٢٨٨.

(٤) ديوانه، ص٦٩.

(٥) الحيوان، ٤/٤٩٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال الحطيئة:

يَظلُّ الرداءُ العَصْبُ فوقَ جبينهِ ... يَقي حاجِبيهِ ما تُثيرُ قنابِلُهْ

نفيتَ الجِعادَ الغُرَّ من عُقْرِ دارِهِمْ ... فلمْ يبقَ إلا حَيَّةٌ أنت قاتِلُهْ(٢)

قال النابغة الذبياني:

وقال: فلو يستطيعونَ دَبَّتْ لنا ... مذاكي الأفاعي وأطفالها(٣)

قال عدي بن زيد العبادي:

قَضَى لِسِتَّةِ أيّـامٍ خَلِيقَتَــــهُ ... وكانَ آخرَها أنْ صَوَّرَ الرَّجُــلا

دَعَاهُ آدَمَ صَوتاً فاستَجابَ لَـهُ ... بِنَفْخَةِ الرُّوحِ فِي الجِسْمِ الَّذي جبِلا

ثُمَّتَ أورَثَهُ الفِرْدَوْسَ يَعْمُرُها ... وزَوْجُهُ صُنْعَةٌ مِنْ ضِلْعِهِ جَعَـلا

لَمْ يَنْهَهُ رَبُّهُ عَنْ غَيْرِ واحِـدَةٍ ... مِنْ شَجَرٍ طَيِّبٍ: أنْ شمَّ أوْ أكـلا

فكانَتِ الحَيَّةُ الرَّقْشَاءُ إذْ خُلِقَتْ ... كما ترى ناقة في الخلق أو جملا

فَعَمَدَا للتي عَنْ أكلِهـا نُهِيـا ... بأمْرِ حواءَ لم تأخذ له الدَّغَـلا

كِلاهُما خاطَ إذْ بـُزَّا لُبُوسَهُما ... مِنْ وَرَقِ التِّينِ ثَوْباً لَمْ يَكُنْ غَـزِلا

فَلاطَها اللهُ إذْ أغْوَتْ خَلِيفَتَـه ... طُولَ اللَّيالي ولَمْ يَجْعَلْ لَهـا أجَلا

تَمْشي على بَطْنِهـا في الدَّهْـرِ ما عَمِـرَتْ ... والتُّرْبُ تَأْكُلُهُ حَزْنا وإنْ سَهُـلا

فَأتْعَبَـا أبَوانـا في حَيَاتِهِمـا ... وأوْجَدا الجُوْعَ والأوْصابَ والعِلَلا

وأوتِيا المُلْكَ والإنجيلَ نَقْـرَؤهُ ... نَشْفِـي بِحِكْمَتِـهِ أحْلامَنَـا عِلَلا

مِنْ غَيْرِ ما حاجَةٍ إلا لِيَجْعَلَنا ... فَوْقَ البَرِيَّةِ أرْباباً كمـا فَعَـلا (٤)

---

(١) الحيوان، ٤/ ٤٩٧.

(٢) ديوانه، ص١٥٥.

(٣) الحيوان، ٤/٢٦١، والبيت ليس موجودا في ديوانه.

(٤) ديوانه، ص١٥٩-١٦٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قافية الميم"

قال أمية بن أبي الصلت:

والحيّة الذكر الرّقشاءُ أخْرَجَهَا ... منْ جُحْرِهَا أمَنَاتُ اللهِ وَالقَسَمُ

إذا دعا باسمها الإنسانُ أوْ سَمِعَتْ ... ذات الإلهِ بدا في مشيِهَا رَزَمُ

من خَلْفِهَا حَمّةٌ لولا الذي سَمِعَتْ ... قد كانَ ثبتها في جُحرها الحمَمُ

نابٌ حديدٌ وكفٌّ غيرُ وادِعَةٍ ... والخلقُ مختلفٌ في القَوْلِ والشِّيمِ

إذا دُعِينَ بأسماءٍ أجَبْنَ لها ... لنافثٍ يعتريه اللهُ والكَلِمُ

لولا مخافة ربٍّ كان عَذَّبَهَا ... عرجاء تَظْلَعُ، في أنيابِهَا عَسَمُ

وقد بَلَتْهُ فَذَاقَتْ بَعْضَ مَصْدَقِهِ ... فليس في سَمْعِهَا، من رَهْبَةٍ صممُ

فكيف يأمنها أمْ كيف تألَفُهُ ... وليس بينهما قربَى ولا رَحِمُ! (١)

قال بشر بن أبي خازم الأسدي:

وإذا نظرتَ إلى الثّرى بِعِراصِهِم ... قلتَ: الشجاعُ ثوى فيها والأرقم (٢)

قال الحارث بن ظالم:

علَوْتُ بِذِي الحَيَّاتِ مَفْرِقَ رأسِهِ ... وَهل يَرْكَبُ المكْرُوهَ إلاَّ الأكارمُ (٣)

قال المرقش الأصغر:

إنْ يَغْضَبُوا يَغْضَبْ لذاك، كما ... يَنْسَلُّ من خِرْشَائِهِ الأرقمْ (٤)

قال مالك على لسان الهاتف:

يا مالِ عني جزاكَ اللهُ صالحةً ... هذا وداعٌ لكم مني وتسليمُ

لا تزهدنْ في اصطناعِ الخيرِ مَعْ أحدٍ ... إن الذي يَحْرِمُ المعروفَ محرومُ

---

(١) ديوانه، ص١١٥-١١٧.

(٢) الحيوان، ٤/١٧٦، والبيت ليس موجودا في ديوانه.

(٣) المفضليات، ص٣١٢.

(٤) المصدر نفسه، ص٢٤٠، وينظر، الحيوان، ٤/٣٤٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

من يفعلِ الخيــرَ لا يعــدمْ مَغَبَّتَــهُ   ما عاشَ والكفْرُ بعد الغبِّ مذمومُ
أنا الشجــاعُ الذي أنْجَيْــتَ مــن رهــقٍ   شكرتُ ذلك إن الشُّكْرَ مقســـومُ [1]

قال المتلمس:

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ، ولو يرى   مساغاً لنابيهِ الشجاعُ لَصَمَّما [2]

قال أوس بن حجر:

يرى النَّاسُ مِنَّا جِلدَ أَسْوَدَ سَالِخٍ   وَفَرْوَةَ ضِرْغَامٍ مِنَ الأُسْدِ ضَيْغَمِ [3]

قال بشر بن أبي خازم الأسدي:

ولقد دافعتُ علقَمةَ بْنَ عَمْرٍو   تُجاهَ البابِ مُجْتمعَ الخُصومِ
ومَسْعوداً، وأرْقمُ لم أضِعْهُ   وإذْ أرْقيهِمَا كَرُقَى السَّليمِ [4]

وقال:

لِمَنِ الدِّيارُ غَشِيتُّــها بِالأنْعــُمِ   تَبْدُو مَعَالِمُها كَلَوْنِ الأَرْقَمِ [5]

قال جابر بن حني التغلبي:

وقيظُ العِرَاقِ مِنْ أفاعٍ وَغُدَّةٍ   وَرِعْيٍ إذا ما أكْلَؤُوا مُتَوَخِمِ
لَيَنْتَزِعَنْ أرْماحَنا، فَأَزالَهُ   أبو حَنَشٍ عنْ ظَهرِ شَقَّاءَ صِلْدِمِ
يرى النَّاسُ مِنَّا جِلدَ أَسْوَدَ سَالِخٍ   وَفَرْوَةَ ضِرْغَامٍ مِنَ الأُسْدِ ضَيْغَمِ [6]

قال أبو خراش الهذلي:

أَرُدُّ شجاعَ البَطْنِ قَدْ تَعْلَمينَهُ   وأوثِرُ غَيْرِي مِنْ عِيالِكِ بالطعمِ [1]

---

(١) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/٣٦٣.
(٢) ديوانه، ص١٤٣، وينظر، الأصمعيات، ص٢٤٦.
(٣) ديوانه، ص١٢٤.
(٤) ديوانه، ص٢١٩.
(٥) المصدر نفسه، ص١٨٩.
(٦) المفضليات، ص٢١١-٢١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

قال دريد بن الصمة:

وأصبحنَ قد جاوَزْنَ أسفلَ ذي حَسَا وآثارُهَا فوقَ المَصيخِ كالرَّقْمِ[2]

قال عنترة العبسي يصف مهرة:

وتَصَنْهلُ خوفاً والرِّماحُ قَواصِدٌ إليها وتَنْسَلُّ انسلالَ الأراقِمِ[3]

وقال:

يحمي كَتيبتَهُ ويسعى خَلفَهَا يفري عواقبها كَلَذْغِ الأرْقَمِ[4]

قال معقل بن خويلد:

أبا مَعقِلٍ لا توطِئَنْكَ بَغَاضتَي رُؤوسَ الأفاعِي في مَرَاصِدِهَا العُرُمِ[5]

قال بعض الجاهليين:

فيا ليتَ إن الجِنَّ جازُوا جَمالتــي وزَحْزَحَ عَنِّي ما عَناني من السُّقم

ويا ليتهم قالوا أنْطنَا كُلَّ ما حَوَتْ يَمينُكَ في حربِ غِماسٍ وفي سلم

أُعلِّلُ قلبي بالذي يَزْعُمُونَـــــهُ فيا ليتني عوفيتُ في ذلك الزعم[6]

قال المرقش الأصغر:

لم أغْتَمِضْ طولَها حتى انقَضَتْ أكْلَؤُها بعدما نامَ السَّليم[7]

قال جاهلي:

لا هم إن كان أبو عمرو ظلم وخانني في علمه وقد علم

---

(1) ديوان الهذليين، ٢/١٢٨.

(2) ديوانه، ص١٦٢.

(3) ديوانه، ص١٦٣.

(4) جمهرة أشعار العرب، ص٢٢٢، ولم أجده في ديوانه، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، ط١، ١٩٨٠.

(5) ديوان الهذليين، ٣/٦٥، وينظر، الحيوان، ٤/٢١٣.

(6) المصدر نفسه، ٢/٣٥٩.

(7) المفضليات، ص٢٤٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فابعث له في بعض أعراض اللِّمَمْ   لميمةً مِنْ حَنَشٍ أعمى أصمْ
أسمرَ زحافاً من الرقطِ العرمِ   قد عاشَ حتى لو لم يمشي بِدم
فكلما أقْصَدَ منه الجوعُ شَمْ   حتى إذا أمسى أبو عمرو ولم
يمس منه مضض ولا سقم   قام وود بعدها أن لم يقم
ولم يقمْ لإبلْ ولا غنمْ   ولا لخوفٍ رَاعَهُ ولا لهم
حتى دنا من رأسِ نضناضٍ أصم   فخاضهُ بين الشراكِ والقدم
بمِذْرَبٍ أخرَجَهُ من جَوْفِ كُـــمْ   كأنَّ وَخْزَ نابِهِ إذا انتظَـمْ
وخزة إشفى في عطوف من أدم (١)

قال أبو زبيد (المنذر بن حرملة) من طيء وهو مخضرم:

فخاضَهُ بين الشراكِ والقَدَمْ   بمِذْرَبٍ أخرجَهُ من جوفِ كمْ(٢)

قال شاعر:

قالوا وقد طالَ عنائي والسقم   احملْ إلى الجنّ جمالات وضم
فقد فعلتِ والسقام لم يرمي   فبالذي يَمْلِكُ برئي أعْتَصِمْ(٣)

قال عمرو بن كلثوم:

هلَكْتَ وأهْلَكْتَ العشيرةَ كلَّها   فنهدُكَ نَهْدٌ لا أرى لك أرقما(٤)

قال حميد بن ثور الهلالي:

بغير حيا جاءت به أرحبيَّةٌ   أطال بها عامَ النتائج وأعظما(٥)

قال المتلمس:

---

(١) الحيوان، ٤/٢٨٣-٢٨٤.
(٢) المصدر نفسه، ٤/٢٨٤.
(٣) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٥٩.
(٢) ديوان عمرو بن كلثوم، ط: ١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦، ص٤٨.
(٥) ديوانه، ص٩٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

فأطرقَ إطراقَ الشُّجاعِ، ولو يَرى   مَساغاً لنابَيْهِ الشُّجاعُ لَصَمَّما[1]

قال كعب بن زهير:

تساقوا بماءٍ من بلادٍ كأنهُ   دماءُ الأفاعي لا يُبلُّ سليمُها
مُجاجاتِ حياتٍ إذا شربوا بها   سَمَا فيهمُ سُوارُها وهميمُها[2]

قال المثقب العبدي:

فَبِتُّ أضمُّ الركبتَينِ إلى الحشا   كأني راقي حَيَّةٍ أو سَليمُها [3]

قال عمرو بن كلثوم:

هلَكتَ وأهلَكْتَ العشيرةَ كُلَّها   فَنَهْدُكَ نَهْدٌ لا أرى لكَ أرْقَما[4]

قال حميد بن ثور الهلالي:

فلما أتته أنشبت في خِشاشه   زِماماً كثعبانِ الحَماطَةِ مُحْكَما
شديداً توقيهِ الزِّمامَ كأنما   بُراها أعضَّت بالخَشاشَةِ أرقَما[5]

قال ثمامة الكلبي:

كأنَّ مَزَاحِفَ الهَزلَى صباحاً   خُدُودُ رصائع جُدِلَتْ تُؤاما [6]

---

(١) ديوانه، ص١٤٣.

(٢) ديوانه، ص١٦٩.

(٣) شرح ديوانه، ص٧٦.

(٤) ديوانه، ص٤٨.

(٥) ديوانه، ص٩٣.

(٦) الحيوان، ٤/١٧٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قافية النون"

قال مرة بن خليف يرثي تأبط شراً:

وليلةِ رأسُ أفعاها إلى جحرِ ويومِ أورٌ من الجوزاء رنان [١]

قال المهلهل بن ربيعة التغلبي يخاطب ابن عنق الحية، ويصف له شجاعة قومه في حروبهم، أيام الكلاب والسلان وغيرهما:

لو كان ناهٍ لابن حيةَ زاجراً لنهاه ذا عن وقعةِ السّلان[٢]

قالت الخنساء:

فهنَّ قُبٌّ كحياتِ الأباءِ به يُجذِينَ نياً ولا يُجذِينَ قِرْدَانا[٣]

"قافية الهاء"

قال الحطيئة:

وقد خلّيتيني ونَجَيَّ همٌ تَشَعَّبَ أعظُمي حتى بَراها

كأنني ساورَتني ذاتُ سَمٍ نَقيعٍ لا تُلائِمُها رُقَاهَا[٤]

"قافية الواو"

قال عمرو بن معد يكرب:

فلقيت مني عِرْبِداً يقطو أمامَ الخَيْلِ قَطْوا[٥]

---

(١) ديوان تأبط شراً، تحقيق طلال حرب، دار صيدا، بيروت، ١٩٩٦، ص١٢٧.

(٢) شرح ديوان امرئ القيس، ص٢٩٧.

(٣) ديوانها، ص٢٠٣.

(٤) ديوانه، ص٢١٤.

(٥) الحيوان، ٦/٤٧٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

"قافية الياء"

قال تأبط شراً:

وإذا تجيء تجيء شحبٌ خَلْفَهَا   كالأيمِ أصعَدَ في كثيبٍ يرتقي [(١)]

قال عبيد بن الأبرص:

يا عَمْرو ما رَاحَ مِنْ قَوْمٍ ولا ابتكرُوا   إلا وللمَوْتِ في آثارِهِمْ حادِي

فإنْ رَأَيْتَ بِوادٍ حَيَّةً ذَكَرَاً   فامضِ وَدَعْني أُمارِسْ حَيَّةَ الوَادِي [(٢)]

قال امرؤ القيس بن عدي الكلبي:

أبلغ أبا أفعى عدي بن معقل   وقد كنت مَشُولَ الرُّمح إذْ غابَ مَعْشَرِي[(٣)]

قال عبيد بن الأبرص على لسان الهاتف:

يا صاحب البَكْرِ قد أنجيت من كرب   ومن فيافٍ تضل المدلج الهـــــادي

هلا بدأت لنا خلقــاً لتعــرف مـــن   (عليك) قد جاء بِالنَّعْماء في الوادي

ارْجِعْ حميداً فقــد بَلَّغْــتَ حاجَتنــا   بوركتَ من ذي سنامٍ رائح غـــادي

فأجابه:

أنا الشجاع الذي أرويتني ظمـــأً   في صحصحٍ حَصِبٍ عن أهله صادي

وجدت بالماء لما عـــزَّ مَطْلَبُـــهُ   نصف النهارِ على الرمضاء في الوادي

هـــذا جزاؤكَ منــــا لا يُمَنُّ بـــه   لك الجميـــل علينـــا إنـــك البـــادي

الخير يبقى وإن طال الزمان به   والشـــــر أقبـــح مـــا أوعيت من زادِ [(٤)]

قالت جنوب أخت عمرو ذي الكلب:

وليلةٍ يصطلي بالفرث جازرُها   يختص بالنفر المثرين داعيها

---

(١) شعره، ص١١٤.

(٢) ديوانه، ص٦٣.

(٣) شرح ديوان امرئ القيس، ص٣٥٥.

(٤) بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب، ٢/ ٣٥٤-٣٥٥، آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان، ص١٢٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

لا يَنبحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ	من العشاءِ ولا تسري أفاعِيها[1]

قال الحطيئة:

جرَتْ عَليْها بأذيالٍ لها عُصُفٌ	فَأصبَحَتْ مثلَ سَحْقِ البُرْدِ عافيها

كأنني سَاورَتني يومَ أسْألُها	عَوْدٌ من الرُّقْشِ ما تُصغي لراقيها

حتى إذا ما انجَلتْ عني قَعَدتُ على	حَرْفٍ تَهالَكُ في بيدٍ تُقاسِيها[2]

قال خداش بن زهير:

فإن يكُ أوسُ حيَّةً، مستميتةً	فدعني وأوساً، إن رُقيتهُ معي[3]

قالت ريطة بنت عاصية:

وليلة يصطلي بالفرث جازرها	حيرى جمادية قد بت تسريها

لا ينبح الكلب فيها غير واحدة	من القريس ولا تسري أفاعيها[4]

قالت صفية الباهلية:

وليلةٍ يصطلي بالفِرث جازُرُها	يختص بالنفر المثرين داعيها

لا يَنبحُ الكلبُ فيها غيرَ واحدةٍ	حتى الصباح ولا تسري أفاعيها[5]

قال طرفة بن العبد:

من نمَّ في النَّاسِ لمْ تُؤْمَنْ عقاربُه	علىٰ الصديقِ ولم تَؤمَنْ أفاعيه[6]

قال عنترة العبسي:

حَلفنا لهم والخيلُ تَرْدي بنا معاً	نُزَايلُهُم حتى يَهِّروا العَوَاليا

(١) ديوان الهذليين، القسم الثالث، ص١٢٦.

(٢) ديوانه، ص٢٢٣.

(٣) ابن قتيبة، محمد بن عبد الله بن مسلم: الشعر والشعراء، دار الثقافة، بيروت، د. ت.، ٥٤١/٢.

(٤) شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام، ص١٣٣.

(٥) المصدر نفسه، ص١٥١.

(٦) شرح ديوانه، ص١٩١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

عَوالِي زُرْقاً مِن رِماحِ رُدَيْنَةٍ   هَريرَ الكلابِ يتقينَ الأفَاعِيا[1]

قال معمر بن لقيط:

أبيتُ كما باتَ الشُّجاع إلى الذُرى   وأغدو على هَمِّي وإنْ بِتُّ طَاوِياً[2]

(١) ديوانه، ص٨١.

(٢) الحيوان، ٤/٢٦٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الخاتمة

يتبين لنا مما تقدم أن الحية احتلت مكانة عالية جداً، لدى الأمم القديمة، كالسومريين والبابليين والآشوريين والكنعانيين، فنظروا إليها نظرة ملؤها التقديس والرهبة والرغبة، لما رأوا فيها من رموز للخير والخصب والنماء، والتجدد والخلود. وعلى مستوى الديانات فقد اعتبرتها اليهودية سبب إغراء حواء والسقوط من الفردوس إلى العالم الأرضي، وفي المسيحية تأثر النصارى باليهود، فرأوا فيها رمز الخلاص، وواهبة الحياة.

وأما العرب، فلم يختلفوا كثيراً عن الأمم السابقة، فسموا أبناءهم بأسماء الحية، ورأوا فيها بنت الجنّ، الأمر الذي جعلهم أكثر الحيوانات وروداً في القصص والحكايات المروية عن الجن.

وتظهر علاقة الحية بالحياة من خلال اسمها، هذا الاسم الذي تعددت دلالاته، مما جعل بعضها الأكثر وروداً عند الشعراء الجاهليين. وتركز اهتمام الشعراء على أجزاء الحية التي رأوا فيها وظائف مادية، ودلائل معنوية تمثل الحياة والموت.

ولأهمية الحية في الفكر الجاهلي، تعددت مواضع ورودها في الشعر، فكانت ملازمة للمرأة في جوانب حياتها شكلاً ومضموناً، وذلك على المستوى الفني، وبقيت للحية علاقة قوية بالنبات، هذه العلاقة التي تمتد جذورها منذ العهد الفردوسي حتى الآن، وللحية علاقة مميزة بالجن، الذي توحد معها، فبقيت علاقتهما وطيدة، وظهرت هذه العلاقة واضحة في الشعر الجاهلي، الأمر الذي دعا الإنسان الجاهلي للبحث عن وسائل للسيطرة على الحية، فلم يجد إلا الرقية، التي بقيت آثارها حتى عصورٍ متأخرة. وامتلكت الإنسان الجاهلي مخاوف عدة من الاقتراب من ينابيع الماء، لأنه أدرك أنه وجد الماء وجدت الحية، لأن فيه الخصوبة والنماء والحياة، لكن ذلك لم يمنعها من التواجد في كل أجزاء الأرض من وديان وجبال وصحاري وهضاب.

وللحية دلائل ورموز تعود إلى الجنة، يوم كانت حارستها، فأغوت حواء بالأكل من الشجرة المحرمة، فكانت مسؤولة عن تحولها من النعيم إلى الشقاء، فبقيت علاقة العداء بين الفريقين قائمة إلى يوم الدين، فخلدت الأساطير والأشعار الجاهلية والآيات والأحاديث هذه العلاقة، ودخلت عالم القصص والحكايات والأمثال، الأمر الذي جعل الشاعر الجاهلي يرى فيها رمزاً للحياة والخلود، هذه الحياة التي تمتلئ بالخصب والنماء والتجدد، لكن هناك المقابل الذي يمثل الشر والدهاء والفتك والموت للآخرين، فكما كانت باعثة الحياة الأولى، فهي تمثل الموت، وبهذا تكتمل دائرة الطبيعة بكل عناصرها.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

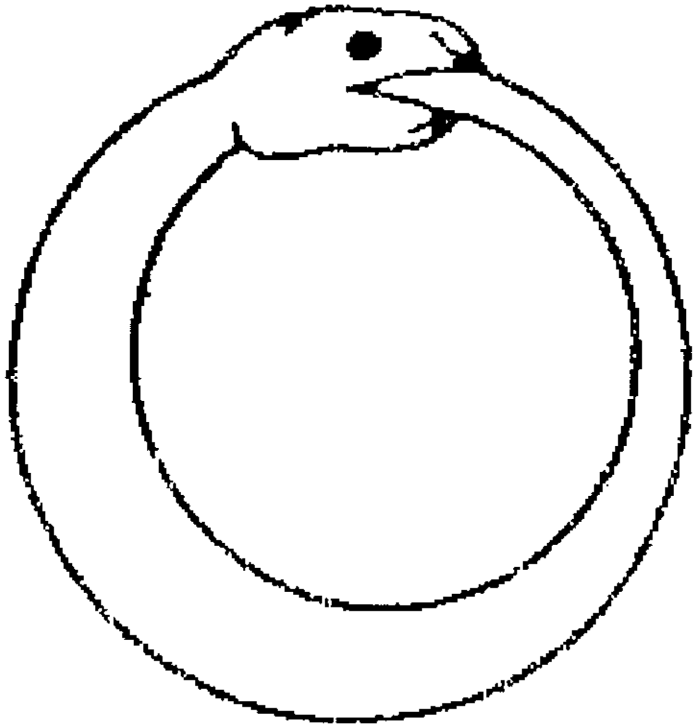

شكل (١)

الأوربوس (الأفعى التي فمها في ذيلها)

الأم الكونية الأولى

المرجع: متون سومر، ص٦٩

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

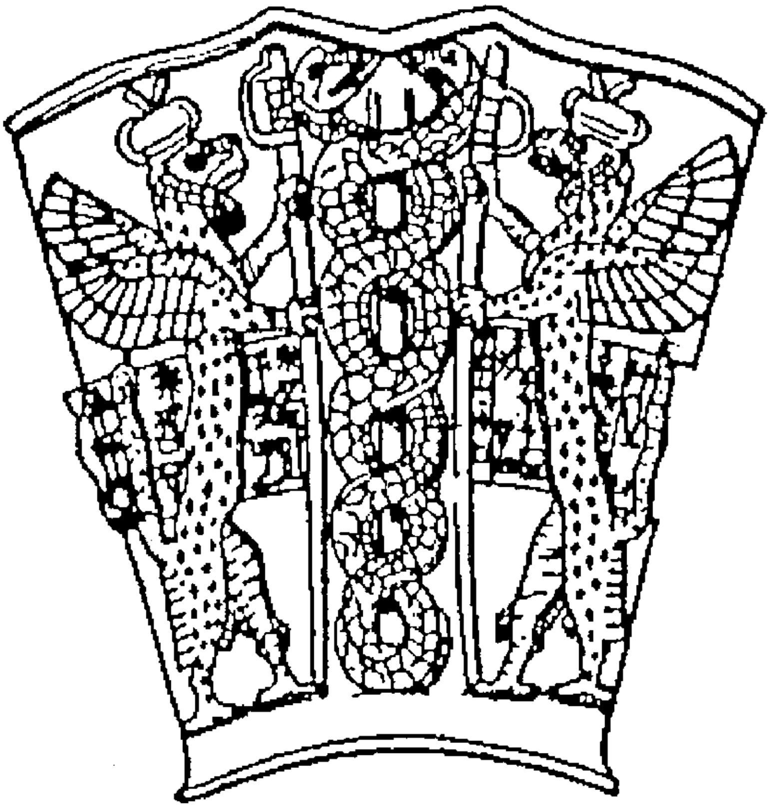

شكل (٢)

الكاديكيوس السومري (شعار الطب)
والأفعوانان المتقابلان يمثلان الإله ننكشزيدا
المكان والزمان: لجش، الألف الثالثة قبل الميلاد ق.م
المرجع: بخور الآلهة، ص١٤٦

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

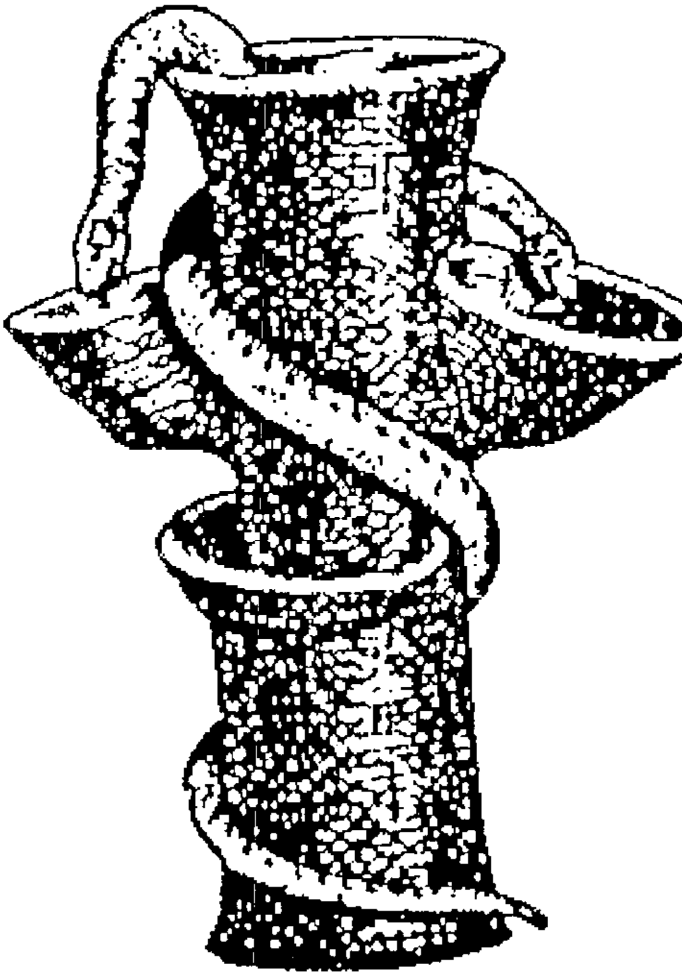

شكل (٣)

رمز الصيدلة الكزيتي

الأفعى وإناء عشتار

المرجع: بخور الآلهة، ص١٤٤.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

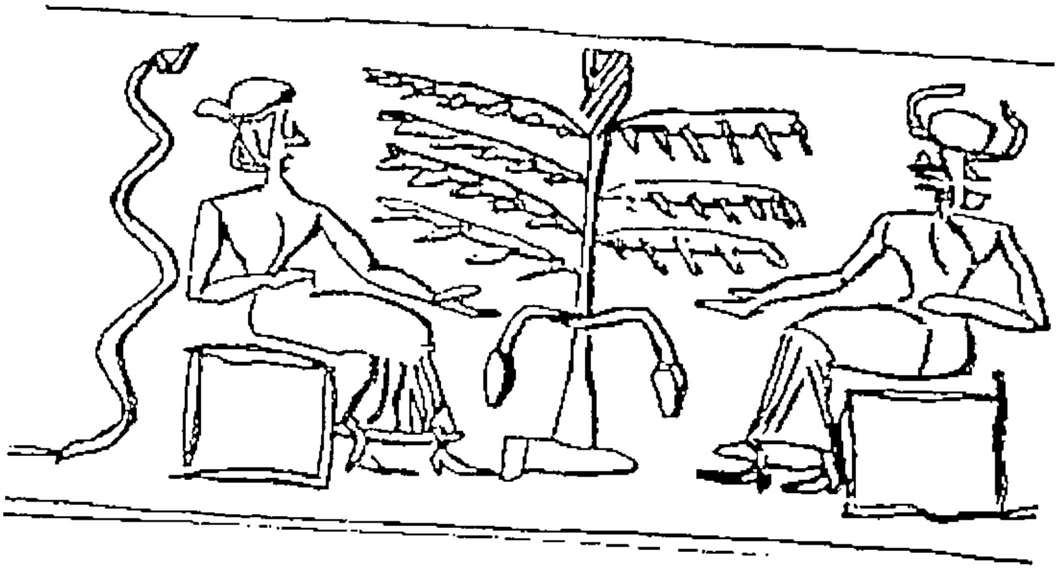

شكل (٤)

آدم وحواء والشجرة والأفعى في ختم سومريّ

المكان والزمان: سومر، منتصف الألف الثالثة ق.م

المرجع: بخور الآلهة، ص١٤٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

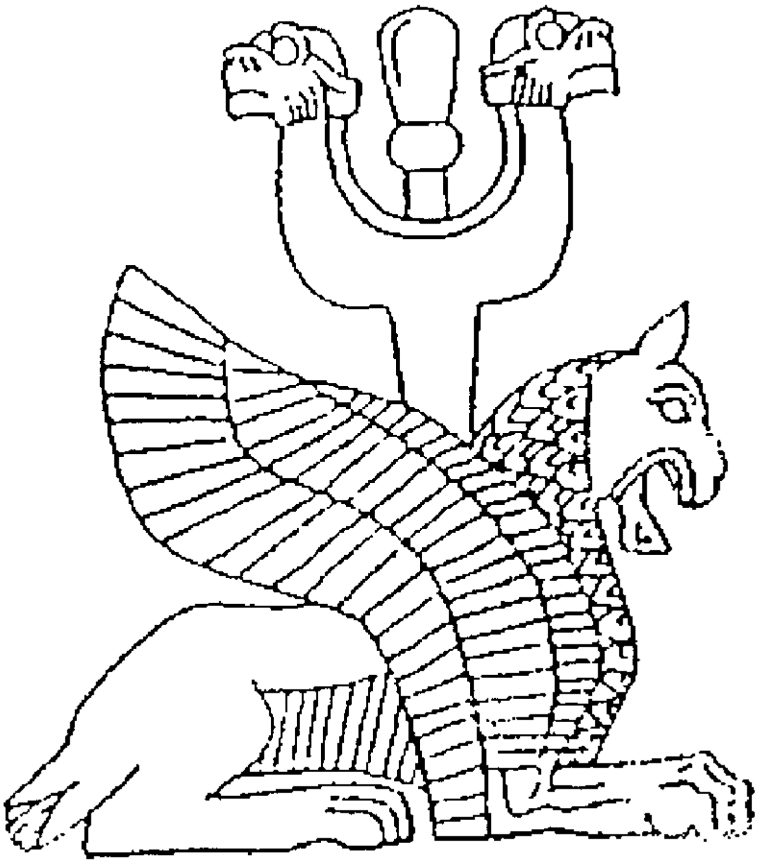

شكل (٥)

الإله نركال

المرجع: متون سومر، ص١٠٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

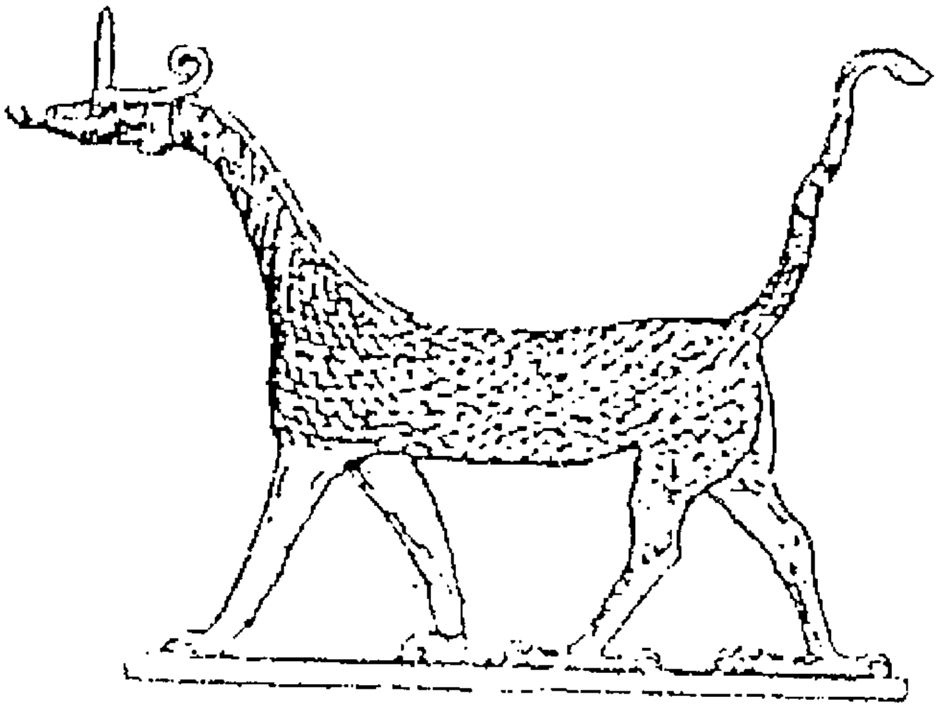

شكل (٦)

التنين (موش. خوش)

رأس الأفعى/ أقدام أمامية للأسد/ أقدام

خلفية للنسر/ ذيل عقرب

المرجع: متون سومر، ص١٤٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

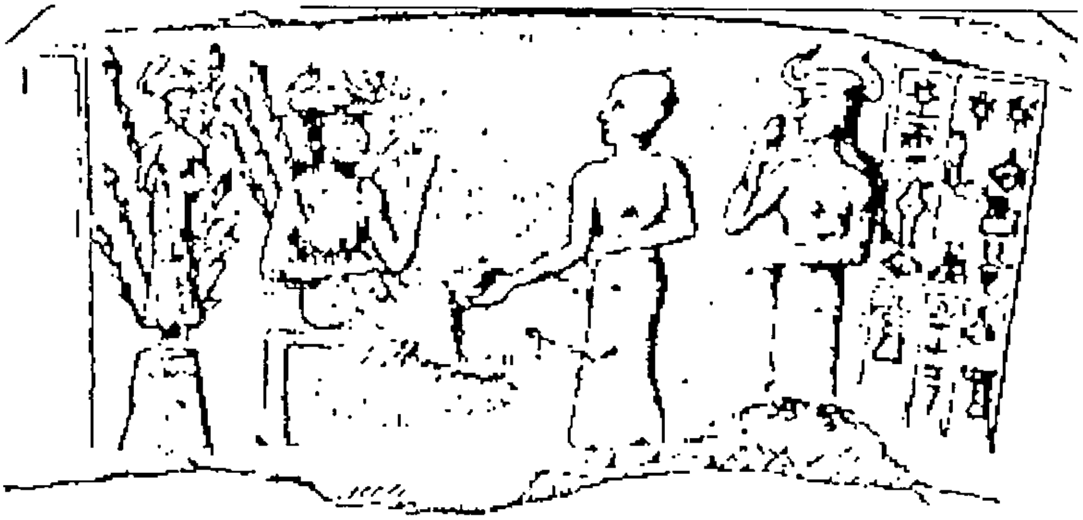

شكل (٧)

عشتار، روح القمح

ختم بابل، الألف الثالث ق.م

المرجع: لغز عشتار، ص١٢٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (٨)

الطفل الشمس محاط بالثعبان الذي لا نهاية له

وتحمله البقرة السماوية وأسدا الأفق، بردية حروبن

المرجع: وادي الملوك، ص١٤٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (٩)

الثعبان الذي يمثل الزمن في الساعة الحادية عشرة
من الأمدوات وهو يبتلع النجوم تلك الساعات
المنقضية من الليل.
المرجع: وادي الملوك، ص١٩٠.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (١٠)

مرجل به (من أعلى إلى أسفل) الظلال والأرواح والأجساد الخاصة بالخطاة، من كتاب الكهوف في مقبرة رمسيس السادس.

المرجع: وادي الملوك، ص٢١٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

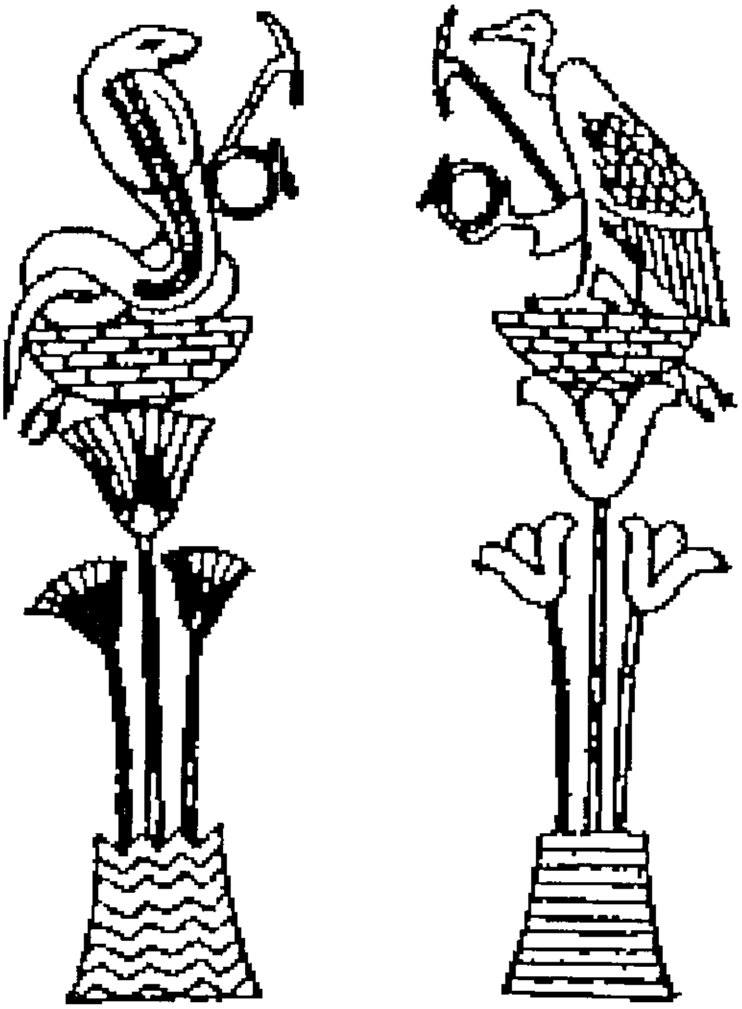

شكل (١١)

الإلهتان الحارستان "بوتو ونخبت"

المرجع: ديانة مصر القديمة، ص٥٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (١٢)

المعبود حورس بن ازوريس

المرجع: الطب والتحنيط، ص٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (١٣)

إيزيس والأفعى

المرجع: لغز عشتار، ص١٣٧.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

شكل (١٤)

الإله الأفعى

المرجع: قصة الحضارة، ١/ ٣٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

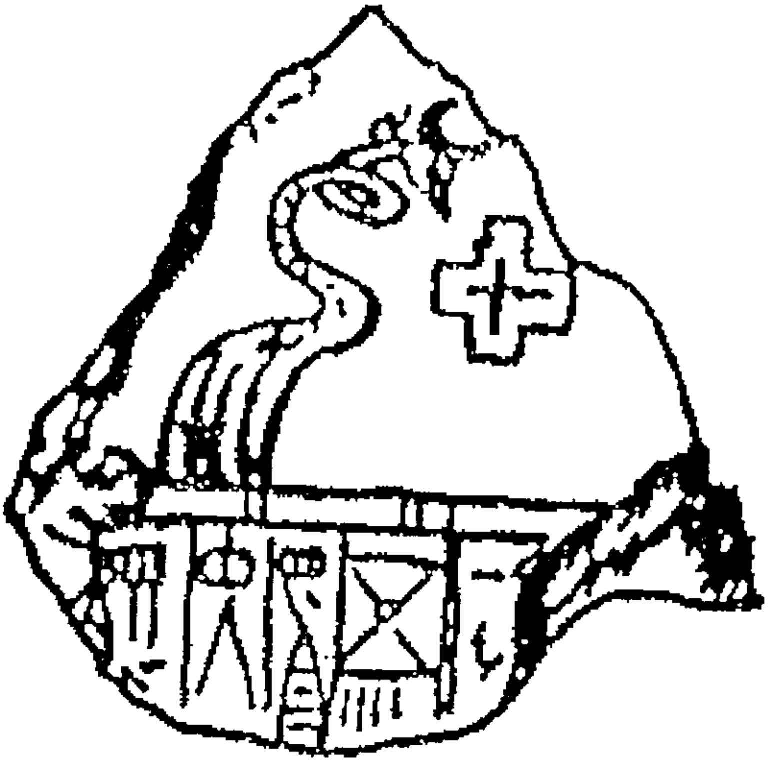

شكل (١٥)

سوسة – إيران عشتار الأفعى

المرجع: لغز عشتار، ص١٣٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

المصادر والمراجع

١) **القرآن الكريم.**

٢) الكتاب المقدس، **العهد القديم**، ترجمة فاندايك والبستاني، ١٩٩١.

٣) الآلوسي، محمود شكري: **بلوغ الأرب في معرفة أحوال العرب**، شرح محمد بهجة الأثري، دار الكتب العلمية، بيروت، د.ت.

٤) الأبشيهي، شهاب الدين بن محمد: **المستطرف في كل فن مستظرف**، دار إحياء التراث العربي، د. ت.

٥) الأحمد، سامي الأحمد: **ملحمة جلجامش**، دار الجليل، بيروت، د.ت.

٦) أحمد، محمد عبد الفتاح: **المنهج الأسطوري في تفسير الشعر الجاهلي**، ط١، دار المناهل، بيروت، ١٩٨٧.

٧) أدزارد: **قاموس الآلهة والأساطير**، ترجمة محمد وحيد خياطة، ط١، دار مكتبة سومر، حلب، ١٩٨٧.

٨) أرمان، ادولف: **ديانة مصر القديمة (نشاتها وتطورها ونهايتها في أربعة آلاف سنة)**، ترجمة عبد المنعم أبو بكر، ومحمد أبو شكري، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٥.

٩) الأزرقي، أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد، **أخبار مكة**، تحقيق رشدي الصالح ملحس، ط٣، دار الأندلس، بيروت، ١٩٨٣.

١٠) إسماعيل، قباري محمد: **إميل دوركايم**، منشأة معارف، الإسكندرية، ١٩٧٦.

١١) الأصفهاني، أبو الفرج: **الأغاني**، شرح سمير جابر، ط٢، دار انفكر، بيروت.

١٢) الأصمعي، أبو سعيد عبد الملك بن قريب: **الأصمعيات**، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣.

١٣) الأعشى ميمون بن قيس: **ديوانه**، تحقيق فوزي عطوان الشركة اللبنانية للكتاب، بيروت، ١٩٦٨.

١٤) الألباني، محمد ناصر الدين: **صحيح الجامع الصغير وزيادته "الفتح الكبير"**، ط٣، المكتب الإسلامي، بيروت، المكتب الإسلامي، دمشق، ١٩٨٨.

١٥) امرؤ القيس: **شرح ديوانه**، تحقيق حسين السندوبي، المكتبة الثقافي، بيروت، ١٩٨٢.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٦) امرؤ القيس، **ديوانه**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، ط٤، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.

١٧) أمية بن أبي الصلت: **ديوانه**، تحقيق سجيع جميل الجبيلي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨.

١٨) أمين، أحمد: **فجر الإسلام**، ط١١، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٧٥.

١٩) أوس بن حجر: **ديوانه**، تحقيق محمد يوسف نجم، دار صادر، بيروت، ١٩٦٧.

٢٠) بارندر، جفري: **المعتقدات الدينية لدى الشعوب**، ترجمة إمام عبد الفتاح إمام، ط٢، مكتبة مدبولي للنشر والتوزيع، القاهرة، ١٩٩٦.

٢١) الباش، حسن، **المعتقدات الشعبية في التراث العربي (دراسة في الجذور الأسطورية والدينية والمسلكية والاجتماعية)**، دار الجليل، د.ت.

٢٢) باقر، طه: **ملحمة جلجامش**، ط٤، دار الحرية للطباعة، ١٩٨٠.

٢٣) بدج، والسي: **كتاب الموتى الفرعوني**، ترجمة عريب فيليب حتى، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٨٨.

٢٤) البستاني، كرم: **أساطير شرقية**، دار مارون عبود، ١٩٨٠.

٢٥) البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز: **معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع**، تحقيق مصطفى السقا، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٧.

٢٦) بسبح، أحمد حسن: **العباس بن مرداس السلمي**، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٤.

٢٧) بشر بن أبي خازم: **ديوانه**، تحقيق عزت حسن، دار الشروق، بيروت، ١٩٩٥.

٢٨) البغدادي، عبد القادر بن عمر: **خزانة الأدب ولب لباب لسان العرب**، تحقيق محمد نبيل طريفي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

٢٩) بلفينش، توماس: **عصر الأساطير**، ترجمة رشدي السيسي، دار النهضة العربية، القاهرة، ١٩٦٦.

٣٠) تأبط شراً: **شعره**، تحقيق سليمان القرغولي، جبار جاسم، ط١، مطبعة الآداب، النجف الأشرف، ١٩٧٣.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٣١) تونج، أريك هور: **وادي الملوك (أفق الأبدية- العالم الآخر لدى قدماء المصريين)**، ترجمة محمد العزب موسى، ط١، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦.

٣٢) الثعالبي، عبد الملك محمد: **التمثيل والمحاضرة**، تحقيق عبد الفتاح محمد الحلو، دار إحياء الكتب العربية، القاهرة، ١٩٦١.

٣٣) الثعالبي، أبو منصور محمد بن إسماعيل: **ثمار القلوب في المضاف والمنسوب**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٥.

٣٤) الثعالبي، أبو منصور محمد بن إسماعيل: **فقه اللغة وسر العربية**، تحقيق مصطفى السقا، إبراهيم الأبياري، عبد الحفيظ شلبي، ط٣، دار الفكر، د.ت.

٣٥) الثعلبي، أبو إسحاق أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: **قصص الأنبياء المسمى عرائس المجالس**، المكتبة الثقافية، بيروت، د.ت.

٣٦) الجاحظ، أبو عمرو بن بحر: **الحيوان** ، تحقيق عبد السلام محمد هاوون، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٦.

٣٧) الجبوري، يحيى: **قصائد جاهلية نادرة**، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ط١، ١٩٨٢.

٣٨) جيان يوليوس. **كتاب الطب والتحنيط في عهد الفراعنة**، تعريب أنطون زكري، مكتبة مدبولي، القاهرة، ١٩٩٦.

٣٩) حاتم، عماد: **أساطير اليونان**، الدار العربية للكتابة، الجمهورية العربية الليبية الشعبية الاشتراكية العظمى، ١٩٨٨.

٤٠) حتى، فيليب: **تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين**، ترجمة جورج حداد، عبد الكريم رافق، دار الثقافة، بيروت، ١٩٥٨.

٤١) حسان بن ثابت: **ديوانه**، شرح يوسف عيد، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.

٤٢) الحطيئة: **شرح ديوانه**، يوسف عيد، ط١، دار الجيل، بيروت، ١٩٩٢.

٤٣) الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله: معجم البلدان، ط٢، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥.

٤٤) حميد بن ثور الهلالي: **ديوانه**، تحقيق محمد يوسف نجم، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٤٥) الحوت، محمود سليم: **في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ط٣، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٣.

٤٦) الخازن، نسيب: **أوغاريت "أجيال، أديان، ملاحم"**، دار الطليعة للطباعة والنشر، بيروت، ١٩٦١.

٤٧) خان، محمد عبد المعيد: **الأساطير العربية قبل الإسلام**، ط١، القاهرة، ١٩٣٧.

٤٨) ابن خلدون: **مقدمة ابن خلدون**، ط٤، دار القلم، بيروت، ١٩٨١.

٤٩) الخنساء: **ديوانها**، تحقيق أنور أبو سويلم، ط١، دار عمار للنشر، عمان، ١٩٨٨.

٥٠) خورشيد، فاروق: **عالم من الأدب الشعبي**، الهلال، القاهرة، ١٩٨٨.

٥١) دالي، ستيفاني، **من بلاد ما بين النهرين (الخليقة، الطوفان، جلجامش وغيرها)**، نقلتها إلى العربية نجوى نصر، ط١، بيسان للنشر والتوزيع والإعلام، بيروت، ١٩٩٧.

٥٢) الدباغ، مصطفى مراد: **بلادنا فلسطين**، طبعة جديدة، دار الهدى، كفر قرع، ١٩٩١.

٥٣) ابن دريد، أبو بكر محمد بن الحسن: **الاشتقاق**، تحقيق عبد السلام هارون، ط٢، منشورات مكتبة المثنى، بغداد، ١٩٧٩.

٥٤) دريد بن الصمة: **ديوانه**، تحقيق عمر عبد الرسول، دار المعارف، القاهرة.

٥٥) دغيم، سميح: **موسوعة الأديان السماوية والوضعية (أديان ومعتقدات العرب قبل الإسلام)**، ط١، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٩٥.

٥٦) الدميري، كمال الدين محمد بن موسى: **حياة الحيوان الكبرى**، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، القاهرة، د.ت.

٥٧) ديرلاين، فردريش فون: **الحكاية الخرافية**، ترجمة نبيلة ابراهيم، ط١، دار القلم، بيروت، ١٩٧٣.

٥٨) ديورانت، ول: **قصة الحضارة**، ترجمة د. زكي نجيب محفوظ، ط٣، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

٥٩) الرباعي، عبد القادر: **الصورة الفنية في النقد الشعري**، ط٢، دار مكتبة الكتاني، إربد، ١٩٩٥.

٦٠) رومية، وهب أحمد: **شعرنا القديم والنقد الجديد**، سلسلة عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت، ١٩٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٦١) الزبيدي، محب الدين أبي فيض السيد محمد مرتضى الحسيني: **تاج العروس من جواهر القاموس**، دراسة وتحقيق علي شيري، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت.

٦٢) الزركلي، خير الدين: **الأعلام**، القاهرة، ١٩٧٧.

٦٣) زكي، أحمد كمال: **الأساطير**، دراسة حضارية مقارنـــة، ط٢، دار العـــودة، بيـــروت، ١٩٧٩.

٦٤) زكي، أحمد كمال: **دراسات في النقد الأدبي**، ط١، مكتبـــة لبنـــان ناشـــرون، الشـــركة المصرية العالمية للنشر، لونجمان، ١٩٩٧.

٦٥) زيد الخيل: **شعره**، تحقيق أحمد مختار البزرة، ط١، دار المأمون للتراث، ١٩٨٨.

٦٦) زيغور، علي: **الكرامة الصوفية والأســـطورة والحلـــم**، ط١، دار الطليعـــة، بيـــروت، ١٩٧٧.

٦٧) سرحان، نمر: **موسوعة الفلكلور الفلسطيني**، ط٢، عمان، ١٩٨٩.

٦٨) سعفان، كامل، **معتقدات** آسيوية**(العراق، فارس، الهند، الصـــين، اليابـــان)**، ط١، دار الندى، ١٩٩٩.

٦٩) سليم، أحمد أمين: **تاريخ العراق، إيران، آسيا الصغرى**، دار المعرفة الجامعية، ١٩٩٧.

٧٠) السواح، فراس: **الأسطورة والمعنى (دراسات في المثيولوجيا، والديانات المشـــرقية)**، ط١، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٧.

٧١) السواح، فراس: **جلجامش ملحمة الرافدين**، ط١، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦.

٧٢) السواح، فراس: **لغز عشتار (الألوهة المؤنثة وأصـــل الـــدين والأســـطورة)**، ط٦، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦.

٧٣) السواح، فراس، **مغامرة العقل الأولى**، ط١١، دار علاء الدين، دمشق، ١٩٩٦.

٧٤) سويلم، أنور: **دراسات في الشعر الجاهلي**، ط١، دار الجيل، بيروت، دار عمّار، عمان، ١٩٨٧.

٧٥) ابن سيده، أبو الحسن علي إسماعيل: **المخصص**، تحقيق لجنة إحياء التراث العربي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ت.

٧٦) ابن سيرين، محمد: **تفسير الأحلام الكبير**، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٧٧) ابن سينا، أبو علي الحسين بن علي: **القانون في الطب**، تحقيق سعيد اللحام، دار الفكر، بيروت، د.ت.

٧٨) شاكر، شاكر هادي: **الحيوان في الأدب العربي**، ط١، مكتبة النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٥.

٧٩) الشبلي، بدر الدين أبو عبد الله محمد بن عبد الله: **آكام المرجان في غرائب الأخبار وأحكام الجان**، تحقيق ايمن البحيري، ط١، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت، لبنان، ١٩٩٥.

٨٠) الشماخ بن ضرار الذبياني: **ديوانه**، شرح وتقديم قدري مانو، ط١، دار الكتاب العربي، بيروت ، ١٩٩٤.

٨١) الشنفرى: **ديوانه**، تحقيق اميل بديع يعقوب، ط٢، دار الكتاب العربي، بيروت، ١٩٩٦.

٨٢) الشيباني، أبو زكريا يحيى بن علي بن محمد، **شرح المفضليات للتبريزي**، تحقيق علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر للطبع والنشر، القاهرة، ١٩٩٧.

٨٣) صالح، عبد العزيز، **الشرق الأدنى القديم(مصر والعراق)**، د. ط، د. م، ١٩٨٠.

٨٤) الضبي، المفضل: **المفضليات**، تحقيق أحمد شاكر، وعبد السلام هارون، ط٣، القاهرة، دار المعارف، ١٩٦٤.

٨٥) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **تاريخ الأمم والملوك (تاريخ الطبري)**، المجلد الأول، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٧.

٨٦) الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير: **جامع البيان عن تأويل آي القرآن**، دار الفكر، د. ت.

٨٧) طرفة بن العبد: **ديوانه**، تحقيق رحاب خضر عكاوي، ط١، دار الفكر العربي، بيروت، ١٩٩٣.

٨٨) الطفيل الغنوي: **ديوانه**، تحقيق محمد عبد القادر أحمد، دار الكتاب الجديد، بيروت، ١٩٦٨.

٨٩) عباس، فؤاد إبراهيم. شاهين، أحمد عمر: **معجم الأمثال الفلسطينية**، ط١، دار الجليل، عمان، ١٩٨٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

٩٠) عباس بن مرداس: **ديوانه**، تحقيق يحيى الجبوري، ط١، مؤسسة الرسالة، بيروت، ١٩٩١.

٩١) عبد الحافظ، صلاح: **الزمان والمكان وأثرهما في حياة الشاعر الجاهلي وشعره**، دراسة نقدية وفنية، دار المعارف، الإسكندرية، ١٩٨٢.

٩٢) عبد الحكيم، شوقي: **الحكايات الشعبية العربية**، ط١، دار ابن خلدون، بيروت، ١٩٨٠.

٩٣) عبد الحكيم، شوقي: **موسوعة الفلكلور والأساطير العربية**، دار العودة، ١٩٨٢.

٩٤) ابن عبد ربه، أبو عمر أحمد بن محمد: **العقد الفريد**، شرح أحمد أمين، إبراهيم الأبياري، عبد السلام هارون، دار الكتاب العربي، القاهرة، ١٩٤٩.

٩٥) عبد الملك، أبو سعيد عبد الملك بن قريب: **الأصمعيات**، تحقيق أحمد محمد شاكر، عبد السلام هارون، ط٣، دار المعارف، مصر، ١٩٦٣.

٩٦) عبدة بن الطبيب: **شعره**، جمع وتحقيق. د. يحيى الجبوري، دار التربية للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٧١.

٩٧) عبيد بن الأبرص: **ديوانه**، دار صادر، بيروت، د. ت.

٩٨) عجينة، محمد: **موسوعة أساطير العرب عن الجاهلية ودلالاتها**، ط١، العربية للنشر والتوزيع، تونس، ١٩٩٤.

٩٩) عدي بن زيد العبادي: **ديوانه**، تحقيق محمد جبار المعيبد، شركة دار الجمهورية للنشر والطبع، بغداد، د. ت.

١٠٠) العسكري، أبو هلال: **جمهرة الأمثال**، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، وعبد المجيد قطامش، ط٢، دار الجيل، بيروت، ١٩٦٤.

١٠١) عصفور، محمد أبو المحاسن: **معالم من حضارات الشرق الأدنى القديم**، دار النهضة العربية، بيروت، ١٩٨٧.

١٠٢) العقاد، محمود عباس: **إبليس**، القاهرة، ١٩٥٥.

١٠٣) علقمة، شرح سعيد نسيب مكارم: **ديوانه**، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.

١٠٤) علي، جواد: **المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام**، ط٢، دار العلم للملايين، بيروت، مكتبة النهضة بغداد، ١٩٧٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٠٥) علي، رمضان عبده: **تاريخ الشرق الأدنى القديم وحضارته إلى مجيء حملة الإسكندر الأكبر (إيران – الأناضول)**، دار نهضة الشرق، جامعة القاهرة، د.ت.

١٠٦) علي، فاضل عبد الواحد: **عشتار ومأساة تموز**، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ١٩٨٦.

١٠٧) عمرو بن كلثوم: **ديوانه**، ط:١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.

١٠٨) عنترة بن شداد: **شرح ديوانه**، تحقيق عبد المنعم عبد الرؤوف شلبي، ط١، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٨٠.

١٠٩) عيّاش، عبد القادر: **الحية في حياتنا وتراثنا**، دير الزور، سوريا، ١٩٦٨.

١١٠) فاضل، صلاح: **نظرية البنائية في النقد العربي**، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧٨.

١١١) فخر الدين، محمد الرازي: **تفسير الفخر الرازي**، ط٣، دار الفكر، بيروت، ١٩٨٥.

١١٢) فروم، إريش: **الحكايات والأساطير والأحلام مدخل إلى فهم لغة منسيه**، ترجمة صلاح حاتم،ط١،دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، ١٩٩٠.

١١٣) فرويد، سيجموند: **الطوطم والتابو**، ترجمة بوعلي ياسين، ط١، دار الحوار للنشر والتوزيع، سوريا، د.ت.

١١٤) فريزر، جيمس: **أدونيس أو تموز**، ترجمة جبرا إبراهيم جبرا، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٧٩.

١١٥) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: **عيون الأخبار**، شرح يوسف علي طويل، دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨.

١١٦) ابن قتيبة، محمد عبد الله بن مسلم: **المعارف**، ط٤، دار المعارف، كورنيش النيل، ١٩٨١.

١١٧) ابن قتيبة، أبو محمد عبد الله بن مسلم: **المعاني الكبيسر**، ط١، مطبعة مجلس دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد الدكن، الهند، ١٩٤٩.

١١٨) القرشي، أبو زيد محمد بن أبي الخطاب: **جمهرة أشعار العرب**، تحقيق محمد علي الهاشمي، ط٣، دار القلم، دمشق، ١٩٩٩.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١١٩) القزويني، زكريا: **عجائب المخلوقات وغرائب الموجودات**، تحقيق فاروق سعد، ط٤، دار الآفاق الجديدة، بيروت، ١٩٨١.

١٢٠) قطب، سيد: **في ظلال القرآن**، دار الشروق، القاهرة، ١٩٩٢، د. ت.

١٢١) القمني، سيد، **الأسطورة والتراث**، ط٣، المركز المصري لبحوث الحضارة، القاهرة، ١٩٩٩.

١٢٢) أبو قيس صيفي بن الأسلت: **ديوانه**، تحقيق، حسن محمد باجورة، مكتبة دار التراث، القاهرة، د. ت.

١٢٣) القيسي، نوري: **الأساطير وعلم الأجناس**، جامعة بغداد، بغداد، ١٩٨١.

١٢٤) القيسي، نوري: **الطبيعة في الشعر الجاهلي**، ط١، دار الإرشاد، بيروت، ١٩٧٠.

١٢٥) ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل: **قصص الأنبياء**، المكتبة التوفيقية، القاهرة، د.ت.

١٢٦) الحوت، محمود سليم: **في طريق الميثولوجيا عند العرب**، ط٣، دار النهار للنشر، بيروت، ١٩٨٣.

١٢٧) كريمر، صمويل نوح: **أساطير العالم القديم**، ترجمة أحمد عبد الحميد يوسف، مطبعة الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٧٣.

١٢٨) الكسائي، محمد بن عبد الله: **قصص الأنبياء**، طبعة أيزن بيرغ، بريل لدين، ١٩٢٢.

١٢٩) كعب بن زهير: **ديوانه**، شرح نخبة من الأدباء، دار الفكر للجميع، بيروت، ١٩٩٩.

١٣٠) كنعان، توفيق: **الكتابات الفلكلورية**، ترجمة موسى علوش، ط١، دار علوش للطباعة والنشر، ١٩٩٨.

١٣١) كورتل، آرثر: **قاموس أساطير العالم**، ترجمة سهى الطريحي، ط١، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ١٩٩٣.

١٣٢) لابات، وينيه: **التشخيص والإنذار في الطب الأكدي**، ترجمة عبد اللطيف البدري، منشورات المجمع العلمي العراقي، بغداد، ١٩٧٦.

١٣٣) لبيد بن ربيعة: **ديوانه**، دار صادر، بيروت.

١٣٤) ليان، جورج: **الحيات في العالم (بحث تاريخي، فني، عملي)**، مطبعة الضاد – حلب. د. ت.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٣٥) الماجدي، خزعل: **إنجيل بابل**، ط١، منشورات الأهلية، عمان١٩٩٨.

١٣٦) الماجدي، خزعل: **إنجيل سومر**، ط١، منشورات الأهلية، عمان، ١٩٩٨.

١٣٧) الماجدي، خزعل: **بخور الآلهة**، (دراسة في الطب والسحر والأسطورة والدين). ط١، منشورات الأهلية- عمان، ١٩٩٨.

١٣٨) الماجدي، خزعل: **متون سومر**، (الكتاب الأول- تاريخ- الميثولوجيا- اللاهوت- الطقوس)، ط١، منشورات الأهلية- عمان، ١٩٩٨.

١٣٩) المتلمس: **ديوانه**، تحقيق محمد التونجي، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٨.

١٤٠) المثقب العبدي: **شرح ديوانه**، تحقيق حسن حمد، ط١، دار صادر، بيروت، ١٩٩٦.

١٤١) المسعودي، أبو الحسن علي بن الحسين بن علي: **مروج الذهب ومعادن الجواهر**، تحقيق محمد محي الدين عبد الحميد، ط٤، مطبعة السعادة، مصر ١٩٦٤.

١٤٢) مصطفى، إبراهيم، وآخرون: **المعجم الوسيط**، دار المعارف، ١٩٨٠.

١٤٣) المعري، أبو العلاء: **رسالة الغفران**، تحقيق عائشة عبد الرحمن، ط٣، دار المعارف، القاهرة، ١٩٦٣.

١٤٤) مغنية، أحمد: **تفسير الأحلام**، دار مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٧٩.

١٤٥) ابن منظور، **لسان العرب**، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، ط٦، دار صادر، بيروت، د.ت.

١٤٦) مهران، محمد بيومي: **بنو إسرائيل (الحضارة الدينية والاجتماعية والسياسية والاقتصادية والقضايا العسكرية)**، دار المعرفة الجامعية، الإسكندرية، ١٩٩٩.

١٤٧) موسكاتي، سبتينو: **الحضارات السامية القديمة**، ترجمة يعقوب بكر، دار الرقي، بيروت، ١٩٨٦.

١٤٨) الميداني، أبو الفضل أحمد بن محمد بن إبراهيم النيسابوري: **مجمع الأمثال**، تعليق سعيد محمد اللحام، دار الفكر، بيروت، ١٩٩٢.

١٤٩) النابغة الذبياني: **ديوانه**، تحقيق سيف الكاتب، أحمد عصام الكاتب، دار مكتبة الحياة، بيروت، ١٩٨٩.

١٥٠) النعيمي، أحمد إسماعيل: **الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام**، ط١، سينا للنشر، القاهرة، ١٩٩٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٥١) النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: **نهاية الأرب في فنون الأدب**، مطبعة دار الكتب المصرية، القاهرة، ١٩٣٨.

١٥٢) نيلسن، ديتلف وآخرون: **التاريخ العربي القديم**، ترجمة حسنين علي، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة، ١٩٥٨.

١٥٣) الهذليين: **الديوان**، الدار القومية للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٦٥.

١٥٤) ابن هشام، أبو محمد عبد الله جمال الدين بن يوسف ابن أحمد بن عبد الله: **أوضح المسالك إلى ألفية ابن مالك**، دار الفكر، د. ت.

١٥٥) ابن هشام، أبو محمد عبد الملك: **السيرة النبوية**، تحقيق مصطفى عبد الحميد، دار المعرفة، بيروت، ١٩٧٦.

١٥٦) هوك، صموئيل هنري: **منعطف المخيلة البشرية (بحث في الأساطير)**، ط٢، دار الحوار للنشر والتوزيع، اللاذقية، ١٩٩٥.

١٥٧) يحيى، أحمد إسماعيل: **الحية في التراث العربي**، ط١، المكتبة العصرية، صيدا، لبنان، ١٩٩٧.

١٥٨) يموت، بشير: **شاعرات العرب في الجاهلية والإسلام**، تحقيق عبد القادر محمد مايو، ط١، دار القلم العربي، سوريا، ١٩٩٨.

١٥٩) يونس، عبد الحميد: **الحكاية الشعبية**، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة، ١٩٨٥.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الدوريات

١) الأحمد، سامي سعيد: *أسطورة إيتانا والنسر*، التراث الشعبي، السنة الحادية عشرة، العدد السابع، دار الجاحظ، بغداد، ١٩٨٠.

٢) الأحمد، سامي سعيد: *رموز من عالم الحيوان*، مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني، ١٩٨٩.

٣) هادي، ميسلون: *أساطير الهنود الحمر*: مجلة التراث الشعبي، العدد الثاني عشر. السنة الثانية عشر، كانون أول ١٩٨١، دار الجاحظ للنشر، وزارة الثقافة والإعلام، بغداد، كانون أول، ١٩٨١.

٤) بدوي، حسني محمد: *الثعابين حيوانات أنيقة تبدل جلودها كالإنسان مع ملابسه*، مجلة الكويت، العدد التاسع والثلاثون، السنة السادسة، ١٩٨٥.

٥) بلاكر، كارمن: *المرأة الأفعى في الأساطير والخرافات اليابانية*، ترجمة لطفي الخوري، مجلة التراث الشعبي، العددان السادس والسابع، السنة الثالثة عشرة، حزيران- تموز، ١٩٨١.

٦) الحلي، صباح محمود: *التنين في المصادر العربية*، التراث الشعبي، السنة الأولى، كانون أول ١٩٦٩.

٧) راوينية، حفيظة: *التجليات الموضوعاتية والرمزية للحية في نماذج الشعر القديم*، مجلة التواصل، جامعة عناية الجزائر، العدد الرابع، حزيران، ١٩٩٩.

٨) رضوان، سعد: *أهل الطب وللأفعى حكايات*. طبيبك الخاص، العدد ٣٧٨، دار الهلال، حزيران، ٢٠٠٠.

٩) زكي، أحمد كمال: *التفسير الأسطوري للشعر القديم*، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، إبريل، ١٩٨١.

١٠) زكي، احمد: *الثعابين مخلوقات من أعجب الخلق*، في سبيل موسوعة علمية، ط٢، دار الشروق، ١٩٧٧.

١١) سكر، إبراهيم: *الأساطير الإغريقية*، تراث الإنسانية، المجلد الخامس، دار الكتاب العربي للطباعة والنشر.

١٢) عبد الرحمن، إبراهيم، *التفسير الأسطوري للشعر الجاهلي*، مجلة فصول، المجلد الأول، العدد الثالث، إبريل، ١٩٨١.

١٣) القيسي، زهير أحمد: *الحيوانات والأشعرة*، مجلة التراث الشعبي، العددان الثالث والرابع، السنة الثانية عشرة، وزارة الثقافة والإعلام، دار الجاحظ للنشر، ١٩٨١.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

١٤) كبة، نجاح هادي: *آثار من طوطمية الحيوان عند العرب*، التراث الشعبي، العدد الثالث عشر، السنة الثانية، دار الحرية للطباعة – بغداد، ١٩٧٧.

١٥) كبه، نجاح هادي: *منهج ابن خلدون في تفسير التراث الشعبي*، التراث الشعبي، العدد الخامس، السنة التاسعة، ١٩٧٨.

١٦) الناصري، أديبة: *حياة الحيوان بين التوحيدي والدميري والجاحظ*، مجلة التراث الشعبي، العدد الثالث، السنة الحادية عشرة، ١٩٨٠.

١٧) النوري، محمد إسماعيل: *تراث الإنسانية*، المجلد السادس، دار الكاتب العربي للطباعة والنشر، ١٩٦٨.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

الرسائل

١) الخليل، أحمد: **الرؤية الجمالية في شعر الجاهلية وصدر الإسلام**، رسالة ماجستير، جامعة حلب، ١٩٨٩.

٢) الزعبي، محمد منذر: **الإنسان عند الشعراء الصعاليك في العصر الجاهلي**، رسالة ماجستير جامعة اليرموك١٩٨٩.

٣) النوتي، أحمد موسى أحمد: **الصحراء في الشعر الجاهلي**، رسالة ماجستير، الجامعة الأردنية، حزيران، ١٩٩٦.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

An-Najah National University

Faculty of Graduate Studies

Alhieh In Aljahili Poetry

By

Mahmoud Sabri Ali Abd-Allah

Supervised

Dr. Ihsaan Addeek

Submitted in Partial Fulfillment of Requirements for the Degree of Master of Arts In Arabic, Faculty of Graduate Studies, at An- Najah National University, Nablus. Palestine.

2003

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

Abstract

The pre-Islam poetry (Aljahili) was being composed in the Arabs dewans; and it reflected their national identity .Through the lines of poetry, the nations' life was reflected . I was eager to investigate the life of the Arabs, taking into account the fact that the other writers were unjust in dealing with them. They considered them ignorant, and their poetry was simple and mere shepherds' poetry. Because of this, I chose my subject "Alhieh (the snake) in the Jahili (pre-Islam) poetry, because this animal (the snake) is present in the myths, tales and religions.

One reason for this research is that what exists in the Arab literature does not exceed the traditional look, considering the snake as a normal animal, and the lack of a specialized study in this concern.

This research is distinguished from other researches in the fact that it talks about Alhieh (the snake) in detail in Aljahili (pre-Islam) poetry.

This research depended mainly on the ancient Arab references such as Lisan Al-Arab, Alhaiwan, Hayat Alhaiwan Alkubra and other references, both ancient and modern.

My research is divided into a preface, four chapters, photograph album, verse dictionary and a conclusion.

The first chapter talks about Alhieh (the snake) in the past. I talked in it about the presence of Alhieh (the snake) and its positions in the religion of the old, and its beliefs, habits and cermonies. I began with Sumerian, Babylon, Canaanites, Greek and Hebrews. I also talked about Alhieh in the Arab life and their look towards it. I talked about the role of Alhieh in the tales and stories of the Arabs and adventures of the pre-Islam and the value of the snake in life, sickness, cure and the way of treating the bitten by it.

It becomes clear that the snake had a high position in the life of these nations. They sacrificed it. It was considered as a symbol of faith, fertility, growth, renewal and eternity .The Jewish religion considered it the reason of seducing eve, and the cause of her fall from the paradise (heaven) to earth. Christians were mainly affected by the Jews and considered it a symbol of rescue and wisdom.

The Arabs named their children after the names of Alhieh. They believed it to be the daughter of fairy, and so it was widely mentioned in their tales and stories about fairy. The second chapter was devoted to talk about the life of Alhieh . I talked about the meaning of Alhieh and its names, which were ordered alphabetically. It has more than thirty names. I,

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit

also, talked about its colors and their relationship with the natural surroundings. I also talked about its body from head to tail . I also reflected the poets' attitudes towards the parts of its body , such as head, tongue, tusks, eyes ...etc.

The name of Alhieh (the snake) is closely connected with the word Alhaya (The life).

The poets concentrated on the parts of the body of the snake which symbolized life and death.

In the third chapter, I talked about Alhieh (the snake) in Aljahli (pre-Islam) poetry.I talked about Alhieh and the woman. I also talked about the relationship between Alhieh and the plants and its relationship with Aljin (fairy). I talked about Alhieh and water and about the places of its existence on earth.

There was close relationship of mentioning Alhieh and woman, Alhieh and plants. This relationship is deeply rooted in the history. It was clearly concluded that Alhieh and Aljin (fairy) are closely related; so people began to think of ways to beat it and the best solution for them was to say prayers. The people of Aljahilieh were afraid of coming close to water resources feeling that Alhieh was there.

Finally, the fourth chapter was devoted to four subjects: sin and vile, eternity and life, fertility and evil. I concluded that Alhieh had very old symbols (since the paradisiacal stage) in which it stood for the guard of the paradise.It seduced Eve of eating from the forbidden tree, and was considered responsible for Eve's sin and fall from heaven to earth. The feeling of enmity between Alhieh and women is eternal.

The myths, poems, the verses of holy Quran and the sayings of prophet Mohammad reinforced this kind of relationship. The Jahili poets saw in Alhieh a symbol of strength, renewal, life and eternity, on the other hand it symbolizes evil, treachery killing, death for others. As it was considered life giving, it was considered life taking. In this way the cycle of nature is completed with all its elements.

All Rights Reserved - Library of University of Jordan - Center of Thesis Deposit